

كلية الدراسات العليا

برنامج الماجستير في الديمقراطية وحقوق الإنسان

أقنعة تحررية: غاندي، فانون، سعيد
Emancipatory Masks: Gandhi, Fanon, Said

إعداد: مراد البسطامي **1055170**

إشراف د. عبد الرحيم الشيخ

الفصل الثاني

2009



كلية الدراسات العليا

برنامج الماجستير في الديمقراطية وحقوق الإنسان

أقنعة تحررية :غاندي، فانون، سعيد

Emancipatory Masks: Gandhi, Fanon, Said

أعضاء لجنة النقاش

د. عبد الرحيم الشيخ	مشرفاً	....
د. رنا بركات	عضواً	....
د. سمير عوض	عضواً	....

قدمت هذه الرسالة إستكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الديمقراطية وحقوق الإنسان من كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت

تمت المناقشة بتاريخ 26-10-2009

إعداد

مراد عبد المنعم البسطامي

1055170

2009

الإهداء

M.R

مع كل التقدير

مراد البسطامي

شكر وتقدير

يسعدني بالبداية أن أتقدم بالشكر الخاص للأستاذ الدكتور عبد الرحيم الشيخ، مشرفاً، ومديراً، على جميع الجهود التي بذلها ويبذلها، والتي لولاها لما أمكن إنجاز هذا العمل الذي تم بظروف شخصية صعبة، كذلك أتوجه بالشكر الجزيل إلى لجنة الإشراف ممثلة بالدكتورة رنا بركات ود. سمير عوض على الجهود الرائعة وعلى إقرار هذه الرسالة للنقاش.كذلك إلى كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت ممثلة بالدكتورة ليزا تراكي، ود. عبد الرحيم الشيخ على منحة العمل والدراسة، والتي وفرت لي شرف العمل والاستفادة من خلال وحدة المساندة الأكاديمية في جامعة بيرزيت.

كذلك أتوجه بالشكر والتقدير إلى أساتذتي في لبنان وفلسطين كل من د. أوغاريت يونان، د. وليد صليبي، د. هلغى باومغارتن، د. مبارك عوض، د. أحمد مجدلاني، الذين ساهموا بشكل فعّال في إنجاز هذا العمل، من خلال توفير بعض المصادر والاستشارات المهمة في حقل الدراسة، كذلك من خلال الدعم والتشجيع الدائمين.

مع كل التقدير والمحبة

مراد البسطامي

Abstract

This Thesis seeks to probe a Critical perspective toward the libertarian models & its allegations in resisting the colonial Cases. These models represented as the violent model (Fanon); & the nonviolent model (Gandhi). Whereas; there is controversial opinions on hypothetical model contains the violent & the nonviolent resistance in its synthesis, portrayed by Dr. Abd Al Rahim Al Sheik as “Fandi Model” from combining Fanon & Gandhi, & referred to Edward Said as think tank.

In this research, there is an Approach to deconstruct the idea of liberation & it’s Synonymous through revising these Models structurally & thematically; the purpose from such revise not to compile the models in to lineament Schemata’s or narrativization or historization, as long as it’s an attempt to represent critical approach or reconstructive synthesis toward the libertarian Models & it’s controversial Synonymous. Meanwhile; the study associated with a comparative analysis between libertarian models, & its theoretical schools & rhetoric’s, where there is a highlight or Insights on the Overlapping & Underlying themes, as well on the points of differences & convergence between Models.

The whole point from such approach is to perform demonstrable identification, toward the libertarian models & it’s controversial discourses, this line of argument raise several questions regarding the dogma & discourses of some liberations movements, this broad sense, raise larger question, whether if there any kind of correlations or discursive between the diction of Liberation, & the shape of the state after liberation? Obviously, this importuning question raise another questions like the outcomes of the libertarian models & its effectiveness regarding the democratic

building, & the consequences of the use of violence or the nonviolence, on the human rights, & the frame of the state after & during the liberation.

In order to answer the main hypothesis & the study questions; the study depends on the critical narrative & case studies as well on the comparisons between libertarian models & text analyses as methodology; these methods in analysis provides a demonstrable approach in understanding the resources of libertarian & colonial movements so far, although; provide an approach to understand the borderline between violence & nonviolence.

The study also addresses the validity of the Palestinian liberation model, which Courses through the Israeli colonial matrix. Furthermore; there is a tackling to some critical Synonymous like (violence, nonviolence, liberation, & the borderline between violence & nonviolence). These Synonymous still controversial, & there is no converge about it, hence, the standardization of terminologies considered as a part of the thesis questions.

The study inclusive six chapters, divided in to two major sections, the first part speaks about the colonial movements & its birth & representations, with special focus on Zionism, & its representation where anti-Semitism & holocaust has been employed to achieve colonial desires.

In the second chapter, there is narrativization about the Psychology of colonialism & the colonizer, & the factors that create the decolonization movements whereas, there’s a focus on the psychological factors as effective tool to understand the decolonization behavior.

The second section speaks structurally & thematically about the libertarian models & its components, which are; the violent model (Fanon), the nonviolent model (Gandhi), & the model that include the violence & nonviolence (Fandi), referred to Edward Said as a thinker & model. In the last chapter there is a narrative about the results of each model regarding its efficiency on human rights & democratic building, costs of liberation, and the shape of the state after the liberation.

ملخص الرسالة

تسعى هذه الرسالة إلى تقديم دراسة تحليلية ونقدية للنماذج التحررية التي عرفتها الشعوب المعاصرة في مقاومة الحالات الاستعمارية المختلفة، ومن هذه النماذج النموذج العنفي "فانون"، والنموذج اللاعنفي "غاندي"، وتستنبط في نفس الوقت نموذجاً ثالثاً يجمع ما بين المقاومة المسلحة والمقاومة اللاعنفية أطلق عليه د. عبد الرحيم الشيخ تسمية نموذج " فاندي" من دمج فانون وغاندي، حيث يعتبر إدوارد سعيد المنظّر الأساسي لهذا النموذج المفترض. لذا هناك محاولة لتقديم تفسيرات حول هذه النماذج ومدارسها الفكرية ومبرراتها الأخلاقية وأدواتها، من خلال سبر وتفكيك هذه النماذج وتصنيفها.

تكمن أهمية هذه الدراسة بأنها أولاً تعطي للقارئ صورة هيكلية مقارنة لنماذج و بنى التحرر، وتدلل على الآليات التي يستفحل بها الاستعمار في مشروعه الاستعماري، وتتحدث في نفس الوقت عن فاعلية استخدام وسيلة تحررية دون أخرى، وعلاقتها بحقوق الإنسان، وبشكل الدولة المستقبلي بعد التحرر من حيث التأسيس لدكتاتوريات أو لديمقراطيات. فهل هناك علاقة بين أسلوب التحرر وشكل الدولة بعد التحرر ؟

ثانياً، تسلط الدراسة الضوء على خصوصية النموذج التحرري الفلسطيني، والمرتبط هو الآخر بخصوصية النموذج الاستعماري الإسرائيلي. وتبرز أيضاً جدلية الخلاف على بعض المفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الدراسة والأدبيات الأخرى من قبيل "الأخلاقية" ومن الذي يحددها، و مفاهيم مثل "العنف" أو "التحرر"، "فلسطين" ، وماهية الخطوط التي تفصل بين العنف واللاعنف، الأمر الذي يجعل من معالجة هذه المفاهيم محط خلاف دائم.

تحاول هذه الدراسة من ناحية أخرى أن تجيب على إشكالية مركزية متعلقة بالخطوط التي تفصل بين المقاومة المسلحة " نموذج فانون" والمقاومة اللاعنفية "نموذج غاندي" ويضاف إليها طرح نموذج يجمع بين هذه النماذج وهو نموذج "فاندي" في محاولة للوصول إلى حل لهذه المعضلة.حيث تم اللجوء إلى استخدام حالات دراسية لاستقراء هذه النماذج ومقارنتها معاً لاستخلاص الفوارق الفكرية بين هذه النماذج، بحيث كانت التجربة التحررية للجزائر مثالاً على النموذج العنفي " فانون"، بينما كانت تجربة غاندي في جنوب

إفريقيا مثالاً على النموذج اللاعنفي "غاندي"، و تجربة الفصائل الفلسطينية في التحرر من الشرط الاستعماري الإسرائيلي مثالاً على النموذج الخليط الذي يجمع بين المقاومة العنفية واللاعنفية " فاندي".

فالهدف من هذا التحليل ليس تعداد أو وصف مكونات أو بنى كل نموذج؛ بقدر ما هو تقديم صورة نقدية للآلية التي تتشكل بها هذه البنى التحررية، وللوقوف على الكيفية التي تنشأ أو تنتهي بها النماذج التحررية، بحيث يتم تسليط الضوء على الآلية التي تنشأ بها هذه الحركات والمبررات الأخلاقية التي تسوقها، والعوامل التي تؤدي إلى نجاح أو فشل المشروع التحرري. والآلية في ذلك من خلال عمل مقاربة مقارنة بين هذه النماذج ومدارسها الفكرية؛ للوقوف على نقاط الاتفاق والخلاف الجوهرية، والتي قد تعتبر بمثابة فواصل بين هذه النماذج. وصولاً إلى تعريف لما يعنيه العنف وما يعنيه اللاعنف في الدراسة.

تتكون الدراسة من ستة فصول موزعة على قسمين أساسيين: يتحدث القسم الأول عن الحركة الصهيونية ونشأتها ومبرراتها والأدوات التي استخدمتها، مع تخصيص لظروف ولادتها من حركة قومية إلى حركة استعمارية، والعوامل التي وظفتها مثل معاداة السامية والمحرقة في إخراج مشروعها الاستعماري إلى الوجود، كذلك الحديث عن أوجه الشبه بين الصهيونية و الحركة الاستعمارية الأوروبية. كما تناول هذا القسم في شقه الثاني الحديث عن سيكولوجيا الاستعمار وسيكولوجيا التحرير، والعوامل التي يوظفها الاستعمار في تأبيد الحالة الاستعمارية، من ناحية أخرى، الحديث عن العوامل التي تنمو بها حركات التحرر، والكيفية التي تنشأ بها هذه النخب و الحركات، والعوامل المؤثرة بها، مع تخصيص للعوامل النفسية كمفتاح في فهم الكيفية التي تتحرك من خلالها الجماهير نحو المشروع التحرري. والتي تمثلت بتيارين أساسيين، هما النموذج العنفي والنموذج اللاعنفي.

بينما تناول القسم الثاني النماذج التحررية التي عرفتها الشعوب المحتلة، وهي النموذج العنفي " فانون"، والنموذج اللاعنفي "غاندي"، والنموذج الخليط "فاندي" على التوالي، مع أخذ حالات دراسية لكل منها مستمدة من التراث الإنساني، ودراسة مراحلها وأدواتها وأخلاقياتها ومبرراتها، ومن ثم مقارنتها معاً من حيث الفعالية

والجدوى، ومدى التأسيس لحقوق الإنسان، أو أنظمة ديمقراطية بعد التحرر، أو مـــدى التأســيس لاســتبداد وإسقاط نتائجها على النموذج التحرري الفلسطيني.

قائمة المحتويات

الفصل الأول

الحركة الصهيونية: الولادة المقدسة

الفصل الثاني

الاستعمار والتحرير

الفصل الثالث

النموذج العنفي: فانون

الفصل الرابع

النموذج اللاعنفي: غاندي

الفصل الخامس

النموذج (اللا) عنفي: إدوارد سعيد

الفصل السادس

أقنعة تحررية

أقنعة تحررية: غاندي، فانون، سعيد

المقدمة والإطار النظري

منذ غزو "العالم الجديد" في العام 1492، وإخراج العرب وغير الأوروبيين من أوروبا، عرف "العالم القديم" بداية مرحلة جديدة من الفكر الأخلاقي و"الاكتشافات الجغرافية" والنهضة المعرفية، ونشأ معها نمط من الأفكار الاستعلائية النرجسية المرتبطة بشكل احتكاري على الإنسان الأوروبي "الأبيض"، بحيث شرّعت هذه الأفكار فكرة غزو الآخر "غير الأوروبي" ونفيه، واستعباده، واستغلال موارده، والقضاء على روايته وتراثه، و سبق هذا الغزو أو رافقه البعثات الدينية والاستشراق البدائي الذي مهد لهذه المشاريع الاستعمارية.

عرفت هذه الحركة بحركة "الاستعمار القديم"، ومن بعدها جاء "الاستعمار الجديد"، الذي عمَّق فكرة الأولى، وكرَّس نتائجها في مركزة أوروبا ونهضتها. والمقصود بأوروبا هنا الدول الاستعمارية الأوروبية، ولعل ذلك يرتبط بقوة أوروبا حينها، وبسبب الثورة الصناعية التي تطلبت البحث عن مواد خام وأسواق جديدة لتسويق هذه البضائع، فما كان منها إلا أن تبحث عن مناطق وأسواق جديدة، بحيث استعمرت مناطق عديدة في "الشرق" وفي "العالم الجديد"، لتكريس هيمنتها، وجلبت من مواطنيها من يرغب في الاستيطان. وبما أن المستعمر كان بحاجة إلى المزيد من الأيدي العاملة لأجل البحث عن الذهب، والموارد، كان لا بد له من استخدام السكان الأصليين ترهيباً وترغيباً كما فعل كولومبوس، ثم ليتم تحويلهم إلى عبيد بقوة السلاح. وفي مراحل أخرى، تم جلب الأيدي العاملة أو"العبيد" والسلاسل تجرهم بعد اختطافهم من أفريقيا بحراً؛ لاستخدامهم والمتاجرة بهم كسلع تباع وتشترى في أسواق النخاسة، ولعل هذا يفسر من ناحية ثانية وجود الكثير من الأصول الإفريقية لسكان كثير من دول الكاريبي وكوبا، كونها كانت محطات "نقل" لهؤلاء " العبيد".

وقد وصل مخطط النفي إلى حد الإبادة في كثير من الأحيان كما حدث مع الهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين، من هنا يمكن القول أن حركة الاستعمار الأوروبية ألحقت كماً هائلاً من الأذى الثقافي والتاريخي والديني بضحاياها، ففي حالات كثيرة تم طمس حضارات ولغات وأديان بأكملها لصالح الفكرة الدينية

الأوروبية. فانتشرت اللغة الإسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية، بينما انتشرت الإنجليزية والفرنسية في أمريكا الشمالية كونها مناطق نفوذ الفرنسيين والإنجليز، كل ذلك على حساب أديان ولغات السكان الأصليين، فسمعت ووثقت رواية الرجل الأبيض "الغازي" عن "أرض الميعاد"[1] و"العالم الجديد" ، ولم تسمع إلا لماماً، مأساة شعب المايا، أو قصة السكان الأصليين في أستراليا، أو قصة قبائل الأباتشي أو الشيروكي أو البونتياك والتي تحولت أسمائها إلى سلع إستشراقية. لذا تطلبت نهضة الرجل الأبيض الأوروبي و حداثته الكثير من دماء الشعوب الأخرى. هذا وتجاوزت المبررات الاستعمارية متطلبات الأسواق وبناء المستعمرات في "العالم الجديد" نحو مبررات دينية "تنويرية" تم اختلاقها كأدوات للتطهير أو التنقية؛[2] ليصبح شعار "التحرير" من الطغيان، و"جلب الحرية" أقنعة لحركة الاستعمار. فالحركات الاستعمارية وظفت الدين والكنيسة لصالح مشروعها، بينما تتنافى العقائد المسيحية ومبادئها كلياً مع حركة الاستعمار.

وقد أدت هذه الممارسات إلى ردود فعل متباينة لدى الشعوب المستعمرة. فمنها من سلّم بالأمر الواقع، وتعايش مع الوضع الذي تم تحسينه ولو شكلياً، فعاشوا كجماعات مسيجة فلكلورية كما فعل الهنود الحمر والأفارقة الأمريكان، ليشكلوا مجتمعات موازية داخل المجتمعات الاستعمارية وليذوبوا فيها، ومنهم من يناضل لكي يحصل على حد أدنى من الاعتراف بالجرائم والانتهاكات المرتكبة بحقه.

من هذه المقدمة كان لا بد لنا من رسم صورة عن الأوضاع التي عاشتها بعض البلدان في حالة الاستعمار، حيث تشابهت في العادة أدوات وأشكال حكم المستعمر، تمثلت بعدة أنماط من الاستعمار، منها الحكم العسكري المباشر (قواعد عسكرية، حواجز، جنود متطوعين من الدول المستعمرة)، و استعمار ثقافي (محاربة اللغة والدين والمؤسسات الثقافية العامة)، و استعمار اقتصادي (أسواق، أيدي عاملة رخيصة،السيطرة على المواد الخام والموارد والأراضي الزراعية)، واستعمار سياسي (نخب فاسدة، سلطة شكلية عميلة للاستعمار، معاهدات). كذلك سيتم الحديث عن الكيفية التي تمت فيها محاكاة حركة الاستعمار الحديث في مناطق مختلفة من العالم، خصوصاً في فلسطين. وهنا، سيتم الحديث عن الحركة الصهيونية كحركة استعمارية، حيث

---

[1] انظر أيضا إلى العكش،منير 1996. الجلاد المقدس.دورية جسور. ع7|8: 5-41

أصبح الاستعمار أكثر تعقيداً من خلال توظيف الدين والأساطير التاريخية وتزوير التاريخ لأجل تبرير الغزو والسيطرة على السكان الأصليين، وهنا استطاعت الحركة الصهيونية أن تخلق نظام استعماري جديد يجمع ما بين الاستعمار الكلاسيكي (قواعد عسكرية واستيطان وأسواق)، والاستعمار الحديث الذي يتخلله نظام من التمييز العنصري (فصل السكان والتمييز بينهم)؛ ليشكل منظومة استعمارية فريدة وجديدة.

على صعيد أخر، برزت عدة أنماط مقاومة للمشاريع الاستعمارية، تمثلت بما يسمى بحركات التحرر، والتي اتخذت إما الشكل الديني أو الشكل القومي، متأثرة بفكرة الدولة القومية التي ظهرت في أوروبا، حيث أفرزت هذه الثورات فيما بعد دولاً مستقلة ما بعد استعمارية وذات سيادة محلية شكلية. بينما عرفت حركات تحرر أخرى إحباطات ونكسات لم تقد إلى التحرر بل إلى تغيير شكل الاستعمار فحسب. في هذا السياق، تنوعت نماذج وأدوات التحرر من الاستعمار، وانقسمت بشكل رئيسي إلى قسمين: الأول، وهو الأكثر شيوعاً، كان التحرر من خلال الكفاح المسلح أو استخدام الكفاح "العنف". وقد كان من أبرز منظري هذا النموذج فرانز فانون المفكر من جزر الكاريبي الذي حارب مع الثورة الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي، وقد عرف هذا النموذج في مناطق متنوعة منها فيتنام، وأيرلندا الشمالية، وأفغانستان،والجزائر. ليشكل مدرسة لها أخلاقياتها ومبرراتها وأدواتها. أما النموذج الآخر، فهو المقاومة اللاعنفية أو استخدام اللاعنف في التحرر من الاستعمار. ومن أبرز منظريه سيمون فايل[3] وتولستوي[4] والمهاتما غاندي، الذي قاد الهند إلى التحرر، بالإضافة إلى تجربته في جنوب أفريقيا، ونجد هذا النموذج في تجربة بولندا في التحرر من الشيوعية، والنرويج في التعامل مع المحتل النازي أثناء الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى بعض الحركات السياسية، والاجتماعية والمدنية، التي أحدثت تغيرات جذرية في تاريخ الشعوب مثل تجربة مارتن لوثر كبنج في الولايات المتحدة ، والثورة الفيليبينية ضد حكم ماركوس في أواخر القرن العشرين.

---

[2] Kebede, Messay. 2004 Africa' s Quest for a Philosophy of Decolonization. Volume 153.Amsterdam: VIBS

[3] انظر أيضا إلى موللر، جان ماري.2009.سيمون فايل رغبة اللاعنف. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.

[4] انظر أيضا إلى موللر، جان ماري.2009. تولستوي وعدم مقاومة الشر بالعنف. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.

................2009. الانتقام ليس حقاً من حقوق الانسان. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.

................2009. ملكوت الله فيكم. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة

فالأساليب النضالية التي اتخذتها حركات التحرر ضد الاستعمار، هي مثار اهتمام الدراسة ، حيث سيتم تناول الكيفية والأدوات التي قاومت بها الشعوب المستعمَرَة الشرط الاستعماري وكيف وظفت له الموارد لمقاومتها، وما نجم عن ذلك من"تحرر" أو "استقلال"، وما تبع ذلك "الاستقلال" من ممارسات سياسية في الدولة المستقلة الحديثة، و تأثيرات ذلك "التحرر" على قضايا مثل نشوء المؤسسات الديمقراطية، أو تأسيس ديمقراطيات شكلية أو حتى حكومات استبدادية. للإيجاز نقول إنه توجد مدرستان، تاريخياً، للتحرر: واحدة تنّظر للعنف وتعمل بالكفاح المسلح (نموذج فانون)، والأخرى تعمل وتنظّر للمقاومة بالوسائل اللاعنفية (نموذج غاندي). لكن هذه الدراسة تتخصص في نموذج ثالث يجمع ما بين العنف واللاعنف وله هو الأخر أساليبه وأدواته ومنظروه، ولعل من أبرزهم إدوارد سعيد. وبامتزاج النموذجين السابقين ينتج نموذج "فاندي"[5] وهو المحور الرئيسي في هذه الدراسة. لذا تركز هذه الدراسة بشكل عام على بنى نماذج التحرر، وعلى النموذج التحرري الفلسطيني بشكل خاص؛ من خلال تبيان مدى خصوصيته، المرتبطة بخصوصية الشرط الاستعماري الإسرائيلي الذي يمتاز هو الآخر، بالخصوصية عن أنماط الاستعمار التقليدية، حيث لم يسبق لشعب أن خضع لهكذا نوع من الاحتلال الاستبدالي الإحلالي.

ستتناول الدراسة طبيعة هذا الاحتلال المختلفة عن تجارب الشعوب الأخرى من خلال دراسة طبيعة الحركة الصهيونية التي أسست دولة إسرائيل، معتمدة على مفكريها ومؤرخيها إضافة إلى جيشها. ولكن ستفحص كذلك، أساليب الكفاح الفلسطيني ومخرجاتها من خلال مقارنة النموذج الفلسطيني بالنماذج التحررية الأخرى كالجزائر وجنوب أفريقيا. فقد عرف الفلسطينيون الكفاح المسلح العنفي واستخدموه في فترات مختلفة، ولكنهم عرفوا أيضاً، بعض أشكال الكفاح اللاعنيف في فترات ومواقع أخرى. وهذه الحالة من تنوع الأساليب أنتجت (نموذج فاندي)، أو كادت، أي النموذج الذي يجمع المقاومة العنفية مستنداً إلى مبدأ الحق في المقاومة حسب القانون الدولي، والمقاومة السلمية (غاندي) كوسيلة أكثر فاعلية وإقناعاً بعدالة المطالب. وهنا ستتم المقارنة بين نموذج لدولة مارست العنف في التحرر (نموذج فانون) ، والحالة هنا الجزائر وما نجم عن هذه الحالة ومسيرتها، ونموذج لدولة مارست اللاعنف في التحرر (غاندي)، والحالة هنا جنوب أفريقيا، حيث ستتم

[5] أطلق هذه التسمية د.عبد الرحيم الشيخ في العام 2006 في إحدى النقاشات الصفية على النموذج الذي يجمع الكفاح المسلح

المقارنة بين هذه النماذج ومقارنتها مع النموذج الكفاحي الفلسطيني من حيث الأخلاقية، والعناصر المكونة لهذا النموذج، والفاعلية في تحقيق الأهداف، الأدوات المستخدمة، ودورة الحياة، والأخلاقية من حيث احترام حقوق الإنسان، وما أنتجته هذه النماذج من دول ديمقراطية أو دكتاتورية بعد التحرر. فالحالات الدراسية لغرض المقارنة فقط، أي ليست هي موضوع الدراسة الأساسية، إذ الذي يهم هنا، هو النموذج بحد ذاته كمنظومة وكبنية، والنتائج التي أدى إليها من خلال التساؤل والبحث عن النماذج التي تؤسس أكثر لديمقراطية من خلال مقارنة ما حدث في الجزائر، وما حدث في جنوب أفريقيا بعد التحرر، بينما لم تنتج بعد دولة في الحالة الفلسطينية نظراً لخصوصية الشرط الاستعماري الإسرائيلي، ونظراً للخصوصية الفلسطينية التي أعاق حداثتها الاحتلال. وهنا يكمن الاختلاف بين نموذجي العنف واللاعنف وأيهما يؤسس لاستبداد وهذا ما ستحاول الدراسة الإجابة عليه، حيث إن فلسطين ليست دولة مستقلة وذات سيادة بعد، ومن هنا تنشأ صعوبة تحديد المسار الذي ستتخذه حركة التحرر الفلسطيني بعد الاستقلال، فهل ستكون على شاكلة المستعمر وتستخدم نفس السجون والأدوات التي كان يستخدمها؟ أم إنها ستؤسس لنظام ديمقراطي حديث، ولعل هذا يقود إلى تساؤل أخر تطرقه هذه الدراسة عن الضمانات التي قد تحول دون تحول الدولة التي تحررت من المستعمر إلى (محتل محلي) وهذا ما ستحاول الدراسة الإجابة عليه.

مراجعة الأدبيات

هناك العديد من الكتابات والدراسات التي تناولت موضوع الدراسة، كالصهيونية والقضية الفلسطينية، والمسألة اليهودية،والاستعمار، و أساليب التحرر، بالإضافة إلى مسألة القومية و التحول الديمقراطي ومعيقاتها، وأخرى لمفكرين كفانون، وغاندي وإدوارد سعيد، ويلاحظ للوهلة الأولى كم المواضيع المطروحة في الدراسة وتنوعها، الأمر الذي يجعل من مراجعة أدبياتها عملية طويلة، ولكن يمكن تلخيص هذه المراجعة من خلال الوقوف على أبرز النقاط التي تتناول مباشرة موضوع البحث. بناءاً على ما سبق يمكن تقسيم الأدبيات التي تمت مراجعتها إلى ثلاثة محاور: المحور المفاهيمي ، المحور التاريخي،المحور الأخلاقي.

والمقاومة اللاعنفية وللدلالة على نموذج الكفاح الفلسطيني.

المحور الأول: المحور المفاهيمي

هناك مشكلة بحثية في الدراسة متعلقة بتحديد مفاهيم الدراسة مثل "العنف واللاعنف" و "التحرر"، "فلسطين" "الاستعمار والتحرير" وغيرها من مصطلحات، حيث لا يوجد اتفاق أو إجماع على أي من المصطلحات السابق ذكرها، كون بعض المصطلحات تعبر عن فترة ما قبل الحداثة، وبعضها الأخر مختزل و مركب يحتاج برأي الباحث إلى تحليل، من كان هناك صعوبة منهجية في التعامل مع بعض المفاهيم بمصطلحات ما بعد حداثية، كذلك بالنسبة لعمومية بعض المصطلحات مثل الحديث عن تعريف "للديمقراطية" أو "التحرر" أو حتى مفهوم "الأخلاقية"، من هنا تأتي الصعوبة في صياغة إطار مفاهيمي جامع.

بالنسبة للأدبيات التي تم مراجعتها، فقد تناولت كما سبق مفاهيم مركبة وذات سمة قيمية مثل " التحرر" أو "الأخلاقية". وفي نفس الوقت عّبرت عن تناقض في تفسير هذه المفاهيم، حيث لا يوجد اتفاق على بعض المفاهيم مثل تعريف "العنف"، أو "التحرر". الأمر الذي يعتبر من مشكلة دراسية كما سبق القول. بينما توجهت دراسات أخرى لتوضيح المقصود من مصطلحاتها، من أبرزها دراسة جان ماري موللر (1995) ***معنى اللاعنف***، وقاموس اللاعنف (2008)، الذي خصصه لتعريف الكثير من مصطلحات اللاعنف كالعصيان والإضراب وشدد على ضرورة وضع هذه التعريفات حتى لا يحدث لبس في المعنى، ولكن التعاطي مع مصطلحات ما بعد حداثية يتناقض مع بعض التعريفات الما قبل حداثية مثل تعريف العنف الذي تعتبره الماركسية بأنه تناقض، من هنا تأتي جدلية وضع بعض المفاهيم. وكتاب مارتن لوثر كينج (1998) ***قوة المحبة***، والذي تحدث من خلاله عن المقصود بالعمل اللاعنفي ومبرراته و أخلاقيته، كذلك كتابات جين شارب(2007) الذي وضح هو الأخر الفرق بين العنف واللاعنف، بل حتى انه أضاف العديد من التعريفات، أهم ما قام به جين شارب هو انه وضع بعض المحددات التي تفصل بين العنف واللاعنف خصوصاً في كتاب Waging Non-Violence Struggle. وكتاب فانون (1963)، معذبو الأرض، حيث وضح ما المقصود بالتحرر وحدد معنى العنف وجعله مقتصر على مفهوم العنف الثوري والإنعتاق، ولكن لم يتحدث فانون عن أشكال العنف المختلفة مثل بل جعله مقصوراً على العنف المباشر المتمثل بالحالة الاستعمارية نفسها، وهنا يكمن قصور فانون في التعامل مع العنف، حيث لم يحلل البنية النفسية للعنف او حتى البنية النفسية التي

تشكلها الحالة الاستعمارية، بل اكتفى بالحديث عن الثنائيات المتشكلة لدى بعض النخب، ولكن هناك ضرورة برأي الباحث للتعامل مع البنى النفسية المتشكلة من الحالة الاستعمارية. بينما لم يحدد ادوارد سعيد في مؤلفاته العنف أو المثقف أو الأخلاقية أو الاستعمار بشكل واضح، بل تعامل مع هذه المصطلحات بمصطلحات ما بعد حداثية، مثل المثقف والسلطة (2006)، الثقافة والمقاومة (2006) أو في الثقافة والامبريالية (1997). عندما تحث عن وصف لدور المثقف أو المقاوم، ولكن تبقى مشكلة هذه المعالجة بأنها مركبة من الصعب الإجماع عليها، كذلك توجهات ادوارد سعيد النخبوية في التعامل مع الشرط الاستعماري أو حالة التحرر من خلال الحديث عن المثقفين وإعادة كتابة التاريخ، بينما يرى الباحث أن هناك شروط أخرى موضوعية وغير نخبوية قد تقوم بنفس المهمة والمتمثلة بالحديث عن سيكولوجيا الجماهير واليات تحريكها، دون الالتفات إلى دور المثقفون، بحيث تكون مهمة الأساطير والروايات وإعادة كتابة التاريخ وظيفية لحركات التحرر وليس العكس.

لذا فإن إبراز المفاهيم وتحديد القصد منها في كل دراسة، أمر حيوي لم تتناوله بعض الدراسات بل جعلته للقارئ على اعتبار أن هناك إجماع حول المفهوم، بينما من الصعب تحديد بعض المفاهيم لكون بعضها يشكل مشكلة دراسية بحد ذاته. فما هو الخط الفاصل بين العنف واللاعنف؟ الأمر كذلك بالنسبة لمصطلحات أخرى كالديمقراطية، التحرر، الدكتاتورية التي تحتاج جميعها إلى سبر وتفكيك مثل: بارنغتون مور (1973) "**الجذور الاجتماعية للدكتاتورية الديمقراطية**"، من هنا كان هناك صعوبة في وضع اطار مفاهيمي للدراسة.

المحور الثاني: المحور التاريخي السردي

يتناول هذا الجانب من الأدبيات المتعلقة بحركات التحرر والقضية الفلسطينية، والصهيونية والديمقراطية والكفاح المسلح والمقاومة العنفية واللاعنفية. وهنا ممكن أن نقسم هذه الأدبيات ثلاث محاور:

المحور الأول يتحدث على صعيد الحبكة الإسرائيلية الرسمية ومحاولة نفي الوجود الفلسطيني هناك أعمال كلاسيكية كثيرة[6]، كذلك كتابات روجيه غارودي (1996). **الأساطير المؤسسة لإسرائيل،** ولكن مشكلة هذا الكتاب بأنه يتحدث عن جانب محدد متعلق بالأساطير التي أعتمد عليه التيار المركزي بالحركة الصهيونية، كذلك لم يميز غارودي بين هذه الأساطير كونها جزء من الأسطورة الدينية المؤسسة لليهودية نفسها، وبين تفسير هذه الأساطير وتوظيفها في المشروع الصهيوني وصعوبة الفصل أحياناً بين الاثنين، بسبب تداخل الديني مع التاريخي، كذلك إبراهيم أبو لغد (1998). "**أسطورة إسرائيل الثامنة،** حيث ينتقد هو الأخر الأساطير المستخدمة، أما ابرز هذه الأدبيات فكان ادوارد سعيد (2004). **الحرب من أجل فلسطين، إعادة كتابة التاريخ،** وهو تفنيد للإدعاءات الصهيونية والأطروحات والاختلافات التي تنسجها في سبيل اختلاق تاريخ مزيف، ونفي الفلسطينيين منه، واحتكار التاريخ إذا ما صح التعبير، والمركزية حول الذات التي جعلتها الصهيونية أساس في مشروعها الاستعماري، في نفس الوقت يطرح ادوارد سعيد فكرة إعادة كتابة التاريخ، هذه الفكرة تم الاستفادة منها في الحديث عن نموذج فاندي، حيث دعا سعيد إلى إعادة كتابة التاريخ كجزء من العملية التحررية نفسها. من ناحية أخرى هناك ميرون بنفينسي (2001). **المشهد المقدس،** طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ 1948 ، والذي يتحدث فيه عن طبيعة السياسة الصهيونية، تمت الاستفادة من هذا المرجع من خلال الحديث عن خصوصية النموذج الاستعماري الصهيوني، وكذلك في الحديث عن تيار ما بعد الصهيونية، ومن الأدبيات أيضا زئيف ستيرنهل (2001). **الأساطير المؤسسة لإسرائيل،** والذي تحدث عن الأساطير التي اعتمد عليها التيار المركزي في الحركة الصهيونية، في خلق أساطير جديدة وفي خلق الرواية الصهيونية المركزية، ولكن قصور هذا الكتاب يكمن في عدم الوقوف على النموذج الاستعماري الإحلالي نفسه وعلاقته بالأساطير، كذلك عدم معالجة الأبعاد النفسية للأساطير في سيكولوجيا الجماهير،

---

[6] See also **Anita Shapira**. Land and Power: The Zionist Resort to Force, 1881-1948 (Studies in Jewish History)/; translated by William Templer. Oxford University Press, 1992; Essential papers on Zionism / edited by Jehuda Reinharz and Anita Shapira. New York: New York University Press, 1996. **Yehoshua Porath**. The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1919-1929*]*, Jerusalem, The Hebrew University of Jerusalem Press, 1974; The Palestinian Arab National Movement from Riots to Rebellion, 1929-1939], Jerusalem, The Hebrew University of Jerusalem Press, 1977; Identity Crisis of Palestine Arabs , 1930-1945, Jerusalem, The Hebrew University of Jerusalem Press, 1986. **Eban, Abba.** *My Country: The story of Modern Israel*, London, Weidenfeld & Nicolson, 1988.

وأخيرا عدم الحديث عن الآلية التي تصنع بها الأساطير في إسرائيل والتي هي متجددة ومستمرة . ولكن تم الاستفادة من هذا الكتاب في التعرف على الأساطير التي اعتمدها التيار المركزي، وكيف ستنشأ بعدها أساطير جديدة في فترة ما بعد الصهيونية.

المحور الثاني على صعيد المراجعات التصحيحية للتاريخ اليهودي فيما يتعلق بالمؤرخين الجدد وحركة التاريخ الشفوي، هناك كتب أساسية (ليست من كتب المؤرخين الجدد نفسها، ولكن من تلك التي قدمت لها وراجعتها بشكل نقدي وسجالي[7]، ومنها:

. نحمان بن يهودا. (2001) ." **أسطورة المسادا**". الذي قدم نقد تعرية لأسطورة المسادا والتي ظلت طويلاً محط جدل وكجزء أساسي من الدعاية والسيكولوجية الصهيونية، ومشكلة هذا النص انه تعاط مع وقائع تاريخية، بينما اغفل تأثير هذه الأسطورة على الشخصية الصهيونية، و لم يتحدث عن الكيفية التي أصبحت فيها هذه الأسطورة جزء من العقل الجمعي والمؤسسي الصهيوني، كذلك ايلان بابه (2007) "**التطهير العرقي في فلسطين**"، وهو من أهم الأدبيات التي قامت بمراجعة نقدية لتاريخ إسرائيل، وتحدثت بصورة نقدية عن زيف الدعاية الصهيونية وعن أعمال القتل والتهجير التي قامت بها العصابات الصهيونية، وتم الاستفادة من هذا النص في تحليل طبيعة الحركة الصهيونية، وفي الحديث عن مرحلة ما بعد الصهيونية، كذلك في فهم طبيعة الحركات العنفية والعصابات التي تأسست وتطورت قبل قيام الدولة ودورها المميز في التأسيس لما يسمى بدولة إسرائيل، ومن أكثر هذه الأدبيات جدلاً بيني موريس.(1993). "**طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين**"، و. كتاب" **تصحيح خطأ**" (2003) لنفس المؤلف، حيث يبرر بيني موريس ما قامت به الحركة الصهيونية عند تأسيس إسرائيل، ويحاول أن يقدم مراجعة لما سماها خطأ بن غوريون، بيني موريس قدم رواية مضللة لأحداث الحرب، وفي نفس الوقت كان دفاعي في التعاطي مع الوقائع، بل وعدم الاعتراف

---

[7] **See also Said, Edward & Avi Shlaim** (eds.), *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*, Cambridge, Cambridge University Press, 2001
Pappe, Ilan (ed.), The Israeli/ Palestinian Question: Rewriting Histories, London, Routledge, 1999
Flapan, Simha, *The Birth of Israel: Myths and Realities*, New York, Pantheon Books, 1987
Adiv, E., *Politics and Identity: A Critical Analysis of Israeli Historiography and Political Thought*, London, The University of London, 1998
Beit-Hallahmi, Benjamin, Original Sins: Reflections on the History of Zionism and Israel, New York, Olive Branch Press, 1993

بالوثائق الجديدة التي قدمها بعض الباحثون الجدد من أمثال "داني كاتس" والذي كشف عن مجزرة "الطنطورة"، منهجية موريس كانت دفاعية تبريرية تعكس أجندة خاصة، على عكس أيلان بابيه، هذا النوع من الأدبيات يمكن اعتباره جزء من الدعاية الإعلامية الأمر الذي يؤثر على جودة العمل البحثي، ويفقد البحث مهنيته.

أما المجموعة الثالثة فهي على صعيد القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية، حيث ثمة مجموعة من الكتب المركزية[8]، ولعل من أبرزها مؤلفات د. عبد الوهاب المسيري والذي يعد من أهم المتخصصين بالموضوع ممن تناول الصهيونية بمنظار نقدي تحليلي ، كذلك اعتماده على عدة وسائل بالتحليل مثل المقارنة بين الصهيونية و النموذج الجنوب أفريقي ومقارنة الصهيونية بالنازية في العديد من الكتابات، كذلك قام بمحاولة تفكيك بنية المشروع الصهيوني التحتية مثل نقد للأساطير والروايات التاريخية المختلقة، من خلال الحديث عن توظيف العداء للسامية والمحرقة، يمكن القول أن كتابات المسيري تعد من أهم ما كتب عن الصهيونية[9]

[8] See also, **Khalidi, Rashid**, *Palestinian Identity: the Construction of Modern National Consciousness*, New York, Columbia University Press, 1997; 'The Resolutions of the 19th Palestinian National Council', *Journal of Palestine Studies*, 74, 1990, pp.29-42.; 'Arab Nationalism: Historical Problems in Literature', *American Historical Review*, 96, 1991, pp.1363-1373;
Muslih, Muhammad, The Origins of Palestinian Nationalism, New York, Columbia University Press 1988; Toward Coexistence: An Analysis of the Resolutions of the Palestine National Council, Washington, The Institute of Palestine Studies, 1990.
Darraj, Faysal, *Buws al-Thaqafa fi al-Muassash al-Filistiniyya*, (The Missery of Palestinian Cultural Institiution), Bierut, Dar al-Adab, 1996; *Zakirat al—Maghlubin: al-Hazima wa-al-Sahiuniyyah fi al-Kitab al-Thaqafi al-Filastini* (The Memory of the Oppressed: Defeat and Zionism in Palestinian Cultural Discourse), al-Dar al-Baidaa`, al-Markiz al-Thaqafi al-Arabi, 2002; 'Fi al-Hawyah al-Thaqafiyya al-Filistinyyah' [On Palestinian Cultural identity], *Al-Karmel*, 50, 1997, pp. 23-44. (In Arabic);
Shofani, Ilyas, *al-Mojaz fi Tarikh Filastin al-Siyasi Munth Fajr al-Tarikh Hata Sanat 1949* (The Reader of Palestine Political History from 1 A.D. until 1949), Beirut, Musasat al-Dirasat al-Filistiniyya, 1996. (In Arabic);
Khalidi, Walid (ed.), *All that Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948*, Washington, Institute for Palestine Studies, 1992;

[9] انظر أيضا إلى

- المسيري، عبد الوهاب. 2003. البروتوكولات واليهودية والصهيونية .ط1. القاهرة: دار الشروق.
- .... 2001. الصهيونية والعنف.ط1.القاهرة: دار الشروق.
- .... 1988. الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية.ط1. تونس . دار النشر للمغرب العربي.

- المسيري، عبد الوهاب. 2007." فكر يهودي يهاجم اليهود واليهودية" " إسترجعت بتاريخ 1-10-2007 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- .... 2008. " الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- .... 2007. " جنود نازيون يهود" إسترجعت بتاريخ 16-1-2007 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- .... 2006. " هذه الحرب عدمية" إسترجعت بتاريخ 2-8-2006 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.

لكن القصور في كتابات المسيري كان من خلال عدم معالجته للتيارات الفكرية الحديثة التي تطورت فيها الصهيونية مثل تناول المؤرخون الجدد، كذلك في عدم الخوض في تحليل العوامل والبنى النفسية التي شكلتها واستخدمتها الحركة الصهيونية، حتى عندما تناول العنف بل انه تعامل مع الصهيونية بمنظار تاريخي سردي فقط، وهنا يكمن القصور في كتابات المسيري حول الصهيونية. كذلك دراسة روز ماري صايغ (1980) "**الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة**"، كذلك **يزيد** صايغ (1997). "**الفلسطينيون في الحرب الباردة**"، ولنفس المؤلف (2002). "**الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1993-1949**"، وكتاب فيصل حوراني.(2003)" **جذور الرفض الفلسطيني1918 -1948**، والذي تحدث به عن مسيرة المشروع الرافض للتسويات منذ العام 1936 وهو من الكتب المهمة في فهم تاريخ النضال السياسي الفلسطيني، لكن هذه التحاليل لم تتحدث عن أوجه المقاومة الأخرى، مثل النضال المدني والسياسي اللاعنفي في مواجهة المشروع الصهيوني، وهذه انتقائية بحثية برأي الباحث.حيث لا يمكن اختزال حركات شعبية من خلال الحديث فقط عن الكفاح المسلح وإهمال أشكال المقاومة الأخرى التي أهملت في هذه الأدبيات.

كذلك كتاب "**القضية الفلسطينية**" (1978) بالانجليزية لادوارد سعيد، والذي يعتبر من أهم المؤلفات حول الموضوع، حيث يقدم ادوارد سعيد تحليل عن الظروف التي نشأت بها إسرائيل وكيف أنها استخدمت عدة وسائل في إخراج هذا المشروع، القصور في هذا النص كان في عدم الحديث عن العوامل المحلية التي ساعدت في إنجاح المشروع الصهيوني، مثل دور النخب الفلسطينية أو دور القيادة المحلية والقبلية التي سادت المجتمع الفلسطيني قبل النكبة.

- .... 2009. " نهاية إسرائيل" إسترجعت بتاريخ 14-1-2009 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- .... 2008. " الرؤية الصهيونية للتاريخ" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- .... 2006. " في الدفاع عن الهوية" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.

كذلك من أهم الأدبيات حول الموضوع كتب إدوارد سعيد[10]. كذلك كتاب (2004). "**إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة**" ، (2002)، "**نهاية عملية السلام، أوسلو وما بعدها**". (2004). "**الحرب من أجل فلسطين، إعادة كتابة التاريخ**" (1994). حيث الذي يقدم مجموعة جيدة من المقالات النقدية حول القضية الفلسطينية والصهيونية، والتي تحدث فيها أيضاً عن نموذجه الكفاحي، مشكلة هذه الأدبيات أنها لم تتعامل مع العوامل النفسية للحركة الصهيونية أي لم يستخدم ادوارد سعيد أدوات علم النفس في تحليل سيكولوجية الحركة الصهيونية او المقاومة الفلسطينية، بل تناول النصوص والخطابات والبنى المؤسسة للمشروع ولكن، برأي الباحث لا يمكن الحديث عن هذه البنى والخطابات بمعزل عن العوامل النفسية ودون الحديث عن الآليات التي تحرك الجماهير أو التي تصنع الرأي العام وهنا كان قصور هذه المجموعة من الأدبيات، حيث لم يجد الباحث في أي منها ما يشير إلى محرضات الجماهير ولا الكيفية التي تؤثر بها الأسطورة على الجماهير من خلال مفهوم النرجسية الجماعي والتي تفسر كثيراً بروز القوميات وحركات التحرر،كذلك العوامل النفسية هي أداة جيدة في تحليل سلوك حركات التحرر، أو حتى في فهم مبررات الاستعمار، لذا برأي الباحث تفكيك النصوص وإعادة كتابة التاريخ ونقد الأساطير لا يكفي لفهم المشروع الاستعماري أو خطابه، لا بد من

---

[10] See also, Said, Edward W. The politics of dispossession : the struggle for Palestinian self-determination, 1969-1994. New York : Vintage, 1995, c1994 Said, Edward W. The question of Palestine. New York : Times Books, c1979 Said, Edward W. After the last sky : Palestinian lives. New York : Pantheon Books, c1986.

Said, Edward W. The Palestine question and the American context. Beirut : Institute for Palestine Studies, 1979.

Said, Edward W. Blaming the victims : spurious scholarship and the Palestinian question. London ; New York : Verso, 1988.

Said, Edward W. Peace and its discontents : essays on Palestine in the Middle East peace process. New York : Vintage Books, 1996, c1995 Said, Edward W. Out of place : a memoir. New York : Knopf, 1999.

Said, Edward W. The end of the peace process : Oslo and after. New York : Pantheon Books, 2000.

Said, Edward W. Reflections on exile and other essays. Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 2000.

Said, Edward W. Out of place : a memoir. New York : Vintage Books, 2000, c1999 Said, Edward W. The Edward Said reader. New York : Vintage Books, c2000.

Said, Edward W. Power, politics, and culture : interviews with Edward W. Said. New York : Pantheon Books, c2001
Said, Edward W. From Oslo to Iraq and the road map. New York : Pantheon Books, c2004 Said, Edward W. The politics of dispossession : the struggle for Palestinian self-determination, 1969-1994. New York : Vintage, 1995, c1994

استخدام العوامل النفسية في ذلك التحليل، ربما هذه ميزة هذه الدراسة.من ناحية ثانية، كذلك ازدواجية المعايير عند الحديث عن الأخلاقية في نموذج ادوارد سعيد وهذا ما سنشاهده لدى الحديث عن نموذج ادوارد سعيد الكفاحي.

المحور الثالث: المحور الأخلاقي

تحدث هذا المحور بشكل عام عن الأخلاقية في التحرر مع ربط ذلك بالاستراتيجيات المستخدمة، وهنا تظهر مشكلة أساسية في الأدبيات متعلقة بالخلاف حول مفهوم الأخلاقية نفسه، فما الذي يحدد ما هو أخلاقي أو ما هو غير أخلاقي؟ كون المنظومة الأخلاقية مبنية. كذلك لم تتحدث الأدبيات عن الآلية التي يصاغ فيها العقل الأخلاقي، او كيف يتشكل الوعي الأخلاقي في الذهنية، وماهية العوامل النفسية التي تعزز أو تثبط من بعض القيم. بعض الدراسات تحدث عن المحور الأخلاقي من خلال المقارنة بين العمل العنفي والعمل اللاعنفي، وأرتبط مفهوم الأخلاق بالعنف كتوجه أخلاقي سلبي مثل دراسة كوستي بندلي (1988)، وجان ماري موللر **معنى اللاعنف** (1995)، و"**إستراتيجية العمل اللاعنفي**" و (1999) حيث قارن بين أخلاقيات العمل العنفي والعمل اللاعنفي. ودراسات وليد صليبي (1994) "**اللاعنف أخلاقية وفعالية**". "**مقاومة عنفية أولاعنفية**" (1996)، و "**نعم للمقاومة لا للعنف**" (2001) **و** "**عقوبة الإعدام في التداول العام**" (2001)، حيث حاولت هذه المجموعة من الأدبيات الوصول إلى صياغة مشتركة لبعض المفاهيم والأخلاقيات المشتركة كالعنف واللاعنف، على أساس ضرورة ترابط الغاية والوسيلة، واعتبار ذلك أساس الأخلاقية والعمل والنضال.

هذا، وقد بررت دراسات أخرى الوسائل العنفية على أنها أخلاقية، من خلال الإسناد إلى تجارب وحالات تاريخية، وهذا يعطي الأدبيات ازدواجية في المعايير الأخلاقية فهل العنف أخلاقي ام غير أخلاقي؟، فمثلاً تم تبرير العنف في التحرر باعتباره شراً لا بد منه كما فعل فانون(1963) عندما قال بأن الاحتلال هو أبشع وأفظع أشكال العنف، فهو آلية التخاطب، لذا التحرر يجب أن يكون من خلال العنف ووحده العنف. كذلك ما قام به ادوارد سعيد من خلال "**الثقافة والمقاومة**" (2006)، **وفي** "**الثقافة والامبريالية**" (1997)، و"**القلم والسيف**" (1999)، عندما برر نموذج فاندي بالاستناد إلى القانون الدولي الذي يعطي الحق بالمقاومة بكل

الوسائل، من ناحية ثانية، وفي نفس الوقت حدد الآليات التحررية من خلال دور القيادة، والنخب والمثقفون ونقد النصوص والأساطير في التأسيس لحركة تحرر، التضارب في التعريف والذي هو كما سبق في المحور المفاهيمي مشكلة دراسية، فمثلاً يرى باسم التميمي (2007) "**المقاومة اللاعنفية في فلسطين**" ، أن رمي الحجارة والزجاجات على السيارات وإغلاق الطرق بالحجارة من أساليب الانتفاضة اللاعنفية، بينما يرى جان ماري موللر والمدرسة اللاعنفية عكس ذلك. بل واعتبار ذلك كفعل "غير أخلاقي" لا يتناسب وأخلاقيات العمل اللاعنفي.

من جهة أخرى، لوحظ في الأدبيات عدم وجود أطار أخلاقي للنماذج الكفاحية الثلاثة، بل جعل ذلك الإطار مقتصر على فكرة التحرر نفسها، أو استخدام مبدأ قتل المدنيين كمعيار للمنظومة الأخلاقية في نماذج فانون وادوارد سعيد بينما تطرقت الأدبيات المتعلقة باللاعنف حول إطار أكثر شمولاً لمفهوم الأخلاقية من خلال الحديث عن النموذج اللاعنفي بأنه وسيلة وأسلوب حياة كما فعل وليد صليبي (2006). كذلك لم يتم التطرق عن الثمن الذي تمت المساومة عليه من قبل حركات التحرر، من ناحية الالتزام بمعايير حقوق الإنسان، أو الجرائم التي تم ارتكبتها حركات التحرر تحت حجة التحرير، مع وجود غياب واضح لنقد التحرر من خلال العنف، وما أدى إليه في أثناء التحرر وما بعده. بل بررته الدراسات في كثير من المواقع حسب المبدأ الميكافيللي من قبيل دراسات عبد الإله بلقزيز (2000).**العنف والديمقراطية. فانون (1963)**، وباولو فيريري **(2003) نظرات في تربية المعذبين في الأرض**، و فانون **(1967) نحو الثورة الإفريقية.**

من ناحية ثانية، تناولت بعض الأدبيات الكيفية التي يصنع فيها الآخر لأنها تعطينا مبررات نظرية عن الكيفية التي تحدث بها صناعة الآخر، وبالتالي المبررات للسيطرة عليه ولماذا تمت شيطنته، ومن أين تأتي هذه الأفكار، والتي تفسر لنا كيف تؤثر على تعميق الحبكة التاريخية بل لدرجة التحكم بها. وكذلك كيف تلعب العوامل النفسية في تفسير مسيرة شعوب كالإسقاط والتبرير والإسناد الدفاعي ولعب دور الضحية والابتزاز العاطفي، والنرجسية، والمخاوف. فمثلاً، استخدمت الحركة الصهيونية العوامل النفسية في طرد الفلسطينيين، وفي نفس الوقت استخدمت الابتزاز النفسي ولعب دور الضحية بل واحتكاره من خلال صناعة الهولوكوست.

ولعل أبرز هذه الأدبيات: ***صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه*** للطاهر لبيب (1998)، وهو من الأدبيات المهمة التي تعطي بعداً حول الكيفية التي يصنع فيها الاخر، وهذه مفيدة في تحليل خطاب الحركات الاستعمارية ونقدها حسب نموذج إدوارد سعيد، و كتاب" ***جوهر الإنسان***" لإريك فروم (1998)، والذي يعتبر من اهم الأدبيات التي تمت مراجعتها حيث يتناول نظرية العنف من منظور التحليل النفسي وهذه تساعد الدراسة كثيراً في فهم سيكولوجية العنف، وبعض اليات التي تحرك الجماهير كالطاعة والمسايرة، حيث توفر هذه الدراسة مصدراً جيداً للعوامل النفسية، والتي تدعم او تفسر النظام الأخلاقي الذي تعتمد عليه المدرسة اللاعنفية في نقد منهجيات ووسائل النموذج العنفي من خلا ل الحديث عن شهوة التدمير او " النكروفيليا"، كذلك الأمر بالنسبة لكتاب غوستاف لوبون "**سيكولوجية الجماهير**" (1991)، الذي يتحدث عن اليات تحريك الجماهير والآلية التي يصاغ فيها العقل الأخلاقي، حيث وفرت للدراسة مصدر جيد من المعلومات ساعد كثيرا في تحليل سيكولوجية الجماهير وفي تحليل خطاب وشعارات بعض الحركات التحررية او حتى الاستعمارية. أما كتاب أوغاريت يونان (1999) في" **كيف نتربى على الطائفية؟** فهو محاولة لتقديم تفسيرات عن التربية ودورها في التنشئة أو التربية على ثقافة عنف او ثقافة لاعنف، وهذه من الأدبيات القليلة التي تعاملت مع موضوع التربية وأثرها في خلق مجتمعات تنافسية وبالتالي مجتمعات عنفية، وتطرح في نفس الوقت البديل من خلال التربية الإنسانية والتي تؤسس لمجتمع غير تنافسي لاعنيف، هذه تعد من الإسهامات القليلة في هذا المجال من بين الدراسات التي تمت مراجعتها، فكانت مفيدة في تحليل دور التربية وليس النصوص والخطاب والعلوم كما جاء في الاستشراق لدى ادوارد سعيد، والتي تؤسس إلى نمط من الأفكار الاستعلائية ولشيطنة الأخر، هذه الوقائع ساعدت في تحليل المجتمعات الاستعمارية بما فيها الصهيونية، من فهم العملية التي يصنع بها الأخر. بالإضافة إلى ومارتن لوثر كينج (1998) في ***قوة المحبة***، حيث تناول الحديث عن الربط بين الأخلاقية الكفاحية المتمثلة هنا بالنضال اللاعنفي وبين الواقعية في تنفيذ المطالب، مشدداً على بعض المبادئ الأخلاقية العامة والتي شكلت مصدر جيد في فهم طبيعة الحركات اللاعنفية، ومصادر النظام الأخلاقي. هذا النوع من الأدبيات تناول قضية الكيفية التي يصنع بها الآخر وكيف تتم شيطنته وإطلاق سلسلة من المفاهيم حوله ووصمة بصفات البربرية والتوحش.

أهمية الدراسة

تتميز هذه الدراسة بأنها تختص بدراسة ما يعرف بنماذج التحرر التي عرفتها الشعوب؛ على اعتبار أنها بنى مختلقة ومنظومات موجودة بحد ذاتها، لها شكلها وبنيتها ودورة حياتها، و من ثم تقارن فيما بينها من حيث الشكل والمضمون والأدوات والأخلاقية التي يسّوقها كل نموذج، ومدى التأسيس لحقوق إنسان، مع افتراض العلاقة بين النموذج المستخدم في ما يسمى بعملية التحرر؛ وشكل الدول بعد التحرر. وإسقاط هذه البنى المفترضة على بعض التجارب التاريخية لبعض الشعوب في أثناء تحررها كحالات دراسية.

كذلك تفكك هذه الدراسة الكثير من المصطلحات المستخدمة والشائعة في الكثير من الأدبيات مثل مصطلح التحرر والعنف واللاعنف، المقاومة، فالتحرر من ماذا؟ وهل فعلاً تم التحرر أو الانعتاق؟ كذلك تقدم الدراسة الكثير من الأطروحات النقدية المتعلقة باعتبار أدوات معينة ضمن مدرسة ما مثل اعتبار الصيام حتى الموت لا عنفاً؟ وغيرها من التساؤل حول الحدود التي تفصل العنف عن اللاعنف ومن الذي يحدد ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي؟ كذلك تتحدث عن شيء مهم هو سيكولوجيا الجماهير ودورها الأساسي والمباشر في حركات التحرر وهو ما أغفلته الكثير من الأدبيات التي اعتمدت فقط على النصوص والايدولوجيا في تحريك الجماهير وليس العوامل النفسية كالطاعة والنرجسية الجماعية والشخصية الكاريزماتية وغيرها. من ناحية ثانية تفترض وتدلل هذه الدراسة على وجود نموذج ثالث من التحرر هو النموذج الخليط الذي يجمع بين (فانون و غاندي) أو نموذج فاندي. وفي نفس الوقت تعلل بعض التساؤلات المفندة لوجود هكذا نماذج أو بنى أو حتى نموذج خليط. والاهم في هذه الدراسة هو إسقاط نماذج التحرر على النموذج التحرري الفلسطيني. فهل يمكننا أن نعتبر ما يجري في فلسطين كنموذج بحذ ذاته أم أنه مجرد حالة خاصة ومؤقته تستدعيها الظروف؟ وهل جاء هذا النموذج كنتيجة طبيعية لهكذا نوع مميز من الاستعمار الذي يعتبر شكلاً جديداً من الأنماط الاستعمارية؟ فإذا أردنا أن نتحدث عن نموذج تحرري جديد، فلا بد أن ندرس، قبلاً، النموذج الإستعمار الإحلالي الجديد، وهو نموذج الحركة الصهيونية والتي هي الأخرى تعتبر نفسها حركة تحررية أقامت لنفسها دولة مستفيدة من الشرط الكولونيالي الإنجليزي لصالحها! من هنا تأتي هذه الدراسة لتوضح الفرق بين الاستعمار الصهيوني، ولتفنيد مبرراته القائمة على أساس الدعاية والأساطير المقدسة بالحق التاريخي، وفي

نفس الوقت تقابل الرواية الفلسطينية فكلاهما يدعي الحق التاريخي والديني، وهناك تاريخان مختلفان لنفس المكان. ويعزز من أهمية هذه الدراسة بأنها تقوم بعملية استقراء للنماذج وما تفرزه من حكومات بعد التحرر في ما يخص التأسيس لديمقراطيات أو لحقوق إنسان، وهل هناك علاقة بين شكل التحرر والسلوك الذي تتبعه الدولة بعد التحرر؟

مشكلة الدراسة " أسئلة البحث"

من أهم الأسئلة التي تطرحها هذه الدراسة تلك المتعلقة بوجود نماذج تحررية قائمة بحد ذاتها؛ كبنى لها دورة حياة مثل نموذج فانون أو نموذج غاندي أو حتى نموذج فاندي المفترض. فهل يمكن الحديث عن نماذج تحررية أصلاً؟ أم أن نماذج التحرر هي مجرد هبات شعبية تحركها نخب معينة بظروف معينة ؟ كذلك الحديث عن مدى (نقاوة) هذه النماذج من حيث استخدام العنف أو اللاعنف، فهل هناك نموذج تام للعنف؟. وما المقصود بعملية التحرر من الاستعمار؟ وهل عملية التحرر المزعومة من الاستعمار والقطيعة عنه قد حدثت فعلاً؟ وما هي المعايير في حال ثبت ذلك؟ من ناحية ثانية، هناك مشكلة جوهرية تطرحها الدراسة متعلقة بتعريف المصطلحات كتعريف العنف نفسه، ومتى يصبح العنف عنفاً، وما هي الخطوط التي تفصل بين العنف واللاعنف؟ كذلك بالنسبة لمفهوم التحرر، المقاومة، فلسطين، والتي بحاجة هي الأخرى إلى بحث؟ لذا فإن تفكيك هذه المصطلحات كل على حدا يعتبر مشكلة دراسية أساسية، قد يدخل الدراسة في دوامة من المصطلحات الفرعية، لا سبيل لمعالجتها هنا. لكون بعض المصطلحات فضفاضة ومحط تسييس وخلاف. كذلك الأمر بالنسبة للنظام الأخلاقي المفترض في أدوات التحرر، فمن الذي يحدد ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي؟

مشكلة بحثية أخرى تكمن في خصوصية الشرط الكولونيالي الإسرائيلي و النموذج التحرري الفلسطيني، فالحالة التي ندرسها لا تشبه أية نماذج سابقة يمكن الاعتماد عليها في المقارنة أو في إسقاطها.وهذا يدفع إلى السؤال عن موقع النموذج التحرري الفلسطيني من النماذج التحررية الأخرى؟ وهل هذا الشكل من النضال يمكننا من إعتباره كشكل وكمنظومة جديدة يمكننا أن نضيفها إلى نماذج النضال المعروفة لدى الشعوب؟ وما هي النتائج المستقبلية المفترضة لهذا الشكل من النضال على شكل الدولة المستقبلية بعد التحرر، من ناحية

حقوق الإنسان والتأسيس لديمقراطية أو لديكتاتورية؟ وهل يستخدم الشعب الفلسطيني اللاعنف بناء على تفكير استراتيجي وقرار، أم بسبب عدم توافر السلاح وإمكانية العمل العسكري المباشر ضد الاحتلال؟ وفي حال توافر السلاح هل ستستمر المقاومة اللاعنفية، أم إن هذا النموذج الخليط يشكل نموذجاً جديداً بحد ذاته يتكيف مع متطلبات المرحلة والحالة على الأرض بحيث يكون العنف فيه رمزياً لغرض الفاعلية والتلويح به لغرض الضغط السياسي، لا لأجل العنف نفسه؟.

حدود الدراسة الزمانية والمكانية

من المشاكل الأساسية التي واجهت هذه الدراسة كان في وضع فواصل وحدود لها، كونها تتناول العديد من المواضيع الجدلية والمتنوعة والتي كما سبق القول يحتاج كل منها إلى دراسة منفصلة بحد ذاته، بشكل أساسي تم اختيار محاور معينة من التجارب التحررية المعاصرة لبعض الدول في القرن العشرين كالجزائر وجنوب إفريقيا ومن ثم مقارنتها مع التجربة التحررية الفلسطينية للحديث عن نماذج التحرر الثلاثة، بحيث اقتصرت على البنى المفترضة التي تهم الدراسة وهي الأدوات المستخدمة في كل نموذج، ودورة الحياة والأخلاقيات والمبررات والنتائج، لتكون بمثابة محددات زمانية ومكانية لهذه الدراسة. فليس المقصود دراسة تاريخ التحرر في هذه البلدان بقدر ما هو المقارنة بين هذه التجارب التحررية، لذا تم تجاهل الكثير من المحطات التاريخية في هذه التجارب بطريقة قصديه كونها ليست موضوع الدراسة على الرغم من أهميتها، ليتم اختزال هذه التجارب بناءاً على الأدوات المستخدمة والنتائج العامة لهذا النموذج أو ذاك .

كذلك الأمر كان هناك ضرورة لتحديد بعض المفاهيم الواردة في الدراسة مثل مصطلح "تحرر" أو "فلسطين" أو حتى "عنف"، على الرغم من صعوبة هذه العملية، بحيث تخدم أهداف الدراسة. كذلك الأمر بالنسبة للنخب التي اعتبرت موحدة في عملية التحرر في أكثر الأدبيات، بحيث تم التعامل مع هذه المجتمعات كبنية واحدة، بينما تقوم هذه الدراسة بتقسيم النخب في النماذج التحررية إلى نخب ونخب مقابلة، لأن الباحث يشكك في فكرة الوحدة الوطنية المزعومة أثناء التحرر والتي طرحها فانون. فالنخب لا تكون موحدة في حالة التحرر فهناك نخب لها مصالحها في استمرار الشرط الاستعماري، وهناك نخب مقابلة، بالتالي محاربة المستعمر وهذه النخب جنباً إلى جنب كما حدث في التجربة الجزائرية.

وتم تحديد نتائج الدراسة من خلال وضع أطر معينة يتم من خلالها المقارنة وهي الفاعلية التحررية، والأخلاقية، وشكل الدولة بعد التحرر، والحفاظ على حقوق الإنسان. بالتالي ما يهم الدراسة ليس تاريخ هذه البلدان بل الأسلوب المستعمل فيما يسمى بعملية التحرر وبعض نتائجه، يضاف إلى ذلك تشريح التجربة التحررية في كل نموذج بناءاً على مدرسة فكرية معينة، وهي في هذه الدارسة المدرسة الواقعية ممثلة بنموذج فانون، والمدرسة المثالية الممثلة بنموذج غاندي، ومن ثم مقارنتها مع نموذج إدوارد سعيد المفترض. لذا ستقتصر الدراسة هنا على تحليل البنى والآليات المشكلة لما يسمى بنماذج التحرر من أراء فانون وغاندي وإدوارد سعيد، مع مقارنة قصديه لكل مدرسة بتجربة كفاحية معينة وهذا لا يعني عدم الحديث عن عدم وجود تجربة لاعنفية في التجربة التحررية الجزائرية، ولكن ما يهم هو السمة السائدة والتي عرف بها هذا النموذج أو ذلك، فلا تنفي الدراسة وجود تداخلات كثير بين هذه النماذج والتجارب، بل المقصود دراسة كل شريحة لوحدها، مثلاً جوانب العنف في التجربة الجزائرية وجوانب اللاعنف في تجربة غاندي في جنوب إفريقيا. وهذا التقسيم عائد كما سبق إلى عدم وجود تعريف محدد ومتفق عليه لما يعني العنف أو اللاعنف، من هنا كانت ضرورة وضع هذه الحدود الفاصلة. فلم يتم الحديث عن وجهة نظر الماركسية في التحرر أو العنف، على الرغم من أهميته، أو وجهات نظر حركات تحرر المرأة أو ثورات الفلاحين والعبيد عبر التاريخ، بل اقتصرت على أفكار"فانون، غاندي، سعيد". المخرج من اتساع حدود الدراسة كان إما بتقنينها وحصر الدراسة لتشمل جوانب معينة، أو دراسة جميع الوثائق والأعمال التي أنتجها كل من فانون وغاندي وإدوارد سعيد، وهذا الخيار ليس من أهداف الدراسة الحالية.

الفرضيات

تتطرق هذه الدراسة إلى العديد من الفرضيات كون الدراسة مقارنة، تكمن الفرضية الأولى والأساسية في تمحور الدراسة حول نماذج التحرر و إثبات وجود ما يسمى نموذج فاندي من فانون وغاندي، ويستدل من هذه الفرضية قبلاً وجود ما يسمى نماذج التحرر والتي هي أيضاً موضع شك وتمحيص. فمن خلال تحليل ما يسمى بنماذج التحرر إلى بنى لها أدوات ومبررات و دورة حياة وأخلاقيات ومنظرين، قد نستدل على وجود نموذج فاندي بل و تأكيده أو نفيه.

يواكب ذلك فرضية أساسية متعلقة بمفهوم التحرر نفسه حيث يفضل الباحث الحذر من استخدام هكذا مصطلح كونه يجانب الصواب ولا يعبر فعلاً عن الواقع، حيث يشكك الباحث بفكرة التحرر قومي أو الاستقلال لدى دول العالم الثالث، بل يعتقد أنها حالة من الانتقال تقوم بها الشعوب من الحالة الاستعمارية إلى المرحلة الما بعد استعمارية، بحيث ترث النخب الوطنية مؤسسات المستعمر وتصبح وكيلة له، لأن الوعي الوطني حسب فنون لم يرافق بوعي طبقي مما يخلق مشاكل عالقة وصراعات لا تنتهي، وتبعية للغرب. لذا ليس دقيقاً برأي الباحث الحديث عن استقلال أو تحرير على الرغم من الادعاء أو حتى الشكل الذي تتخذه هذه المجتمعات.

من ثم يندرج تحت هذه الفروض الكثير من الفرضيات الفرعية مثل وجود مصطلح (فلسطين) أو تيار ما بعد الصهيونية، ولعل من أهم الفروض الفرعية وجود علاقة بين الأسلوب المستخدم في التحرر وشكل الدولة بعد التحرر من حيث الدكتاتورية أو الديمقراطية والحفاظ على حقوق الإنسان، وتبيان ذلك من خلال الحديث عن أثر العنف أو اللاعنف كأساليب متبعة في التحرر القومي من الشرط الاستعماري، ومدى علاقتها أو تأثيرها على شكل النظام السياسي المستقبلي، والأثر الناجم عن تبني هذه المنظومات المقاومة في التحرر وتأثيرها على شكل الدولة المقبلة بعد التحرر . والآلية في الوصول إلى ذلك عبر المقارنة بين نموذج فانون الذي يستخدم العنف في التحرر، والى النتائج التي يؤدي إليها، والنتائج التي يؤدي إليها نموذج غاندي اللاعنفي.

هذا،. كذلك فكرة أن النموذج الذي يخلط بين العنف واللاعنف، نموذج إدوارد سعيد أو (فاندي)، يدلل إلى أن العنف واللاعنف قوتان متعارضتان مواجهتان ولا يمكن أن يعملا معاً، حيث إن لكل منهما ديناميات خاصة وأخلاقيات متكاملة حيث يتنافى النموذجان تماماً، فلا نستطيع أن نضع معايير مزدوجة في النضال اللاعنفي.

من هنا وفي فرضية أخرى يعتقد الباحث بأن النموذج الخليط (فاندي) ينحاز أكثر إلى جهة العنف كونه يستخدم العنف حسب جان ماري موللر ولو بشكل جزئي، وهذه مشكلة هذا النموذج. الذي يزيل الادعاء القائم والذي يعتبر الانتفاضة الأولى بأنها انتفاضة لاعنفية. طبعاً هذا لا ينفي استخدام وسائل لاعنفية، ولكن هذا ما ستحاول أن تثبته الدراسة عبر المقارنة. لأن أساسيات ومبادئ العمل اللاعنفي تتنافى تماماً مع أدوات العنف وأخلاقياته، أي لا وجود للنموذج الرمادي في المدرسة اللاعنفية وهو ما عبر عنه غاندي عند حديثه عن ترابط الغاية والوسيلة بحيث شبهها بالبذرة والشجرة. وفي فرضية أخرى، تكمن في أوجه التشابه بين

الحركات الاستعمارية والحركات التحررية في بعض أدواتها و خطابها وتعليل ذلك من خلال منظومة فوكو المعرفية (الفرد، السلطة، المجتمع)، في التأسيس لرواية جامعة أو لمشروع استعماري، هذه البنى نفسها ستستخدمها حركات التحرر أيضاً لتأسيس حبكة وطنية كما في الثورة الفرنسية أو الأمريكية أو حتى الحركة الصهيونية التي تعتبر نفسها حركة تحررية وثورية.

مصطلحات الدراسة ومفاهيمها

يعتقد الباحث مستندا إلى المدرسة ألما بعد بنيوية إلى أن كل مصطلح في أي دراسة يحتاج إلى تفكيك وتحليل، وينفي بساطة استخدام مصطلح ما للتدليل على ظاهرة ما، من هنا يبرز التناقض الأولي في هذه الدراسة، ولكن كان لا بد من أن يكون هناك تحديد لبعض المفاهيم من خلال تقنية (Here & Now) كما هو موجود في تفسير بعض الظواهر النفسية. وهذا يضيف مشاكل أخرى لهذا البحث، ولكن ليس المقصود من هذه الدراسة الوقوف على وضع مفاهيم جامعة، على الرغم من أهميتها. لذا سيتم تحديد القصد من بعض المصطلحات على الرغم من المعرفة المسبقة بأن هذه التعريفات ستكون موضع خلاف وتشكيك مثل: العنف، اللاعنف، فانون، غاندي، فاندي، إدوارد سعيد، الصهيونية، فلسطين، التحرر القومي، الدولة ما بعد الاستعمارية. وبالتالي صعوبة تبني مفهوم معين واختزاله في كلمات محددة. ولكن في نفس الوقت وللخروج من هذا المأزق تم وضع تعريفات خاصة لبعض مفاهيم الدراسة مع توضيح القصد منها في بداية كل فصل مثل الصهيونية، العنف، اللاعنف، فانون، غاندي، وغيرها من مصطلحات. في نفس الوقت تم اختزال وتركيب بعض المصطلحات كفانون وغاندي و فاندي وربطها فيما بينها في الدراسة؛ لتدلل على ما يسمى بنماذج التحرر، و تم تقسيمها كالتالي :

1. نموذج فانون: وهو التحرر من خلال الكفاح المسلح أو العنف، نسبة إلى منّظره الأساسي فرانز فانون و المولود في جزر المارتينيك، والمحارب مع الثورة الجزائرية.
2. نموذج غاندي: وهو التحرر من خلال الكفاح السلمي أو اللاعنف، نسبة إلى منظره الأساسي المهاتما غاندي الذي يعتبر المنظر الأساسي للكفاح السلمي الغير عنيف.

3. نموذج فاندي: من فانون وغاندي، وهي تسمية أطلقها د.عبد الرحيم الشيخ للدلالة علة نموذج الكفاح الفلسطيني، وهو التحرر من خلال استخدام الكفاح والمسلح والمقاومة السلمية معاً، الذي لم يدع إليه المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد صراحة كنموذج بل يمكن استنباطه كنموذج موجود بحد ذاته وهو من فروض الدراسة الأساسية.

المنهجية

تعتمد المنهجية في هذه الدراسة على دراسة الحالة في الإطار التاريخي المقارن، حيث تساهم هذه المنهجية بفعالية في تقديم إجابات تتعلق بسؤال الدراسة المركزي الذي يتطلب بالأساس عقد مقارنة نقدية بين النماذج التحررية المطروحة للبحث، لأجل الوصول إلى تعريف محدد لما يعنيه العنف، أو ماهية الحدود التي تفصل بين نموذج فانون ونموذج غاندي. لذا فإن عملية المقارنة تعطي للبحث صورة حول أوجه الشبه والاختلاف بين منظري كل نموذج، ويستشهد بحالة دراسية معاصرة للدلالة عليه ولاستنباط البنى المشكلة لها. من ناحية ثانية فإن المنهجية المقارنة تساعد في فهم و تفكيك بعض المفاهيم المركبة والتي قد تشكل معضلة بحثية كالعنف نفسه، أو ماهية الخطوط التي تفصل بين نموذج فانون ونموذج غاندي. حيث العينة هنا قصديه لغرض المقارنة، وبناءاً على علاقتها بالمنظر الأساسي لهذا النموذج أو ذاك. و العينة هنا دول ومجتمعات كانت أو مازالت تحت شرط استعماري، وكان أسلوب التحرر إما العنف المسلح أو اللاعنف أو الاثنين معاً. والعينات هنا هي تجربة الجزائر التحررية كدولة مارست الكفاح المسلح (العنف) في التحرر حسب نموذج فانون، وتجربة غاندي في جنوب أفريقيا ومن بعدها في الهند، في التحرر كونها استخدمت اللاعنف في التحرر (نموذج غاندي). وفي نفس الوقت تخضع هذه النماذج في نهاية الدراسة إلى المقاربة والمقارنة مع الحالة الفلسطينية في نطاق ما يسمى بالسلطة الفلسطينية، كونها حالة لا تزال تحت الشرط الاستعماري الإسرائيلي وفي طور التحرر. طبعاً هذه العينات لا تعني وجود نموذج نقي بحد ذاته او تنفي وجود خليط كفاحي في كل نموذج، إذ كثيراً ما تخللت هذه التجارب بأشكال متعددة من العنف واللاعنف وهذه تجربة أكثر الشعوب التي تحررت، ولكن المقصود هنا السمة العامة التي امتاز وأشتهر بها هذا النضال أو ذاك. فالعينة هنا قصديه لغرض المقارنة ولإثبات فرضية البحث الأساسية وسؤال الدراسة المركزي المتعلق بالخطوط التي تفصل العنف عن اللاعنف وبإثبات نموذج فاندي.

وتعتمد منهجية هذه الدراسة أيضا على المدرسة البنيوية في التعاطي مع هذه النماذج، عبر تحويلها إلى بنى لها ميزاتها ودورة حياة ومنظر ومدرسة فكرية ومبررات وأدوات. من ناحية أخرى، سيتم استخدام أكثر من أداة في التحليل، كون الدراسة مقارنة، مثل تحليل المضمون في قراءة خطاب والتبريرات والأخلاقيات وشخصيات حركات التحرر؛ كون تحليل المضمون يخدم فرضية الدراسة وتساعد في تقديم مقاربة نقدية لها. كذلك سيتم إستخدام بعض مصطلحات ونظريات علم النفس الاجتماعي في تفسير وتحليل حيثيات بعض الظواهر خصوصاً عند تفسير ظاهرة العنف، وسيكولوجية الجماهير، وشيطنة الآخر، ومحركات الرأي العام، الطاعة ودورها في التحرر، النرجسية الجماعية وعلاقتها بالحبكة التاريخية، وكيف يستخدم السياسيون والنخب الطاعة والدعاية والنرجسية الجماعية في نسج الحبكة التاريخية وإقناع الرأي العام الداخلي والخارجي.

مشاكل الدراسة وصعوباتها

من المشاكل الأولية التي واجهت هذه الدراسة صعوبة وضع حدود لها على الرغم من استخدام حالات دراسية ترتبط بزمان ومكان، إلا أن المشكلة الأساسية تكمن في كونها تتناول مواضيع متنوعة مثل الصهيونية والاستعمار والقضية الفلسطينية، بحيث يحتاج كل قسم منها إلى دراسات متخصصة؛ بالتالي كان الجمع بين كل هذه المواضيع في بوتقة بحث واحدة من الصعوبات الأساسية. من ناحية أخرى، جدلية المفاهيم المستخدمة في الدراسة وضرورة تفكيكها، الأمر الذي يشكل معضلة دراسية بحد ذاتها كتعريف العنف، أو ماهية التحرر، أو ماهية الخطوط التي تفصل ما بين العنف واللاعنف. ولكن تم تجاوز هذه النقطة من خلال توضيح القصد من بعض هذه المفاهيم مع ربطها لتقتصر فقط على الحالات الدراسية المنوي الاستشهاد بها للدلالة على نماذج التحرر ومفكريها ضمن أطر أكثر تحديداً. من ناحية ثانية، صعوبة المقارنة بين ما يسمى بنماذج التحرر، كون كل نموذج ينتمي إلى مدرسة فكرية مختلفة تحتاج إلى تخصص، بالتالي صعوبة حصر بعض المحاور لتتلاقى مع موضوع الدراسة الأساسية.

الفصل الأول

الحركة الصهيونية: الولادة المقدسة

1.1 تمهيد

يتحدث هذا الفصل عن الظروف التي عاشها اليهود في أوروبا من خلال ما عرف بالمسألة اليهودية، والتي سبقت ولادة الحركة الصهيونية، وأسست لها، والكيفية التي وظفت فيها أجواء معاداة السامية واليهود أثناء بناء فكرة "القومية اليهودية." وقد تجسد ذلك في عدة تيارات منها من طالب بالاندماج مع أوروبا، وأخرى بالانفصال عنها. وقد كانت الحركة الصهيونية وليدة التيار الثاني، إذ أدى تراكم هذه الأفكار الانفصالية إلى ولادة مشروع قومي تبنته الحركة الصهيونية منذ أواخر القرن التاسع عشر ونفذته في فلسطين مستغِلَّةً الحالة الاستعمارية الأوروبية، ومستغلة من قبلها في آن معاً. كما يتناول هذا الفصل الكيفية التي تحولت فيها هذه الحركة من حركة قومية لتصبح حركة استعمارية مستنسخة بأساليبها وأدواتها لتمارس بدورها نظاماً استعمارياً فريداً من نوعه.

1.2 أوروبا والمسألة اليهودية

من المهم قبل الخوض في بدايات المشروع الاستعماري الصهيوني، الحديث عن المسألة اليهودية وأوضاع اليهود في أوروبا، كون الأحداث التي تعرض لها اليهود في أوروبا مرتبطة بشكل عميق بتاريخ الصهيونية، حيث مهدت موجات الاضطهاد والإقصاء التي تعرض لها اليهود، نتيجة لحصرية "العقلية اليهودية" وغيرها من الظروف، لبروز تيارات فكرية وقومية نجم عنها فيما بعد الحركة الصهيونية. هذا، مع العلم أن أوروبا لم تكن موحدة في تعاطيها مع المسألة اليهودية، إذ مرت هذه العلاقة بفترات مد وجزر، وتميزت العلاقة بسبعة مراحل، أو هي أنماط ربما تتداخل تاريخياً، تعامل عبرها الأوروبيون مع اليهود، وهي: مرحلة النبذ والاضطهاد، مرحلة العزل والطرد من أوروبا أو ضمنها، مرحلة العودة والإشفاق، مرحلة الإقصاء ومعاداة السامية، مرحلة المحرقة أو "الهولوكوست،" مرحلة الإشفاق والخطيئة الكبرى، مرحلة ما بعد الخطيئة.

لقد نشأت **مرحلة النبذ والاضهاد** بسبب نجاحات اليهود على الصعيد الاقتصادي، وتدخلهم في الحياة العامة مثل جمع الضرائب وأعمال المراباة والاحتكار التي قاموا بها والتي كانت في ذلك الوقت مخالفة لتعليمات الكنيسة.[1] وقد تركزت في أيديهم بعض رؤوس الأموال، وكثرت استدانة بعض الاقطاعيين منهم، ما أدى إلى رسم صورة سلبية عن اليهود في المخيال الأوروبي الشعبي والرسمي كقصص القديس هيوم، الطفل قتله اليهود بسبب قيامه بترديد تراتيل دينية عندما كان يمر في أحد الأحياء اليهودية، وتحميل اليهود مسؤولية قتل السيد المسيح وصلبه، والصورة السلبية للمرابي الجشع شيلوك في مسرحيته *تاجر البندقية*، وشخصية فاجن في رواية أوليفير تويست، أو شخصية إيزاك في رواية *الزنبقة السوداء*، ومسرحية *يهودي مالطا*، وغيرها من الأعمال الأدبية.[2]

أما في مرحلة العزل والطرد من أوروبا أو ضمنها، فقد عرف اليهود التشتت والتهديد لهويتهم بسبب تحول الكثيرين منهم إلى المسيحية بسبب محاكم التفتيش التي أخرجتهم والعرب من الأندلس في العام 1492 ليتشتتوا في شمال أفريقيا ومناطق أخرى، وطردهم، من قبل، من بريطانيا في العام 1291 بسبب بعض التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدّت من دورهم المالي، حيث حرّمت الكنيسة الربا وأعمال المراباة ما سهّل من مهمة طردهم بعد أن فقدوا دورهم الوظيفي في هذه المجتمعات. وقد ساعد في ذلك حوادث مثل قتل الطفل هيوم الشهيرة، والتي تم تحميل اليهود مسؤوليتها، ومن ثم منعوا من دخول بريطانيا إلا سراً.

وأما **مرحلة العودة والإشفاق**، فقد تميزت بنشوء نمط من التعاطف مع اليهود، جاء على شكل ردة فعل أخلاقية لما أصاب اليهود من تهجير وقتل "على الهوية." ويعلل بروز هكذا نمط نتيجة للتيارات الرومانسية والنزعات الأخلاقية التي اجتاحت أوروبا في تلك الفترة، ومن أبرز النصوص التي

---

[1] بشير نافع.1999. **الامبريالية والصهيونية**. القاهرة: دار الشروق، ص 23.

[2] أنظر:

Emile Legouis.1942. *A Short History of English Literature*. Oxford: Oxford University Press.

عبرت عن هذا التغيير نصوص شعرية لجون ميلتون الذي دعا لعودة بني إسرائيل الى أرض الميعاد، كذلك توجد نصوص أخرى للورد بايرون الذي رثى حال اليهود، والشاعر ويليام ووردسورث الذي يظهر تعاطفه بشكل واضح في عدد من القصائد التي أشهرها "أغنية لليهودي المتجول."[3]

هذا، وقد أدت عوامل الاستعمار في **مرحلة الإقصاء ومعاداة السامية، و**بروز النزعات القومية في أوروبا، والمؤامرات المفبركة مثل قضية درايفوس في فرنسا، وبعض المجازر التي ارتكبت بحق اليهود كالمجازر الروسية في العام 1882... أدت إلى بروز نمط إقصائي بحق اليهود خصوصاً في دول أوروبا الشرقية وروسيا. وقد تم التعبير عن هذه النزعات والاقصائية بحالات من الاضطهاد والعنصرية عرفت بمصطلح معاداة السامية.[4] وفي الوقت ذاته، ساد نمط تعايشي مع اليهود في بريطانيا ربما كان سببه وصول السياسي اليهودي دزرائيلي إلى منصب رفيع في الحكومة البريطانية آنذاك لأكبر دليلاً على الإندماج النسبي لليهود في المجتمع الإنجليزي.

أما **مرحلة المحرقة أو "الهولوكوست،**" فقد توجت موجات اضطهاد اليهود بصعود النازية للحكم في ثلاثينيات القرن العشرين، وقد كانت هذه أكثر مرحلة مفصلية في تاريخ الحركة الصهيونية التي استغلت من خلالها عذابات اليهود في المحرقة، ووظفتها في إخراج مشروعها الاستعماري في فلسطين إلى حيز الوجود، حيث قامت النازية بتصفية الوجود اليهودي في ألمانيا والمناطق التي احتلتها في أوروبا، وقد ساعد في ذلك حلفاء ألمانيا النازية مثل حكومة فيشي وغيرها من الحكومات الفاشية. فقد أدت المحرقة إلى نتائج كارثية على اليهود هددت وجودهم الفعلي، ورحّل كثيرون منهم إلى فلسطين وبريطانيا وأمريكا الشمالية.

---

[3] لينا المسروجي. صورة اليهودي في الأدب الانجليزي من العصور الوسطى لمنتصف القرن التاسع عشر. *مخطوطة غير منشورة*.

[4] أنظر: برنار لازار.2004. مناهضة السامية تاريخها وأسبابها. دمشق: دار الأوائل للنشر والتوزيع.

هذا، وقد أدى التوجه الندمي، الذي ما تزال أثاره إلى اليوم، إلى ظهور **مرحلة الإشفاق والخطيئة الكبرى** بسبب ما حصل لليهود على يد النازية في الحرب العالمية الثانية، أو ما سميت بفترة المحرقة أو "الهولوكوست" التي أدت حسب أكثر المصادر الغربية إلى مقتل أكثر من 6 ملايين يهودي، بينما راح آخرون يشككون في صحة هذه الأرقام ومنهم روجيه غارودي في كتابه **الأساطير المؤسسة لإسرائيل،**[5] ونورمان فنكلستاين في كتابه **صناعة الهولوكوست**. وبذا، فقد أجادت الحركة الصهيونية توظيف هذا التعاطف في إخراج مشروعها الاستعماري إلى حيز الوجود وفي تنفيذ مآربها.

وفي **مرحلة ما بعد الخطيئة،** تبدلت النظرة العامة إلى اليهود بشكل عام بسبب الصراع العربي الإسرائيلي، خصوصاً بعد بدء تاريخ المجازر من الطنطورة إلى مجزرة دير ياسين، وبروز مشكلة اللاجئين في العام 1948 وما تلاها من أحداث. ولكن التبدل الأبرز، في هذا السياق، حصل بعد العام 1965 حين برزت منظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني في الشتات، وبعض الأحداث المهمة كاجتياح إسرائيل لجنوب لبنان في العام 1978 وفي العام 1982 حيث قتل عدد كبير من الفلسطينيين في مجازر عزت الوعي العالمي وجعلت كتاباً كجان جينيه وروبرت فيسك يكتبون بلا هوداة عن فظائع إسرائيل.[6] وقد أسهم في ذلك بروز تيار "المؤرخون الجدد" من أمثال بيني موريس وإيلان بابيه وأفي شلايم وتوم سيغف وغيرهم،[7] الذين شككوا في ونقدوا روايات التيار المركزي الصهيونية و كشفوا زيف الدعاية الصهيونية حول طهارة السلاح والحديث عن تطهير عرقي ولعل من أبرزهم

[5] غارودي، روجيه. 1996. الأساطير المؤسسة لإسرائيل.ط1: دار الغد العربي

[6] فيسك، روبرت. 2007.ويلات وطن .ط1.بيروت.دار الساقي.

[7] انظر كذلك إلى

Pappe, Ilan.1999. (ed.), The Israeli/ Palestinian Question: Rewriting Histories, London, Routledge.

إيلان بابيه[8]. وقد توجت هذه الأفكار حول اهتزاز الصورة العالمية لليهود والصهيونية بشكل خاص في الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي اندلعت في العام 1987، والتي أعادت إلى الأذهان صورة اليهودي الذي يقتل الأطفال. كما تعززت هذه الصورة في العام 2000 مع اندلاع الانتفاضة الثانية، على الرغم من تأثر هذه الصورة بالتجاذبات السياسية التي يقف من ورائها اللوبي الصهيوني ووسائل الإعلام المتحيزة.

ولعله من الواضح أنه عبر هذه المراحل نلاحظ تبدل صورة اليهودي وتنوعها في الذاكرة الجمعية الأوروبية، فمن صورة قاتل المسيح والأطفال، إلى المرابي الجشع، فالمسكين الذي يبحث عن مأوى ووطن، فالمنعزل في الغيتو، ثم مرة أخرى إلى الضحية المسكين الذي تعرض للمحرقة، ومن ثم تقفل هذه الدائرة لتعود إلى قاتل الأطفال العرب في حين يتقمص دور الضحية. وهنا، لا بد من التمييز بين صورة اليهودي إجمالاً وصورة الصهيوني خاصة، حيث حاولت الصهيونية أن توظف مأساة اليهود لصالحها، عندما وظفت معاداة السامية لخدمة أجندتها السياسية، مع أن الصهيونية شكلت في فترات عديدة وحتى اللحظة خطراً على اليهود نتيجة لسياساتها العنصرية ضد غيرهم.

1.3 المسألة اليهودية وحركات التنوير

لقد عززت حركة الاستشراق الصهيوني على بروز صورة متضاربة لليهودي وطبعها في أذهان الأوروبيين، حيث صنفت الناس إلى أعراق أدنى وأعلى، وأنقى وأوسخ؛ وكذلك الانعزالية التي أدت إلى عدم الاندماج في المجتمعات التي كان اليهود يعيشون فيها، وبخاصة المجتمعات الأوروبية. وقد أدى الوضع المميز لليهود إلى خلق تنافر من قبل السكان المحليين الذين وجدوا في هؤلاء قوة غريبة، وخارجية، وغير مندمجة، ونرجسية تحتكر رؤوس الأموال وتتحكم في المجتمع، ومن هنا كانت الدوافع الأولى لما يسمى بحركة معاداة السامية، وهي موجة من التمييز العنصري وحالات القتل

---

[8] انظر إلى بابيه، إيلان.2007. التطهير العرقي في فلسطين.ترجمة أحمد خليفة.ط1. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

والاضطهاد تجاه اليهود في أوروبا بشكل خاص "ليس لأنها مؤامرة حيكت خصيصاً ضد اليهود، وإنما هي ظاهرة إجتماعية إقتصادية مفهومة تشبه في كثير من الوجوه المسألة اليونانية أو المسألة الإيطالية في مصر أو المسألة العربية في أفريقيا، ففي هذه المجتمعات قام اليونانيون والعرب والايطاليون بدور الجماعة الوظيفية، ووقعوا ضحية للتطور التاريخي الذي طرأ على مجتمعاتهم وأصبحوا جماعات وظيفية بلا وظيفة، وقد حلت المسالة اليونانية في مصر على سبيل المثال برحيل كثير من اليونانيين إلى اليونان وتبقى من تبقى منهم بعد اندماجهم في المجتمع المصري وتقبل وضعهم دون تمييز حضاري أو مهني وقد تم الشيء نفسه بالنسبة للجماعات اليهودية في إنجلترا وفرنسا إذ طردت الغالبية العظمى منهم، وبقي عدد قليل اندمج مع السكان، وكان اليهود المطرودون يحلون مشكلتهم عن طريق التقهقر إلى الوراء، أي بالهجرة إلى مجتمعات لا يزال النظام الإقطاعي فيها ثابتاً ومستقراً، ولعل هذا يفسر سبب انسحابهم إلى وسط أوروبا ثم إلى شرقها خاصة بولندا." [9]

لم تشمل الموجات التمييزية السابقة اليهود وحدهم بل شملت أقليات أخرى مثل الغجر، ولكنها كرست بشكل خاص وعلى مستوى رسمي في العام 1856 في رومانيا "حيث منع اليهود من الحصول على أرباح البلد واعتبروا كأجانب، وفرضت عليهم إجراءات مقيدة، فلم يعد اليهود يحصلون على رتب وسحبوا من حق المسكن الدائم في الأرياف،...ومنعوا من أن يبيعوا الكحول، وأن يكون عندهم خدم مسيحيون، وأن يبنوا كنس جديدة).[10] بينما نلاحظ موجات أخرى من التمييز كانت موجهة من قبل الفئات الشعبية ولكن هذا لا ينفي دور المستوى الأعلى عن هذه الإجراءات، فقد وجدوا في اليهود كبش فداء للتعبير عن السخط والغضب تجاه الدولة والأمراء كما حدث في روسيا، أو كما كان يحدث في تولوز في فرنسا "حيث جرت التقاليد بأن يصفع المسيحي يهودياً في يوم الجمعة الحزينة"[11].

---

[9] المسيري، عبد الوهاب.1998. **الأصول الغربية للرؤية الصهيونية**" .مجلة شؤون عربية.ع115.:166-190.

[10] لازار، مصدر سبق ذكره، ص 136.

[11] نافع، مصدر سبق ذكره، ص18.

وقد انتهت هذه الإجراءات في مراحلها النهائية بإقصاء اليهود عن أجزاء كبيرة من أوروبا، ذبحاً كما في روسيا، أو حرقاً كما فعلت ألمانيا النازية. ويعزو البعض هذه الموجات التمييزية ومنهم اليهودي أبراهام ليون في دراسته المعمقة للمسألة اليهودية تحت عنوان: "المسألة اليهودية: تحليل ماركسي"، إذ يقول " دفع تطور الرأسمالية المسألة اليهودية في اتجاهين متناقضين تماماً: فمن جهة، ساعدت الرأسمالية على الاستيعاب الاقتصادي، وبالتالي الثقافي لليهود. ومن جهة أخرى، ساعدت على نمو القومية عند اليهود نتيجة لاقتلاع الجماهير من مراكزها الاجتماعية التقليدية، وحشر تلك الجماهير في المدن، وإثارة النعرات اللاسامية ضدهم. وقد ترافقت نهضة (القومية اليهودية) وتكوين الثقافة اليهودية وظهور الصهيونية، مع تطور الهجرة اليهودية وتجمع اليهود في المدن كما سار ذلك موازياً مع نمو اللاسامية."[12]

نتيجة هذه الأوضاع أو ما أشير له في الأدبيات بالمسألة اليهودية أو المشكلة اليهودية برزت عدة حركات اجتماعية وسياسية ودينية مضادة ساهمت في بروز ما يسمى بـــ "القومية اليهودية" ومنها المسيانية، والحسيدوت، [13] إضافة إلى الحركات الاجتماعية للهسكلاه أو حركة التنوير وهي حركة نهضوية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر بقيادة موشى مندلسون الذي إلى أن تكون حركة تجديد يهودية على أسس علمانية، حيث نادت بالحرية الفكرية، ودعت رجال الدين اليهود إلى التخلي عن التعصب الديني والانفتاح على الثقافات الأخرى. وكذلك، فقد برزت الحركة اليهودية الإصلاحية والتي انبثقت عن الهسكلاه،[14] على طريق الانطلاق الفعلي للمشروع الصهيوني.

يمكن القول بأن حركة الهسكلاه كانت بمثابة حراك إصلاحي محافظ، بحيث أفرزت نوعاً من الفصل ما بين الدين والسياسة، العملية التي استفادت منها الحركة الصهيونية بحيث وظفت الدين لصالح السياسية، ووظفت

---

[12] لطف الله حيدر. **الصهيونية وفلسطين**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 2002، ص 27.

[13] موقع البروفسور عبد الستار قاسم الالكتروني. www.abelsatarqasem.com

[14] نفس المصدر السابق.

السياسية لصالح الدين بثنائية مقولبة ومتناقضة في آن واحد. وقد كان من أبرز هذه الحركات التي مهدت بشكل عملي لبروز الصهيونية الحركة الفكرية التي كانت محصلة لجهود عدد كبير من المفكرين اليهود الذين حاولوا وضع حلول للمسألة اليهودية من أمثال موشي هس وأبراهام ليون. وقد جاءت هذه التوجهات نتيجة لتطور أوضاع اليهود في أوروبا، ودخولهم في معترك الحياة الثقافية، والتأثر بالثورتين الفرنسية والأمريكية، إضافة إلى كونها ردة فعل على ظاهرة اللاسامية.

لقد دفع هذا الأمر بعض المفكرين اليهود لطرح بدائل عملية للخروج من هذا الارتهان، كون هذه الأقلية أصبحت تحتل حجم أكبر من الممنوح لها، إذ إنها بدأت تتخذ منحاً توسعياً، ولم تستطع أن تتوسع حسب طموحها في أوروبا وحسب، فكان لا بد من البحث عن موطئ قدم أخرى. وقد نجم عن هذه الحركة عدة أنماط وتوجهات منها الاندماجي، والتحرري والقومي. فقد طرح أصحاب لاتجاه الاندماجي فكرة اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية والعيش في المجتمع الأوسع. أي أن يخرج اليهودي من الغيتو، وبالتالي البحث عن مكان بين الناس يصبح اليهودي فيه فرداً عادياً كما الآخرين، ودون تمييز. لكن هذا الطرح قوبل بمعارضة من قبل رجال الدين الذين قالوا إن هذه الأفكار قد تذيب المجتمع اليهودي ومن المحتمل أن تلغي الديانة اليهودية. ومن أبرز هذه الأصوات "ليو بنسكر" الذي نادى مراراً بالاندماج مع الشعوب الأخرى وتعلم لغاتها. أما الاتجاه التحرري، "فلم يوافق أصحابه على الاندماج لما فيه من إلغاء للهوية والثقافة، بل رأوا ضرورة الانفتاح على المجتمع الأوسع والمشاركة في النشاطات العامة وإقامة العلاقات الاجتماعية الواسعة مع عموم الناس. رأوا أن المشاركة في المناسبات العامة ضرورية كما أن فتح الأبواب اليهودية أمام المسيحيين للتفاعل الاجتماعي حيوي أيضا لما في ذلك من تأليف للقلوب وإزالة انطباعات سلبية مسبقة. لكن هذا الطرح لم يحظ أيضاً بموافقة رجال الدين خوفا على انبهار البعض بالمجتمع الأوسع ما قد يؤدي إلى رحيل متزايد عن المجتمع اليهودي وإلى زيجات متبادلة تتناقض مع المبادئ اليهودية."[15]

ولعل الأهم في هذه التوجهات، كان التوجه القومي والذي تعبر عنه "هذه الحركات الأوروبية التي برزت نتيجة لمرحلة الرأسمالية الصاعدة...فالصهيونية ليست إلا نتيجة المرحلة الأخيرة من الرأسمالية الأخذة في

[15] نفس المصدر السابق.

التعفن." [16] وقد كان من أبرز مفكري هذا الاتجاه "يهودا الكلعي" الذي دعا إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، و"موشيه هس" الذي أشاد بما أسماه "القومية اليهودية،" وقال بأن الأمم تعلمت الفكر القومي من اليهود الذين تعاملوا مع أنفسهم على أنهم قومية. ومنهم، كذلك، العالم بن يهودا الذي حمل لواء التمسك باللغة العبرية، وقال بأن اليهود قومية، فقام بإعادة بعث اللغة العبرية وتحويلها من لغة الكنيس إلى لغة الحياة اليومية، وعمل على نشرها وإقناع اليهود باستعمالها في نشاطاتهم اليومية. وقد كان هذا الدور الذي لعبه بن يهودا من أهم الأدوار في تبلور فكرة القومية اليهودية، والتي أصبح لديها الآن لغة مشتركة كما هي الألمانية والانجليزية. وقد لقي هذا التوجه القومي دعماً كبيراً من قادة أوروبا في حينها، إذ وجدوا في ذلك حلاً يخدم مصالحهم الرأسمالية الاستعمارية، وفي نفس الوقت يقدم حلاً للمسألة اليهودية من خلال التخلص من يهود أوروبا عبر خلق وطن لهم خارج أوروبا.

هنا، اتخذت الحركة القومية اليهودية منحاً مختلفاً، فبعد أن تم اختيار فلسطين لتكون المكان لتنفيذ هذا المشروع بعد أوغندا والأرجنتين، تم اختيار الأدوات المناسبة، مثل: عملية إعادة خلق تاريخ فلسطين ليتناسب والدعوات المقامة من خلال الترويج لفكرة أرض الميعاد والوطن القومي، و زعم الحق التاريخي في فلسطين، وربط يهود أوروبا بالقبائل اليهودية التي عاشت في فلسطين، ونفي المراحل السابقة لتاريخ فلسطين غير المرتبطة باليهود، والتركيز على جوانب العنف كما فعل كثير من المفكرين العنصريين في الغرب حين صوروا الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة وليس جماعة دينية فقط.[17]

ومن ناحية أخرى، كانت عملية التركيز على جوانب العنف ذات مغزى سياسي أيضاً، وهو تحضير الأجيال الجديدة إلى أدوار مستقبلية، وبالتالي تحويلهم إلى فاعلين مؤثرين بدلاً من أن يبقوا ضحايا. هنا، بدأ الحديث عن تفوق العرق اليهودي الذي استطاع عبر الأجيال الحفاظ على هويته من الضياع والذوبان، ما أدى إلى شعور متعاظم بالنرجسية الجماعية وبروز أفكار مثل شعب الله المختار، والحديث عن النقاء العرقي بالاستناد إلى العلوم الاستشراقية، والانتماء المزدوج إلى أوروبا واليهودية. زفي هذا الإطار، تم بناء عدد من

[16] حيدر، مصدر سبق ذكره، ص 27.

المؤسسات على أسس اشتراكية لعبت دوراً محورياً في بناء الحركة الصهيونية في فلسطين كاليشوف والكيبوتس ومن بعدها المستوطنة، كذلك تعزيز الرابطة القومية على حساب العائلة، واللغة، والمناطقية، والمكان والجغرافية ليتم ربط الذاكرة الجماعية لهؤلاء وصهرها في بوتقة القومية الصهيونية. وبذا، فقد عززت الهوية الجديدة على حساب الهويات الأصلية لليهود، وقد أدت هذه العملية إلى سلخ فئات المجتمع الصهيوني الجديد عن المجتمعات التي ترعرعت فئاته ونشأت فيها. وقد قادت هذه العملية وعن طريق وسائل الإقناع والطاعة إلى خلق نوع من العقل الصهيوني الجمعي، بحيث أصبح اليهود وكأنهم جميعاً قلب وعقل واحد، وبخاصة بعد استثمار المحرقة النازية في الذاكرة الجماعية الصهيونية حتى في توحيد مجموعات اليهود الذين لم يعانوا النازية ولم يأتوا من أوروبا على الإطلاق. وبذلك، فقد نظرت الصهيونية لليهودية على أنها ليست دين وحسب، بل نظرت لليهود كأمة مبعثرة في الشتات. وعليه، فقد طرحت هذه الحركة نفسها على أنها حل للمسألة اليهودية بجميع أبعادها من خلال تجميع اليهود في دولة خاصة بهم وحدهم في فلسطين من خلال الهجرة والاستيطان، بحيث تكون دولة قومية خالية من الأقليات على غرار الدول القومية في أوروبا، والتي تتمتع بانسجام عرقي وثقافي.

وعليه، يمكن الاستنتاج بأن هذه الظروف من أجواء معاداة السامية وحالات الاضطهاد والتهجير التي عانى منها اليهود، وبروز التيارات القومية والحركات التنويرية والفكرية اليهودية وعدم النجاح في الانخراط في النهضة التنويرية الأوروبية أدت إلى تهيئة الأجواء لبروز فكرة القومية اليهودية متمثلة بالحركة الصهيونية التي أرست هذه القومية المتشكلة[18]، كحركة سياسية، إيديولوجية تهدف إلى تجميع شتات يهود العالم، وتوجيههم للعيش في فلسطين، مع رفض فكرة وجود شعب أصلاني في أرض فلسطين لتكون كل البلاد حكراً على اليهود الصهاينة. ولذا، فقد كان من الطبيعي أن تعادي القومية العربية منذ بدايات مشروعها كونها قومية منافسة، الأمر الذي يبرر سياسة التحالفات التي أقامتها إسرائيل مع دول محيطة بالدول العربية كتركيا، وإيران في عهد الشاه، وإثيوبيا لتفرض "طوقاً" أكبر حول "الطوق" العربي.

---

[18] إشتقت الصهيونية من اسم جبل صهيون في القدس حيث نقل داود قصره بعد انتقاله من الخليل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وهذا الاسم يرمز إلى مملكة داود وإعادة تشييد هيكل سليمان من جديد بحيث تكون القدس عاصمة لها.

ولعل أبرز ما يميز هذه الحركة أنها استطاعت أن تحول معتقد المسيانية الديني إلى برنامج سياسي، إذ حولت الشعارات والرموز الدينية إلى أجندة سياسية، مثل سياسة التمييز العنصري في التعامل مع غير اليهود وتبرير ذلك بأنهم غوييم (أي أغيار) حسب الديانة اليهودية. أما بالنسبة لأسباب ظهور الحركة الصهيونية، فقد حددها صالح عبد الجواد بأنها جاءت: "تحقيقاً لإرادة القوى الدولية الغربية الراغبة في خلق رأس جسر غربي في المشرق العربي، والتخلص من المشكلة اليهودية، ورد فعل على اللاسامية، وعلى إشكالية الاندماج بعد ظهور الفكرة القومية والمساواة والمواطنة وفشل اليهود في الانضمام إلى مشروع التنوير الأوروبي." [19]وهنا، نضيف إلى الأسباب السابقة الثقل السياسي، والقوة المالية لليهود خصوصاً في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، إذ أصبح الجميع يسعى إلى طلب ود هذه الجماعة الغنية النافذة. وبطبيعة الحال، فإن الرغبة في التأكيد على النرجسية المصاحبة للحركة الصهيونية التي أرادت الحفاظ على يهوديتها وتميزها العرقي بعيداً عن تيارات الحداثة والتنوير الأوروبية، كانت سبباً داعماً آخر في إبراز فشل الانضمام إلى تيارات التنوير الأوروبية وقصديته، لأن ذلك الانضمام كان سيعني انتهاء اليهودية كدين في أوروبا والتحول إلى العلمانية أو المسيحية. ولذا، فإن كل هذه "الخصوصيات الدينية" التي كرستها الفكرة الصهيونية كانت، نظرياً وعملياً، تحتاج إلى مكان مقدس تمارس فيه بعيداً عن ضوضاء أوروبا وتعدديتها.[20]

1.4 القومية الفرانكنشتاينية

ثمة جدل كبير على ادعاء فكرة الأمة الواحدة لدى الحركة الصهيونية، فاليهودية، أولاً، هي ديانة في الأصل، بينما يعتبرها اليهود ديانة وقومية. ولذا، فإن فكرة الدمج بين هذين المفهومين لها مغزاها السياسي والايدولوجي من حيث اعتبار هذه الهوية هوية فوق طائفية، وطائفية في نفس الوقت لكونها تقتصر على مجموعة معينة من الناس. ولعل هذه الفكرة الدمجية تأتي من مفهوم الفولك، وروابط الدم والتراب العضوية

---

[19] عبد الجواد، صالح. (بحث غير منشور).الصهيونية، مدارس ومفكرين ومشروع، مدخل عام. لماذا لم يتم التوثيق من عزمي بشارة هنا بدلاً من "البحث غير المنشور لصالح عبد الجواد؟"

عزمي بشارة. "مائة عام من الصهيونية: من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر." *الكرمل*، العدد 53، 1997، (11-20).

[20] الصهيونية كما يعرّفها كثيرون هي حركة سياسية عنصرية ترمي إلى خلق وطن قومي لليهود في فلسطين وتوطينهم به ليكون بمثابة وطن قومي للقومية اليهودية الناشئة، والتي ساهمت في بروزها وتطويرها الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بال الأول في العام 1897 وما تلاه من مؤتمرات

و"الفولك أو الشعب العضوي هو كيان عضوي متكامل أبدي ونتاج للنمو الحتمي للسمات الفطرية يحاول التعبير عن عبقريته الخاصة من خلال وحدته القومية وأنساقه السياسية وأشكاله الفنية الخاصة به. وفكرة الفولك تتضمن وجود علاقة عضوية بين الدم والتراب وبين الإنسان والأرض، ويمكن القول إن الحركة الصهيونية بدأت تاريخها مع اكتشافها لليهود كفولك أو كشعب عضوي، كيان جماعي له تاريخه الخاص وتراثه الحضاري المتميز بل وسماته البيولوجية الخاصة به. وقد استفاد مارتن بوبر من هذا استفادة كبيرة، وأعاد صياغة التراث اليهودي من منظوره، ونسب إلى اليهود كل السمات الصوفية كالانفصال والتفوق، التي ينسبها الرومنانتيكيون إلى أممهم واستخدام عبارات وشعارات مثل التراب والدم."[21]

من ناحية أخرى، فإن القومية، حسب ليتره Lithre، تعني "اجتماع بشر يقطنون نفس الأراضي ويخضعون أولاً لنفس الحكومة ولهم منذ مدة طويلة مصالح مشتركة واحدة تقريباً، لكن ينظر إليهم وكأنهم ينتمون لنفس العرق."[22] وفي هذا التعريف نلاحظ عدم وجود أي انطباق بين ادعاء الصهيونية حول وحدة الأمة والتاريخ اليهوديين وعناصر هذه التعريفات. وإلى جانب هذا التعريف للقومية نجد "مقولة الشعب وهي كثافة من الناس وحتى لو أنهم لا يسكنون نفس البلد ولهم نفس الديانة ونفس الأصل. أما حسب مانسيني، فالقومية هي مجتمع طبيعي لبشر متحدين في البلد والأصل والعادات واللغة وواعين لهذا المجتمع. أما بالنسبة لبلونتشلي، فالقومية هي مجتمع من البشر متحد ومنظم بشكل دولة. ومثلما رأينا لا ينجحون بتفريق الشعب عن القومية إلا بإدخال وحدة الأراضي مثل ليتره أو وحدة الدولة مثل بلونتشلي."[23]ومن جهة أخرى، يرى ساطع الحصري بأن فكرة القومية**[24]** تتشكل من وحدة اللغة والتاريخ المشترك، بحيث يعتبر الدين عاملاً ثانوياً في القومية، وفي هذا التعريف تناقض صارخ مع ادعاء الصهيونية بأن الدين هو مركب قومي، أي دين وقومية معاً، بينما القومية في العادة تأتي كهوية فوق طائفية.

---

[21] المسيري، عبد الوهاب .2003. البروتوكولات واليهودية والصهيونية.ط1.القاهرة: دار الشروق، ص153-154

[22] لازار، مصدر سبق ذكره، ص 177.

[23] نفس المصدر السابق، ص 178.

[24] أنظر ايضاً مجموعة مؤلفين. 1993. قراءات في الفكر القومي.الكتاب الأول.ط1. بيروت. مركز دراسات الوحدة.
.... 1993. قراءات في الفكر القومي.الكتاب الثاني.ط1. بيروت. مركز دراسات الوحدة

هناك طرح آخر حول فكرة نشوء القوميات، وهي أن معظم القوميات الحديثة مختلقة نشأت عن بنى وتقاليد مفتعلة (Invented Traditions) كما يورد إريك هوبسباوم.[25] ولذا، فإن هذه البنى مصنوعة لتخدم مصالح نخب تتطور بفعل ظروف معينة من خلال نسج قصص وروايات عن بطولات وتضحيات وأساطير قام به أفراد هذه المجموعة القدماء، أو التركيز على صفات جسدية كالطول أو اللون أو الجنس أو اللغة المشتركة أو حتى الدين في بعض الحالات، بحيث تصبح هذه السمات المفترضة نقطة جامعة لهذه المجموعة، ومنها يبدأ التحمس لهذه الأفكار بل والدفاع عنها لأنها تصبح كميزة لهذه المجموعة دون غيرهم، وتزداد هذه (الحميّة) إذا ما اتخذت صفة القداسة، وهنا بيت القصيد حيث تأخذ صفة الشرعية والمهمة المقدسة. كذلك تقوم هذه الأفكار، ولو بشكل غير مباشر، بنفي تميز المجموعات الأخرى، وشيطنتها، والتقليل من قيمة إنجازاتها أو رواياتها كونها روايات منافسة. إن هذه البنى المصنوعة أو المركبة تعبر، كما ورد سابقاً، عن النرجسية الجماعية،[26] بحيث تتداخل معها عوامل كالطاعة والمسايرة والتكرار والتوكيد،[27] فيصاغ العقل الجمعي لهذه المجموعة من خلال الجميع بين الأساطير والبطولات والتضحيات لإنتاج النرجسية الجماعية، وبالتالي "رواية الشعب."

ولإضافة إلى ذلك، فإن هذه البنية المختلقة تصاغ بطريقة أخرى حين يرافقها مشروع استعماري، حيث يتدخل الاستعمار في صياغة التاريخ الحديث لفئة ما ويعزز من تفوقها لما يخدم مصالحه الخاصة. وهنا، نلاحظ أن هذه الآلية تتكرر في حالة حركات التحرر التي تقوم بإعادة إنتاج هذه البنى والروايات لتتناسب مع مصالحها وهدفها التحرري، حيث تقوم النخب المثقفة بنسج روايات عن ماضي الأمة الغابر، ثم تعزز رابطة أو فكرة الأمة الواحدة أو الوطن على حساب رابطة العائلة، والدين، المصلحة الفردية، لتندمج من خلال آلية الطاعة النفسية والمسايرة. **ولكن إنتاج القومية المحلية يختلف في كل الظروف عن إنتاج قومية استعمارية لا تربطها علاقة عضوية بالمكان. أما في حالة الحركة الصهيونية، فقد مزجت كالعادة بين متناقضين:** فبينما شكلت البنى الصهيونية هذه البنى لنسج رواية قومية ولخلق قومية يهودية، استفادت من الاستشراق الأوروبي

---

[25] نفس المرجع السابق، ص102.

[26] فروم، اريك. 1998.جوهر الإنسان.ترجمة حبيب هادي.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس ، ص63.

[27] لوبون،غوستاف .1991. سيكولوجية الجماهير.ترجمة هاشم صالح.ط1.بيروت: دار الساقي، ص63

في مواجهة "الوجود" الفلسطيني بـــ"تأويل" صهيوني–أوروبي حول فلسطين، ومن هنا بدأت بخلق بنى لمشروع استعماري في فلسطين متذرعة بالحق التاريخي، وفي نفس الوقت، اعتبرت الصهيونية نفسها حركة تحرر قومي لتشكل ثنائية فريدة تدمج فيها البنى الاستعمارية والتحررية معاً.[28]

لقد استندت الصهيونية إلى التاريخ القديم للقبائل العبرانية وقامت باقتطاع أجزاء منه والتركيز على الحقبة التي وجدت فيها القبائل اليهودية الأولى في فلسطين بعد الخروج الكبير من مصر، بينما أغفلت التواريخ والمراحل التاريخية السابقة لذلك التاريخ، وفي نفس الوقت استخدمت أو أعادت خلق بعض الأحداث التي ربما لم تكن معروفة لدى أكثر اليهود مثل قصة مسادا، أو إعادة تكريس قصة داود وجالوت، وباركوخبا، وغيرها لتكون بمثابة محطات تاريخية مهمة مر بها اليهود، ولتطبع في الذاكرة الجمعية، ولتكون بمثابة صلة وصل بين التاريخ والواقع، ولتمحو في نفس الوقت من تاريخ الفلسطينيين ما يربطهم بالماضي، ولتصادر بعض مظاهر البنية الفوقية لثقافتهم، ومن ثم لتنفيهم أو تصفيهم على أنهم دخلاء أو مهاجرين غير أصليين، وليصبحوا جزءاً من الفضاء الصهيوني.[29]

وهنا، من المهم التمييز بين ما قامت به الحركة الصهيونية وما قامت به الحركات الاستعمارية الأخرى، حيث قامت الحركات الاستعمارية ومن خلال الاستشراق بخلق بنى معرفية حول الشرق غير الأوروبي، وقامت بشيطنته ورسم جغرافيا حوله. بينما "ارتكز الفكر الصهيوني بمجمله إلى فكرتين أساسيتين: الأولى، أن الروابط التي تربط اليهود وتجعل منهم يهوداً أو شعباً يهودياً هي بالأساس مستمدة من اليهودية، والتي تشكل بدورها نظاماً معرفياً وسلوكياً شاملاً يميز اليهود عن غيرهم من البشر. يضاف إلى ذلك نشوء وتكوين ثقافة اجتماعية وأدبية تنطلق في أساسها من النظام الديني اليهودي...إلا إن مفكري ورواد الحركة الصهيونية أكدوا

[28] انظر ايضاً الى"

Abdul-Rahim Al-Shaikh, "Palästina: Leben im Tunnel", in: Catherine David, Georges Khalil and Bernd M. Scherer (eds.), *Di/Visions - Kultur und Politik des Nahen Ostens*, Wallstein Verlag, Goettingen 2009, pp. 191-214.
وما طرحه كل من إدوارد سعيد في كتاب "القضية الفلسطينية"، وقسطنطين زريق في "معنى النكبة،" وفسره إلياس خوري في مقال مطول:

Qustantin Zurayq. *The Meaning of Nakba*. Beirut: Dar El-‘Ilm Li-Mallaiyyen, 1948. See Also: Elias Khoury. “The Struggle between Presence and Interpretation: Edward Said and *The Question of Palestine*.” *Al-Karmel*, 82, 2005, pp. (55-46).
Edward Said. *The Question of Palestine*. New York: Times Books, 1979, p. 28.

[29] لمزيد من التفصيلات، أنظر: عزمي بشارة: "في الذاكرة والتاريخ"، *الكرمل*، العدد 50، 1997. (45–51).

على أن اليهود يشكلون وحدة بشرية وأمة واحدة أو شعباً واحداً بالرغم من تعدد أوطانهم ولغاتهم."[30] ولا شك أن في هذا الطرح كثير من العنصرية والنرجسي مفاده أن شعب الله المختار يحتاج إلى قومية مختارة أي ليست كباقي الأمم والشعوب.

وفي هذا الصدد، يقول بينسكر "المخرج الصحيح والواقعي والوحيد هو خلق أمة يهودية وشعب يعيش على أرضه الخاصة."[31] فيما يرد زئيف ستيرنهل بالقول: لقد "صورت معظم الحركات القومية، والأحزاب التي استطاعت أن تترجم تطلعاتها التاريخية والثقافية إلى مصطلحات سياسية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نفسها على أنها تناضل ليس لأجل حرية شعوبها من نير الحكم الأجنبي، وتوحيد تلك الشعوب وعودة الإخوة الذين تم فصلهم عن الوطن، وحسب وإنما من أجل حماية تلك الشعوب من الذوبان وفقدان الهوية والمحو الثقافي، وقد كانت الصهيونية من نفس الطبيعة، فالخطر الجسدي الذي كان يهدد يهود أوروبا الشرقية، لم يكن الخطر الوحيد. كان خطر ضياع الهوية نتيجة لعملية التحديث التي بدأت تنتشر في أوروبا الشرقية."[32] **ومن** هنا، تأتي فكرة التطهير العرقي، و الترحيل، والتمييز العنصري، ومن بعدها التسييج، أملاً في الوصول إلى النقاء الصهيوني في مجتمع يهودي خالص.

1.5 الصهيونية: من "الغيتو" إلى أرض الميعاد

لعله من المهم التمييز بين ثلاث مراحل مرّ بها المشروع الاستعماري الصهيوني عامة، وهي: مرحلة ما قبل الصهيونية، ومرحلة الصهيونية، ومرحلة ما بعد الصهيونية. فقد برزت عدة عوامل وظروف دولية بالإضافة إلى التقاء المصالح بين الدول الاستعمارية والحركة الصهيونية أدت بمجملها إلى بروز دولة إسرائيل في العام 1948 كمنتج للمشروع الاستعماري الصهيوني المتحالف مع المشروع الاستعماري الأورو–أمريكي، وكوليد لهذه الجهود المتواصلة. ولعل موضع الاهتمام هنا هو دراسة المراحل التي انتقل بها اليهود من "الغيتو" إلى "أرض الميعاد" ضمن منظومة إستشراقية استعمارية ما زالت باقية إلى اليوم الحاضر.

---

[30] ابو لغد، إبراهيم. 1999. "**أسطورة إسرائيل الثامنة**".مجلة آفاق.ع4: 156–157

[31] لطف الله، مصدر سبق ذكره، ص 54.

[32] ستيرنهل،زئيف. 2001. الأساطير المؤسسة لإسرائيل. رام الله:مدار،ص 61.

مرحلة ما قبل الصهيونية

يدعي بعض المؤرخين الصهاينة بوجود روابط تاريخية ما بين الحركة الصهيونية الحديثة وبعض الحركات الاجتماعية والثورات التي أقامها اليهود خلال فترات تواجدهم على أرض فلسطين، كحركة المكابيين؛ ومسادا؛ وثورة باركوخبا؛ وحركة موزس الكريتي؛ وحركة دافيد روبين 1501–1532 الذي استحث اليهود على ضرورة العودة لتأسيس مكان في فلسطين؛ وحركة منشه بن إسرائيل 1604–1657 التي تعتبر النواة الأولى التي وجهت خطط الصهيونية وركزتها على استخدام الدول الاستعمارية وطموحاتها لتقوية المشروع الصهيوني؛ وحركة شبتاي زيفي 1627–1676 الذي ادعى أنه المسيح المخلّص. وبعد حملة نابليون على الشرق، حدث تحول جوهري في الأطماع الاستعمارية تجاه فلسطين، فتأسست حركة رجال المال التي تزعمها البارون روتشيلد ومونتفيوري، وكانت تهدف إلى إنشاء مستعمرات يهودية في فلسطين كخطوة لامتلاك الأرض ومن بعدها إقامة الوطن. ومن أبرز الحركات، كذلك، حركة موشي هس 1812–1875 [33] وكتابه *روما والقدس* في العام 1862، حيث طالب بتأسيس مستعمرات يهودية تمتد من السويس إلى القدس ومن ضفة نهر الأردن إلى ساحل المتوسط تكون تمهيداً للدولة اليهودية. وقد طرح هس مشروعه ضمن إطار الاستعمار الأوروبي وحماية مصالحه.

ولكن أهم حدث كان في عام 1882، وهو عام مفصلي حيث ظهرت في روسيا حركة عرفت بإسم "حوحفي تسيون" كان أنصارها يتجمعون في حلقات اسمها "أحباء صهيون"، وقد تم الاعتراف بهذه الجماعات وترأسها ليو بنسكر 1821– 1891.[34] وقد استهدفت الجماعة نشر الوعي بين اليهود، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين، وإحياء اللغة العبرية، وبخاصة بعد أعمال التنكيل بحق اليهود في الفترة ما بين 1871–1881 حيث قتل عدد كبير من اليهود بسبب ما قيل عن مشاركة فتاة يهودية في اغتيال القيصر. ولذا، فقد فضلت هذه المجموعة الرحيل والهجرة لكون روسيا غير مناسبة لهم، ولأنها وجدت في ذلك فرصة لترجمة الأفكار حول فلسطين

[33] صاحب كتاب (روما والقدس)، من اهم مفكري الحركة الفكرية التي نشأت في أوروبا، وطالب بعدم اندماج اليهود في أوروبا.

[34] ليو بنسكر يهودي تزعم حركة أحباء صهيون، طالب في البداية بالاندماج مع المجتمعات، ودعا إلى تعلم الروسية والزواج المختلط إلا أن المجازر التي وقعت بحق اليهود في روسيا غيرت من مواقفه.

إلى واقع من خلال الهجرة الفعلية. وعليه، فقد نظمت في العام 1882 أول هجرة جماعية إلى فلسطين، حيث قاموا بالبحث عن أراض زراعية وبيوت توفر لهم الرزق والمأوى، حيث بدأت عملية تأسيس أولى المستوطنات في فلسطين، بدئاً من مستوطنة (بتاح تكفا) في العام 1878، والتي أقيمت من قبل يهود القدس.

مرحلة الصهيونية

تنسب هذه المرحلة في تكونها إلى ثيودور هرتسل،[35] الصحفي النمساوي صاحب كتاب *دولة اليهود*، بدئاً من مؤتمر بازل الأول الذي انعقد في العام 1897، والذي يعتبر تاريخ ميلاد الحركة الصهيونية الفعلية، والتي كان هدفها إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من خلال تجميع الشتات اليهودي في أرض فلسطين. وهي الحركة هي الحركة الأهم في الحركات السابقة، والمرحلة الأهم بالنسبة للقومية اليهودية، حيث إنها نجحت في أخذ المشروع الاستعماري إلى فلسطين وأسست له حاضنة تبنيه وتدافع عنه. وقد صقلت هذه الحركة الهوية القومية اليهودية من خلال استخدام الأساطير وتوظيف معاداة السامية والمحرقة وغيرها في خدمة مشروعها. والمهم هنا، هو معرفة العناصر والبنى الاستعمارية التي شكلتها الحركة الصهيونية لتحقيق مشروعها والتي انعكست مستقبلاً حتى على حركة التحرر الفلسطيني، وهي عملية ذات أربعة محاور:

أولاً، توظيف الدين اليهودي لتنفيذ مأرب الصهيونية وتحويل الدين إلى قومية: وفي هذه العملية استخدمت الحركة الصهيونية ومفكريها الدين اليهودي كمطية لتحقيق مشروعهم، وأكثر ما يعبر عن وجهة النظر هذه رسالة من بن غوريون إلى نائبه موشي شاريت يقول فيها "ليس لنا أن نفصل الدين عن الدولة، فهناك وحدة مصير بين دولة إسرائيل والشعب اليهودي."[36] وقد تم تسويق ذلك من خلال إقناع الجاليات اليهودية بأن هذا المشروع الاستعماري الخلاصي هو الحل لكل مشاكل اليهود وعذاباتهم ووقف موجات التمييز بحقهم. وعليه، يمكن القول بأن هذا المشروع جاء كمخرج لمشكلة الاضطهاد بسبب الدين، لذا ينبغي أن يكون الحل أيضاً بنفس الروح والمنطق، أي بما أن المشكلة تولدت بسبب الدين، فالحل كذلك يجب أن يكون من باب الدين.

---

[35] ولد في بودابست في العام 1860 ودرس في جامعة فينا، عمل صحافيا وكاتباً، أهم ما قام به كان كتاب دولة اليهود والإعداد للمؤتمرات الصهيونية الأولى والتفاوض لإقامة دولة لليهود.

[36] بشارة، عزمي. 2005. من يهودية الدولة حتى شارون.رام الله: مواطن–المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية ، ص 23

وهنا يقول عزمي بشارة "لم يمنح الدين القومية الصهيونية الأسماء والمفردات واللغة فحسب، ولا الأرض والتوراة فحسب، بل والأهم من ذلك أنه منحها البعد القيمي الإيجابي والتداعيات الثقافية والتراثية الايجابية لهذا كله."[37]

ثانياً، إعادة كتابة التاريخ إخراجاً وتطهيراً: لم يتم الاكتفاء باستخدام الدين كمبرر للغزو، بل وظف لذلك علوماً كالآثار والتنقيب والحفريات والتاريخ، ولا عجب أن تكون هذه العلوم أكثر ما ركزت عليه الحركة الصهيونية، وذلك لربط النظرية الدينية بالواقع الاستعماري. فمثلاً، يقول غوردون في تعبير عن قوة التاريخ "أرض إسرائيل هي أرضنا طالما أن شعب إسرائيل يعيش ولا ينسى بلده، ولكن من جهة أخرى، لا نستطيع الادعاء أن العرب لا يملكوا جزءاً فيها، السؤال هو بأي معنى ولأية درجة هي أرضنا وكم هي لهم؟ وكيف يستطيع المرء تقريب وجهة النظر لإدعاءات كلا الجانبين؟"[38] بحيث يتم طمس فترات وحقب تاريخية والتركيز على حقب دون أخرى، مثلاً تم التركيز على قصة المسادا وبعثت قصتها في الذاكرة الجماعية اليهودية على أنها بطولة وتضحية ، ولترجمة هذه الرواية تم إيفاد بعثة استكشافية في العام 1963-1965 بقيادة يغال يدين.[39] وقد كان هدف هذه العملية "العودة إلى التاريخ "هشيفا لهستوريا" والعودة إلى أرض إسرائيل "هشيفاه ليسرائيل" ونفي المنفى "شليلات هغلوت."[40]وضمن نفس المنظومة، تمت عملية التركيز على جوانب العنف والانتصارات، وإغفال مرحلة الهزيمة والانحلال. وقد تم تصعيد هذا الاتجاه لاحقاً في الرواية الصهيونية، لمنه كشف عنه النقاب على أيدي "المؤرخين الجدد" الذين سيشار إليهم ضمن مرحلة ما بعد الصهيونية.

ثالثاً، تحويل السكان من مواطنين في الدول التي كانوا يعيشون فيها إلى صهاينة ثم إلى إسرائيليين: حيث كان من أبرز الأعمال التي قامت بها الحركة الصهيونية تحويل السكان[41]الذين كانوا يعيشون في بلدانهم ويحملون جنسياتها، وبالتالي تبديلهم إلى القومية الجديدة ممثلة بالصهيونية. وقد لقيت هذه العملية نجاحاً كبيراً

---

[37] بشارة، مصدر سبق ذكره، ص 24.

[38] ستيرنهال، مصدر سبق ذكره، ص 81.

[39] بن يهودا، مصدر سبق ذكره، ص 206.

[40] بتبرغ، غبريل. 2001. "**نقد الصهيونية: حالات المحو**". مجلة الكرمل. ع69: 187-199

[41] Massad, P83

بسبب توظيف الدين كما أشير سابقاً، وبسبب الأوضاع التي عاشها اليهود في أوروبا. ولذا، فقد كان السعي إلى الخلاص. غير أنه يوجد هناك طرح آخر يفيد بتواطؤ الحركة الصهيونية مع بعض الدول، بما فيها ألمانيا النازية، في خلق هذه الظروف المنفرة لدفع اليهود في هذه الدول للرحيل إلى فلسطين. ومن أدلة هذه الادعاءات، الاتصالات التي أجرتها الصهيونية مع الفاشية والنازية. وفي هذا السياق، استخدمت الحركة الصهيونية التفجيرات والهجمات على التجمعات اليهودية، وتحريض اليهود على أعمال العنف لأجل دفع اليهود للرحيل، ومثال ذلك ما حدث لبعض اليهود العرب خصوصاً في مصر والعراق وبعض بلاد المغرب العربي،[42]حيث نسفت الكنس وأماكن تجمع اليهود. ومن السمات المميزة لما قامت به الصهيونية خصوصاً من اليهود العرب أنها أزالت عنهم صفة العروبة واعتبرتهم يهوداً شرقيين (مزراحيم أو سفاراديم)، هذا الفسخ عن التاريخ واللغة والتراث الطويل أدى إلى حدوث أزمة هوية لدى هؤلاء، بالإضافة إلى التمييز بحقهم على اعتبارهم عرب من قبل اليهود الغربيين (الاشكناز)، حيث برزت أصوات تطالب بإعادة الاعتبار إلى هؤلاء من أمثال ايلا شوحط، وسهودا شنهاف، وآمنون راز–كراكوتسكين وغيرهم. وقد أدت هذه العملية إلى حدوث تغيرات سكانية وديمغرافية وتاريخية، حيث أصبح اليهود في بعض الدول أقليات محدودة ومهمشة بعد أن كان لهم دور اقتصادي وحضور فعال، ولكن الأثر الأكبر كان متعلقاً بما قامت الحركة الصهيونية من إستبدال قسري للسكان وتوزيع جديد للأرض الفلسطينية، فمثلاً رحّلت يهود العراق ومصر ولبنان وسوريا واليمن، وأرسلت بدلاً منهم لاجئين فلسطينيين، وأعادت صياغة المشهد الفلسطيني إسرائيلياً.[43]

رابعاً، الاستيطان والسيطرة على الأرض:[44] لكي ينجح المشروع الصهيوني كانت الركيزة الأساسية في الوجود تستند إلى حيازة الأراضي وزيادة عدد المستوطنين، حيث تم شراء أراض بداية من قبل الدولة العثمانية من خلال المزادات العلنية، وسماسرة الأراضي والإقطاعيين، أو حتى من خلال قناصل الدول الموجودين خصوصاً ألمانيا وفرنسا وبريطانيا حيث سمح للبعثات الأجنبية بتملك أراضي في الدولة العثمانية، "فكانوا يشترون الأراضي ومن ثم ينقلونها لليهود. مثلاً قام القنصل البريطاني الحاخام "امزليغ" بشراء 3340

---

[42] المسيري،عبد الوهاب. 2001. الصهيونية والعنف.ط1.القاهرة:دار الشروق، ص 83.

[43] لمزيد من المعلومات، أنظر: إسماعيل الناشف. فك الصهيونية.....

[44] Massad,P20

دونماً وحولها لليهود لإقامة مستوطنة ريشون ليتسيون. أما إميل فرانك، الذي كان يعمل نائب قنصل ألمانيا والنمسا في الإسكندرية، فقد عمل على تحويل 6000 دونماً من أراضي الجاعونة إلى اليهود. وقام القنصل الألماني بتحويل 142 دونماً في منطقة يافا. أما قنصل فرنسا في عكا ونائبه في صفد، فشاركا بتحويل مساحة مقدارها 2500 دونم قرب الحولة."[45] وإضافة إلى ذلك، فقد ساعدت الإصلاحات العثمانية خصوصاً "خط شريف كولخانة" و"خط همايون" بشكل مباشر على تفتيت الملكية، وبالتالي تسهيل عملية شرائها وانتقالها لليهود الصهاينة بعد أن كانت أراضي أميرية تابعة للدولة العثمانية. وفي نفس الوقت، أعطت للدول الأجنبية فسحة للتدخل وشراء الأراضي وبدايات التغلغل الاستعماري من خلال البعثات التبشيرية وغيرها.

مرحلة ما بعد الصهيونية

ربما تكون من أبرز السلوكيات التي وظفت الصهيونية لها الموارد والنصوص تأبيد البكائية واحتكار دور الضحية. ولا شك أن هذا لا يعني عدم وجود معاناة حقيقية عاشها اليهود على مر العصور خصوصاً في أوروبا وروسيا، ولكن هناك فرق بين أن تكون مجموعة ما ضحية، وبين أن تحتكر هذه المجموعة فكرة الضحية "الضحية أولاً وأخيراً،" كما قلدت كثير من الحركات الاستعمارية الأوروبية عند غزوها للهامش خارج المركز الأوروبي، وهذا ما حدث للحركة الصهيونية التي تعتبر نفسها ضحية ظلم تاريخي، وأنها باسم هذا الظلم تمارس هي ظلماً آخر وتستغل معاناة اليهود لاحتكار دور الضحية وللتبرير السياسي والابتزاز المتواصل للضمير الأوروبي.

وقد قاد هذا كله الحركة الصهيونية إلى فبركة تاريخ صهيوني خالص معتمد على رواية تبريرية لجرائمها بحق الفلسطينيين. وقد قام دعاة ما بعد الصهيونية من المؤرخين الجدد بتفنيد هذه الرواية التاريخية الصهيونية الكلاسيكية التي كان من أبرز ركائزها رواية أحداث قيام دولة إسرائيل على نحو يمكن تلخيصها في: إنه بينما رفض العرب خطة التقسيم للعام 1947 المبنية على توصيات لجنة بيل، قبلها اليهود؛ إن حرب الاستقلال الإسرائيلية، أو النكبة الفلسطينية، خيضت بين ديفيد الضعيف، المتمثل بالعصابات الصهيونية،وجالوت الجبار، المتمثل بالقوات العربية؛ إن مشكلة اللجوء الفلسطيني لم تنشأ نتيجة لفعل القوة

[45] الموقع الالكتروني للبروفيسور عبد الستار قاسم، مصدر سبق ذكره.

والمذابح الصهيوني، بل نتيجة لدعوات القادة العرب للفلسطينيين بالرحيل للتمكن من رمي اليهود في البحر؛ إن العرب هم من رفضوا كل مقترحات السلام بعد الحرب، وإن إسرائيل قبلتها؛ وإن السياسات التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين المواطنين فيها، وأولئك الذين في الضفة والقطاع والقدس، إنما هي للحفاظ على إسرائيل من الزوال قبالة أعمال الإرهاب التي يقصد منها الفلسطينيون إزالة دولة إسرائيل عن الخارطة.[46]

وقد كررت الحركة الصهيونية هذه الآلية في صناعة التاريخ من خلال خلق الأساطير الدينية والعلمانية وتوظيفها في الأجندات السياسية والاجتماعية، كالمسادا وأرض الميعاد والشعب المختار وأسطورة يشوع (التطهير العرقي)، وأسطورة أرض بلا شعب، وغيرها.[47] وفيما بعد جاءت أساطير التيار المركزي حول الحرب مع العرب وهي بأن العرب رفضوا قرار التقسيم، وأن العرب هم من شن الحرب، وان إسرائيل تصارع لأجل البقاء، وانتصار قلعة اليهود على محيط الأعداء البرابرة، وأن الفلسطينيين قد رحلوا بسبب الأوامر العربية، فيما تشدقت الصهيونية بطهارة سلاح مقاتليها،[48] وأن إسرائيل أرادت السلام ولكن العرب رفضوا ذلك.

ومن هذه المراحل التي مرت بها الصهيونية نستنتج أنها استخدمت عدة أنماط لتنفيذ مآربها سادت عليها الميكافيلية، حيث تنوعت أساليبها بتنوع الظروف والفترات التاريخية. فالصهيونية في الأساس، وإضافة إلى كونها ردة فعل على فشل مشروع التنوير الأوروبي،[49] جاءت كمشروع حل وسط للتطاحن الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا.[50]وقد تنوعت أساليبها حسب الاحتياجات، ولعل أبرزها كان إستخدام العنف وإنشاء المنظمات المسلحة كالهاجاناة والإرغون وغيرها، بالإضافة إلى الوسائل الدبلوماسية وخلق بنية تحتية إقتصادية حملت المشروع الصهيوني وحمته مستقبلاً، وعقد تحالفات مع دول الجوار، واتفاقيات سرية تحفظ

---

[46] انظر ايضاً إلى بابيه،إيلان.2007.التطهير العرقي في فلسطين. ترجمة أحمد خليفة.ط1 بيروت.مؤسسة الدراسات الفلسطينية. موريس، بيني. 2003. تصحيح خطأ .ترجمة أنطوان شلحت. رام الله: مدار.، ص 16.

[47] غارودي،روجيه.1996. الأساطير المؤسسة لإسرائيل.ط1:دار الغد العربي، ص136

[48] عزز من فكرة طهارة السلاح المؤرخ بيني موريس والذي نسب ما قامت به إسرائيل في العام 1948 إلى أفراد تصرفوا على من تلقاء أنفسهم، كذلك في قضايا الاغتصاب التي وقعت حيث قال بأن من فعلها كانوا جنوداً مغاربة. لمزيد من التفصيلات، أنظر: دان ياهيف....

[49] أنظر، عزمي بشارة. "مائة عام من الصهيونية: من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر،" الكرمل. ....

[50] لطف الله، مصدر سبق ذكره، ص 26.

أمن هذه الدول. وبذا، يمكن إجمال هذه الأساليب بثلاث مراحل مرت بها أساليب المشروع الصهيوني، وهي: مرحلة ما قبل تأسيس الدولة، ومرحلة التأسيس، ومرحلة ما بعد التأسيس.

1.6 فلسطين ما بعد التقسيمات الكبرى وموقعها من الخارطة الاستعمارية

لعل أهم مرحلة من تاريخ فلسطين الحديث كانت مرحلة تقسيمها إلى ستة سناجق في الفترة العثمانية، وقد تخلل هذه الفترة حدث مهم هو بروز ظاهر العمر (1689–1775) الذي أقام أول تشكيل سياسي في فلسطين، **النقطة التي قد يبدأ من عندها الحديث عن أول كيانية أقامها السكان الأصليون** لهذه البلاد التي تمتد من نهر الأردن شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن خليج العقبة جنوباً إلى رأس الناقورة شمالاً. إلا إن الأتراك، بتحالف مع أحمد باشا الجزار والذي يصبح والي عكا، قضوا على حركة ظاهر العمر، واستمر هذا التسلسل في الأحداث حتى حملة نابليون على مصر والشام (1799–1801)، ومن بعد نابليون كانت حركة محمد علي باشا، وحملة إبراهيم باشا واحتلاله للشام، الأمر الذي جعل الدول الاستعمارية، كفرنسا وبريطانيا، تتدخل لصالح الدولة العثمانية وتحجّم من نفوذ محمد علي وابنه إبراهيم، وذلك طمعاً في الغنيمة المستقبلية.

ومع بدايات التغلغل الاستعماري في مصر، وبناء قناة السويس، وهو المفصل الأهم الذي غير تاريخ المنطقة وأعطى المكان أهمية إستراتيجية إضافية، أصبحت فكرة السيطرة على هذه المنطقة التي تحيط بقناة السويس مسألة وقت بين هذه الدول الاستعمارية، إلى أن تم الأمر بالنسبة للإنجليز في العام 1882 وهو نفس العام الذي شهد أول هجرة يهودية كبيرة إلى فلسطين، وهي الموجة المعروفة بـــ"هجرة أحباء صهيون." من ناحية أخرى، اقتضت الإستراتيجية الاستعمارية الإبقاء على رجل أوروبا المريض بحالة ضعف فقط لكونه عامل استقرار وضبط في التنافس الاستعماري بين الدول. ولذا، فلم يكن غريباً أن تدك السفن الإنجليزية السفن والمدن الروسية في حرب القرم لصالح الدولة العثمانية ولمنع روسيا من التغلغل أكثر والوصول إلى المياه الدافئة؛ وكذلك صعود نجم ألمانيا وامتلاكها أساطيل وقوة إقليمية لا تتناسب مع حجم مستوطناتها، إذ عمدت إلى البحث عن موطئ قدم لها، وهذا يفسر التحالف الذي قام فيما بعد بين ألمانيا والدولة العثمانية وبعض المشاريع مثل خط الحديد الحجازي وترميم الجيش العثماني وتزويده ببعض السفن، والبعثات التبشيرية الألمانية وبناء الكنائس والمدارس والمستشفيات، خصوصاً في القدس، ونمو بعض الجاليات فيها، إذ لا عجب

أن يرتبط اسم بعض الأحياء الغربية في القدس حتى هذا اليوم بأسماء بعض الجاليات ذات النفوذ كحي المستعمرة الألمانية أو حي المستعمرة اليونانية.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وصولاً إلى اتفاقية سايكس–بيكو التي قسمت المنطقة إلى مناطق نفوذ، ومع انتهاء الاحتلال التركي لفلسطين وتبديله باحتلال إنجليزي تم إقراره بشكل رسمي في مؤتمر سان ريمو في العام 1920، بقيت فلسطين الانتدابية محط تذبذب في الأحداث، وقد شهدت هذه الفترة موجات أخرى من المهاجرين اليهود الذين واصلوا شراء الأراضي من كبار الملاك وإقامة المستوطنات فيها، في حين استمر بعض العرب الفلسطينيين في بيع الأراضي للمهاجرين الجدد فيما استمر لبعض الآخر في مقاومة ذلك. وقد نجم عن هذه الأوضاع العديد من الاضطرابات بحيث كانت مدينة القدس أكثر الأماكن إثارة لهذه الإشكالات خصوصاً في العام 1929. أما على الصعيد الاستعماري، فقد استمرت بريطانيا في المحاباة مع اليهود ودعمهم وحمايتهم وتدريب عصاباتهم من خلال الفيلق اليهودي، ومن خلال تدريب المنظمات المسلحة اليهودية خصوصاً على يد الضابط البريطاني "أورد وينغت" الذي أقنع القادة الصهاينة بأن فكرة إقامة دولة يهودية يجب أن تقترن بشكل وثيق بتحضيرات عسكرية وإنشاء جيش.[51]

ومع تطور الأوضاع في السنوات التي ذلك، شكلت ثورة العام 1936 مفصلاً مهماً، "حيث حشدت لها بريطانيا قوات عسكرية أكثر مما كان موجوداً في شبه الجزيرة الهندية، وبعد ثلاثة أعوام تخللها هجمات وحشية وعديمة الرحمة على الريف الفلسطيني، نجحت القوات البريطانية في إخماد الثورة ونفيت القيادات الفلسطينية وحلت الوحدات شبه النظامية التي أدارت حرب عصابات ضد قوات الانتداب. وفي غضون ذلك، أعتقل أو قتل أو جرح عدد كبير من القرويين الذين شاركوا في الثورة. وقد سهل غياب معظم القادة الفلسطينيين وحل الوحدات المقاتلة الفلسطينية على القوات اليهودية في سنة 1947 اجتياح المناطق الريفية الفلسطينية من دون صعوبات"[52]. هذا، ويعتبر البعض هذه الهزيمة الكبرى بداية النكبة الكبرى، حيث لن يشارك الفلسطينيون بعد هذا التاريخ في رسم مصيرهم سوى بشكل هامشي من خلال جيش الإنقاذ، وصولاً

[51] بابيه، مصدر سبق ذكره، ص 24.

[52] نفس المصدر السابق، ص23

إلى أيار من العام 1948 وهو التاريخ الحاسم الذي أعلنت فيه دولة إسرائيل من أحد ضواحي مدينة تل أبيب، وهو التاريخ ذاته الذي توقفت فيه مسيرة الكثير من القرى والمدن الفلسطينية الجميلة التي عاصرت حقباً وأحداثاً تاريخية مهمة كبيسان و طبريا وصفد والرملة وعكا وغيرها، فقتلتها وقتلت التاريخ معها، لتبقى منها بقايا صور وبعض أطلال.

1.7 خلاصة

تم في هذا الفصل البحث في مفهوم "الولادة المقدسة" للحركة الصهيونية، أي البحث في السياق الأوروبي الذي هيأ لنشأة الرحة الصهونية كحركة قومية مرتبطة بمشروع استعماري. وقد تبين أن المسألة اليهودية في أوروبا تميزت بسبع مراحل أو هي أنماط ربما تتداخل تاريخياً، تعامل عبرها الأوروبيون مع اليهود، وهي: مرحلة النبذ والاضطهاد، مرحلة العزل والطرد من أوروبا أو ضمنها، مرحلة العودة والإشفاق، مرحلة الإقصاء ومعاداة السامية، مرحلة المحرقة أو "الهولوكوست،" مرحلة الإشفاق والخطيئة الكبرى، مرحلة ما بعد الخطيئة. وقد كان لهذه المراحل الأثر الأكبر في تبيان مظاهر فشل اليهود في الاندماج في السياق الأوروبي، وإنشاء قوميتهم بين الغيتو وأرض الميعاد عبر ثلاث مراحل مرّ بها المشروع الاستعماري الصهيوني عامة، وهي: مرحلة ما قبل الصهيونية، ومرحلة الصهيونية، ومرحلة ما بعد الصهيونية. وقد تم على امتداد هذه المراحل: توظيف الدين اليهودي لتنفيذ مأرب الصهيونية وتحويل الدين إلى قومية؛ وإعادة كتابة التاريخ اليهودي إخراجاً وتطهيراً؛ وتحويل السكان من مواطنين في الدول التي كانوا يعيشون فيها إلى صهاينة ثم إلى إسرائيليين؛ وتكريس الاستيطان والسيطرة على الأرض كسياسية عامة للحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.

كما تم التركيز على حركة المؤرخين الجدد التي فندت ادعات التيار المركزي في التاريخ الصهيوني لإسرائيل، وخصوصاً تفنيد ركائز رواية أحداث قيام دولة إسرائيل على نحو يمكن تلخيصها في: إنه بينما رفض العرب خطة التقسيم للعام 1947 المبنية على توصيات لجنة بيل، قبلها اليهود؛ إن حرب الاستقلال الإسرائيلية، أو النكبة الفلسطينية، خيضت بين ديفيد الضعيف، المتمثل بالعصابات الصهيونية،وجالوت الجبار، المتمثل بالقوات العربية؛ إن مشكلة اللجوء الفلسطيني لم تنشأ نتيجة لفعل القوة والمذابح الصهيوني، بل نتيجة لدعوات القادة العرب للفلسطينيين بالرحيل للتمكن من رمي اليهود في البحر؛ إن العرب هم من رفضوا كل

مقترحات السلام بعد الحرب، وإن إسرائيل قبلتها؛ وإن السياسات التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين المواطنين فيها، وأولئك الذين في الضفة والقطاع والقدس، إنما هي للحفاظ على إسرائيل من الزوال قبالة أعمال الإرهاب التي يقصد منها الفلسطينيون إزالة دولة إسرائيل عن الخارطة.

الفصل الثاني

الاستعمار والتحرير

2.1 تمهيد

يتناول هذا الفصل سمات الحركة الاستعمارية، والظروف والمبررات التي أظهرتها، وهي نفس الظروف التي أدت إلى تطورها وتوسعها، كما يناقش كيف استطاعت هذه الحركات أن تتغلغل في فضاء السكان المحليين وأن تهاجم ثقافتهم وحضارتهم معززة بالاستشراق المؤسس سلفاً عنهم. وسيتم التطرق كذلك إلى الأدوات التي استعملتها الحركات الاستعمارية في التعاطي مع الشعوب الواقعة تحت الاستعمار، كذلك في تأصيل الحالة الاستعمارية وتأبيدها. كما يتناول هذا الفصل بروز أنماط مقاومة لهذه المشاريع تمثلت بحركات التحرر التي سيتم التطرق إلى الظروف والعوامل التي نمت بها هذه الحركات، والعوامل التي أدت إلى استمراريتها من خلال الحديث عن سيكولوجية التحرير. وقد جاء هذا المهاد ليساعد على فهم سيكولوجية الاستعمار والتحرير، وبالتالي ربطها مع بعض التجارب الاستعمارية المستنسخة من الحركة الاستعمارية الأوروبية، وبخاصة بالحركة الصهيونية، الأمر الذي تم التأسيس له في الفصل الأول.

2.2 الحركة الاستعمارية: المبررات والنتائج

يمكن اعتبار الفترة ما بين (1095-1291) البدايات الأولى لحركة الاستعمار الأوروبي الحديث، وذلك للتوسع نحو الشرق، الإسلامي في غالبه، الذي حاول مراراً وتكراراً غزو أوروبا، وأسلمتها عسكرياً، وثقافياً من خلال الغزو المباشر، ومن خلال دور العلم المنتشرة بين بغداد والأندلس؛ بالتالي شعرت المسيحية الأوروبية البيضاء بالخطر على هويتها الدينية والثقافية، فما كان منها إلا أن تؤسس لمقاومة هذا الغزو والتهديد الثقافي من خلال الحملات العسكرية والدينية المضادة، التي وصفت أو وصفت نفسها بـ "الصليبية" في أحيان كثيرة. ولا شك أن الثأر لم وحده العامل المحرك للاستعمار الأوروبي، بل كان أحد المحركات الهامشية، إذا تم النظر إلى نزعة المركزية الأوروبية، وما اكتنفها من الرغبات الدفينة الكامنة في مشاكل الكنيسة وأوروبا بسبب الحروب بين الطوائف الدينية، وبسبب نزاعات النبلاء والإقطاعيين الباحثين دوماً عن مصادر للثروات الجديدة، بحيث كان الغزو نحو الشرق الفرصة المثالية لحل هذه الإشكالات، وللتخلص من

بعض الإقطاعيين تحت حجة التطهر، وتعزيز دور مؤسسة الكنيسة وسلطتها التي أصبحت المؤثر والموحد الأساسي في أوروبا.

لذا، فقد دفع التقاء المصالح، والتحالفات التي تمت ما بين الكنيسة والإقطاعيين إلى جعل الحروب الصليبية وغزو الشرق ممكناً، بحيث اتخذ شكلاً ومبررات دينية في الظاهر، ولكن إلى حين، حيث لم يكتب لهذه الغزوات الاستمرار بسبب الصراعات الداخلية، والافتقار إلى التنظيم، وعدم القبول من طرف السكان الأصليين، الأمر الذي أدى إلى فشل هذا المشروع في العام 1291 بإلقاء آخر جندي صليبي في البحر، ليبدأ بعد هذا التاريخ مشروع آخر أكثر تنظيماً حين أخذ تجارب الماضي وعبره بالحسبان.

وعليه، فلم يكن غريباً أن يكون التاريخ الفعلي لحركة الاستشراق الرسمي قد بدأ في العام 1312 عندما أقرّ مجمع فينا الكنسي تأسيس عدد من كراسي الأستاذية بالعربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا،[1] حيث ليس من المستغرب أن يكون هذا التاريخ فقط بعد عدة سنوات من طرد آخر جندي صليبي من الشرق على يد المماليك في العام 1291. وهذا يؤكد العلاقة ما بين الحروب الصليبية والحركة الاستعمارية، من حيث أن المصدر والمنفذ والأدوات والمبررات كانت كلها تقريباً واحدة: فقد وظف الدين كمحرك أساسي، بالإضافة إلى المزايا الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية لهذا الغزو. وللدلالة على هذه الفرضية، يستخدم البعض نصوصاً منها ما قاله الجنرال البريطاني اللنبي عندما دخل القدس في العام 1918 " اليوم انتهت الحروب الصليبية،" [2] وكذلك ما قاله الجنرال غورو عندما وقف قرب ضريح صلاح الدين بعد معركة ميسلون: "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، وغير ذلك من المقولات التي استخدمت للدلالة على الإرث التاريخي والتواصلي بين الموجات الصليبية.

ومع العام 1492، انتقلت أوروبا إلى مرحلة [3] جديدة أحدثت بها نقلة نوعية في كافة المجالات، حيث تم اكتشاف العالم الجديد، وتم طرد العرب واليهود من الأندلس، وبالتالي أصبحت أوروبا مركز العالم،

---

[1] سعيد،إدوارد. 1995. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب.ط4.بيروت: دار الآداب، ص80

[2] العويسي، عبد الفتاح. 1992. جذور القضية الفلسطينية. 1799–1922. ط2.الخليل:دار الحسن للطباعة والنشر، ص135.

[3] إدوارد سعيد 2001 . التلفيق الذاكرة المكان.ترجمة رشاد عبد القادر: الكرمل. ص:97

والمقصود بأوروبا هنا بعض الدول الأوروبية الاستعمارية خصوصاً إسبانيا والبرتغال وهولندا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا التي جسدت الاستعمار، واستخدمت لتنفيذ هذا المشروع البعثات الدينية ورحلات المستكشفين والعلوم والاستشراق الذي مهد العقلية الأوروبية بشكل رئيسي لهذه المشاريع الاستعمارية.[4] هنا، تم خلق افتراض لدى الأوروبي بالتناقض الجذري بين الشرق والغرب، تناقض من حيث "اللاعقلانية"، و"البدائية" و "اللا أخلاقية" الموسوم بها الشرق، مقابل "العقلانية" و"التقدم والفضيلة الغربية."[5] وكذلك الأمر بالنسبة للمعرفة التي تمثل الطبقة الثانية للمشروع الاستعماري،[6] حيث صيغت لتخدم الأجندة الاستعمارية ممثلة بعلوم نحو علم الإنسان، والتاريخ، وعلم الاجتماع. أما ثالث هذه الطبقات، فهي المؤسسات التي تخدم إدارة الاستعمار الأوروبي للشرق. وعليه فقد شكلت هذه الطبقات مجتمعة منظومة للحقيقة والمعرفة والسيطرة، بحيث استخدمت لإثبات "بذاءة" و"انحدار" و"تعصب الشرق"، وبالتالي ضرورة رسالة أوروبا الحضارية له التي عرفت بـ"عبء الرجل الأبيض." كذلك تم نشر ثقافة ولغة الدولة الاستعمارية في المستعمرات المحتلة كنوع من الصبغة النرجسية القومية من جهة، ولتسهيل مهمتها في التعامل مع السكان الأصليين، بحيث تطّعم الاستعمار بصفة "الرسالة الأخلاقية" و"القداسة."

ومن هنا نستطيع أن نستنبط دورة حياة النموذج الاستعماري، حيث يبدأ بغزو ثقافي مهد له الاستشراق عبر نصوص قسمت العالم إلى شرق" متوحش" و"غير إنساني" وإلى غرب" مقدس ومركزي"، ومن ثم تم إيفاد الكشوف الجغرافية والبعثات الدينية والطبية لاستكشاف المكان ودراسته، ومن ثم إرسال بعثات عسكرية بوسائل سياسية وغير سياسية كما أسلفنا، ليتم تحقيق الحالة الأولى. بعد ذلك، تؤسس مستعمرات بالقرب من المناطق الغنية بالموارد الأولية التي تحرسها القوات العسكرية، ومن بعدها تبنى المستوطنات بعد أن يتم ترحيل السكان أو تصادر أراضيهم، حيث يتم على إثر ذلك الفصل بين السكان على أساس العرق، وتصبح العلاقة مع السكان علاقة سادة وعبيد مثل النظام الإقطاعي، وفي حالات مقاومة هذا الغزو من قبل السكان الأصليين كان النظام الاستعماري يفرض العقوبات بالموت والمجازر على البعض وترحيل من تبقى. وبعد أن

[4] سعيد، الاستشراق، مصدر سبق ذكره، ص100

[5] لازار، برنار.2004. مناهضة السامية تاريخا وأسبابها.ترجمة ماري شهرستان. دمشق.دار الأوائل للنشر والتوزيع. ص 169

[6] أنظر أيضا إلى سعيد، الاستشراق، مصدر سبق ذكره، ص150

يتم التحرر باستخدام الكفاح المسلح أو المقاومة السلمية، يرحل هذا المستعمر مخلفاً وراءه تركة استعمارية ثقيلة ممثلة بالحالة ما بعد-الاستعمارية التي تشهد تبعية اقتصادية وثقافية وسياسية للدولة المستعمرة، بحيث لم تكتف هذه الدول بالاستعمار لقرون أو لسنوات، بل أسست نظاماً يضمن لها التبعية المستقبلية.

أما بالنسبة لما أدت إليه هذه المشاريع الاستعمارية، فكان من نتائجها: التقسيم الجغرافي، والتبعية إلى الغرب التي مازالت إلى اليوم، والهجرة إلى الدول الاستعمارية والتي اقتطعت جزءاً من الشعوب الأصلية لتكوّن مجتمعات داخل المجتمعات الاستعمارية، من خلال موجات الهجرة واللجوء الاقتصادية والسياسية، التي تعيش بها بعيدة وغريبة عن أصولها الإفريقية أو الأسيوية أو العربية. وكذلك، فقد أدت حركة الاستعمار الى تدمير جزء مهم من الإرث التاريخي والديني والثقافي لهذه الشعوب، أو إعاقته وتشويهه إن لم تكن الإبادة التامة أو شبه التامة لهذه الشعوب قد حصلت كما هو الحال مع الهنود الحمر. وقد قامت الحركات الاستعمارية بعد ذلك بإعادة إنتاج هذه المجتمعات ضمن منظومة استعمارية قائمة على أساس التجزئة لتبقى الشعوب التي جرى استعمارها بعد الاستقلال تابعة للمركز تحت عنوان دول ما بعد استعمارية تم قبل الانسحاب منها بخلق نخب لها مصالح مع الغرب تستخدمهم في تنفيذ مأربها،[7] وخلق نقاط احتكاك وتوتر دائمين بين الشعوب المستعمَرة. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك سياسة الفرنسة التي حوّلت سكان المستعمرات إلى أدوات استعمارية يخدمون في الجيش وحفظ أمن المستعمرات، وحتى في قمع أبناء جلدتهم، تحت مطرقة سياسية الإدماج، طوعاً أو قصراً حيث لا خيار أمام الشعوب الخاضعة للحكم الفرنسي مثلاً إلا أن تصبح فرنسية لتتخلى عن تخلفها ولتلحق "بنور فرنسا البلد الأم." وقد أدى مجمل ذلك إلى استمرار عملية التغلغل في فضاءات السكان المحليين، ونشوء ما تاريخين لهويتين دخيلتين على تلك الشعوب: الهوية الاستعمارية، ومن بعدها الهوية مابعد الاستعمارية.[8]

---

[7] Samman, Ghada. 2006. **Frantz Fanon: Dualism and Colonialism South Africa as a Case Study**. Bir Zeit : Bir Zeit University,p19

[8] انظر إلى Fanon, Frantz. 1963. **The Wretched of the Earth**. New York: Grove Press.
Fanon, Frantz. 1967. Black Skin, White Masks. New York. : Grove Press

ولكن ما يهم من هذه المعالجة هو الترابط في البنى ما بين الحركة الاستعمارية والحركة الصهيونية، التي سبق الحديث عن ماهيتها في الفصل الأول؛ سواء من حيث المبررات والأدوات المستخدمة والنتائج، وبالتالي الوصول إلى التمييز بين أنواع الاستعمار التي عرفها العالم وبين نموذج الاستعمار الصهيوني، حيث يوجد بين هذه الحركات ثالوث مقدس مشترك، قوامه: البنى الاستعمارية الاستشراقية، وتوظيف الدين في الغزو، والتغلغل في فضاء السكان لخلق هوية تابعة. ومن هنا تأتي ضرورة البحث في علاقة الحركة الاستعمارية الأوروبية بالحركة الصهيونية، وكيف تم التلاقي حول المصالح الاستعمارية تجاه فلسطين، إذ من المهم ذكر الموقع الاستراتيجي الذي تحتله فلسطين لكونها تربط قارة آسيا وأفريقيا، ومطلة على البحر المتوسط، ولها مكانة دينية للأديان السماوية الثلاث، وتعتبر ممراً إلى جزر الهند الشرقية بدلاً من الالتفاف إلى رأس الرجاء الصالح. ولذا، فقد حظيت فلسطين بأهمية خاصة بعد الاحتلال الإنجليزي للهند، وما زاد من التنبه إلى أهميتها، كذلك، حملة نابليون إلى الشرق في العام 1799 وهو توتر حاسم في تاريخ المنطقة.

2.3 سيكولوجيا الاستعمار

قبل الحديث عن حركات المقاومة والأهداف التي قامت من أجلها، لا بد من رسم صورة عن الأوضاع التي عاشتها بعض البلدان في حالة الاستعمار، حيث تشابهت في العادة أدوات المستعمر وأشكال حكمه في أكثر البلدان. فقد تمثل ذلك بعدة أنماط، منها: الحكم العسكري المباشر الذي ميزه قواعد عسكرية، وحواجز، وجنود متطوعون من الدول المستعمِرة؛ واستعمار ثقافي ميزه محاربة اللغة والدين والمؤسسات الثقافية العامة؛ واستعمار اقتصادي ميزه وجود أسواق، وأيد عاملة رخيصة، وسيطرة على المواد الخام والموارد والأراضي الزراعية؛ واستعمار سياسي ميزه نخب فاسدة، وسلطة شكلية عميلة للاستعمار، ومعاهدات تضمن استمرار ولاء تلك النخب للاستعمار المنسحب. ويذهب البعض في تفسير ذلك إلى دور مهم تلعبه النخب في تسهيل مهمة المستعمر، حيث ينقل إدوارد سعيد عن رونالد روبنسون القول أنه "يتوجب على أية نظرية جديدة الإقرار بأن الامبريالية كانت وظيفة لتعاون أو عدم تعاون ضحاياها، أي لسياستهم الأهلية مثلما كانت وظيفة للتوسع الأوروبي وكذلك الإقرار بأنه لولا التعاون الطوعي أو القسري الذي أبدته النخب الحاكمة، والتعاون الأهلي حين أزف أوانه، لما تمكن الأوروبيون من غزو وحكم إمبراطوريتهم غير الأوروبية، لقد جوبه ذلك الحكم بالمقاومة منذ الوهلة الأولى واقتضت الحاجة استمرار وجود التوسط البلدي لتفادي المقاومة أو كبح

جماحها."[9] ويستمر سعيد بعرض أمثلة مثل قيام باشوات مصر قبل عام 1882 بالتعاون مع الخديوي للسماح بالاختراق الأوروبي، وهذه ظاهرة تحدث عنها ميكافيلي في كتابه الأمير عندما تحدث عن "الذين يصلون إلى الإمارة عن طريق النذالة."[10] ولعل العراق وفلسطين اليوم أكبر مثال على ذلك، بحيث يربط المستعمر السكان بعلاقة زبائنية بحيث يصبح لهم فائدة في استمرار وجود الشرط الاستعماري، وهو أمر يحيد بالعادة بعض النخب من القيام بتغيرات جذرية.

من ناحية أخرى، وبعد أن يتم تحييد النخب من خلال التدمير أو الاستمالة، يفرض الاستعمار رقابة مشددة على المؤسسات الفاعلة في المجتمع، مثل المؤسسات التعليمية والدينية والتاريخية هذا إذا لم يغلقها، ويهاجم تراث ولغة وثقافة هذا المجتمع بطريقة إستشراقية لكي يخضع هذا المجتمع لأجندته ولثقافته من خلال ضرب وتفكيك البنى التي تجعل من هذا المجتمع متماسكاً. وعلى ذلك يعلق باولو فيريري بمقولات تشبه مقولات ابن خلدون في تبعية المغلوب وفتنة المنتصر: "من أجل أن ينجح الغزو الثقافي لا بد لمن تم غزوهم أن يقتنعوا بتدني مكانتهم من حيث الجوهر، وبما أن لكل شيء نقيضه وما دام من تم غزوهم يعتبرون أنفسهم أحط مكانة فإنهم يعترفون بالتالي، برفعة مكانة الغزاة ومن ثم تصبح قيم الآخرين أي الغزاة النموذج بالنسبة لهم، وكلما ازداد تعميق الغزو وأصبح من تم غزوهم أكثر اغتربًا عن روحية ثقافتهم وعن ذاتهم؛ كلما ازدادت رغبتهم في أن يكونوا مثل الغزاة يسيرون مثلهم يلبسون مثلهم ويتكلمون مثلهم."[11] وعليه، يصبح الواقع تحت الاحتلال يشعر بالاغتراب والخجل تجاه لغته وماضيه وثقافته، الأمر الذي يؤدي بهؤلاء، وخصوصاً بعض النخب، إلى الارتماء في أحضان المستعمر والانبهار بثقافته كنوع من التعويض الدفاعي، أو ليلبس القناع الأبيض حسب تعبير فرانز فانون.[12]

---

[9] سعيد، إدوارد. 1993. الثقافة والامبريالية.ترجمة كمال ابو ديب.بيروت: دار الآداب، ص318

[10] سعد،فاروق.1999. تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده.ط23. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ص96

[11] فيريري،باولو.2003. نظرات في تربية المعذبين في الأرض.ترجمة مازن الحسيني.رام الله: دار التنوير للنشر والترجمة، ص 141. وأنظر، كذلك: ابن خلدون. المقدمة....

[12] .Fanon, Frantz. .1968. Black Skin, White Masks.7th Edition .New York.

هنا، يشعر المحتلون عند نقطة معينة بجاذبية لا تقاوم تجاه المستعمرين وطريقة حياتهم، فالمستعمَرين يريدون بأي ثمن، في حالة اغترابهم كما يقول فيريري، أن يشبهوا مضطهديهم وأن يقلدوهم ويتبعوهم خصوصاً لدى الطبقة الوسطى الذين يتحرقون لأن يصبحوا أندادا للأشخاص رفيعي الشأن من الطبقة العليا.[13] وهذه الظاهرة تحدث عنها ابن خلدون من قبل عندما أشار إلى فتنة المنتصر وكيف أن المغلوب يحاول دائماً أن يتماهى مع المنتصر "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغالب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها صار اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به."[14] وعلى صعيد آخر، توجد هناك حالة من الحرب تستهدف النخب الوطنية المقابلة الموجودة في المستعمرات التي ترفض ازدواجية النخب وسلطة المستعمِر، تتمثل في العادة برجال الدين، ورجال العلم، والأدباء والشعراء، والتجار وأصحاب رؤوس الأموال، والزعامات المحلية، والنقابات العمالية، العمال. هذه الفئات تعامل معها المستمر بقمع شديد من خلال حالات النفي والإعدام أو السجن أو حتى الرشوة كما حدث مع الأمير عبد القادر الجزائري، بعد أن نفته فرنسا حيث كان يأخذ مرتبه من السلطات الفرنسية.

هذا، ويتبنى المستعمر سياسات في داخل المستعمرة تؤدي في العادة إلى إفقار السكان وإلى جعلهم معتمـــدين بشكل أساسي على المركز الاستعماري، خصوصاً من حيث المنتجات والسلع الأساسية، فيؤسس اقتصاداً تابعاً له أو يلحقه به ليكّمل احتياجات السوق الاستعماري، وليوفر له الأيدي العاملة الرخيصة والأسواق، ويمـــارس كذلك سياسة فصل بين السكان حسب المناطق أو الأعراق أو الدين، بحيث يستخدم الأقليات كأدوات في نحر جسد المجتمع الواحد، يمارس من خلالها سياسة فرّق تسد الكلاسيكية بحيث تعطى امتيازات لمنـــاطق علـــى حساب أخرى، بحيث تكون هذه الامتيازات مرتبطة بحفظ الهدوء والنظام. وكذلك يقوم المـــستعمر بإعطـــاء بعض الأقليات امتيازات على حساب الأكثرية، الأمر الذي يؤسس لصراعات مستقبلية أثناء أو بعـــد رحيـــل الاستعمار ضمن منظومة التدمير الذاتي للشعوب الواقعة تحته. كما يرافق ذلك سلب بعض مظـــاهر الثقافـــة

---

[13] نفس المرجع السابق، ص38

[14] ابن خلدون،عبد الرحمن. 2004 المقدمة. تحقيق حامد احمد الطاهر.ط1. القاهرة: دار الفجر للتراث، ص192.

الفوقية وإعادة إنتاجها لتصبح سلعة في المستوطنات كالطعام والملابس والموسيقى وتغيير الأسماء وترجمتها، مثلاً ما قامت به بريطانيا في الهند في مجال القطن والحرير، أو ما تم في الولايات المتحدة وكندا حيث أطلقت بعض التسميات المقتبسة من التراث الهندي على بعض المقاطعات، أو ما تقوم به إسرائيل حالياً من تغيير أسماء وانتحال ثقافة فلسطين والفلسطينيين.

تخدم السياسات التي يفرضها المستعمِر المركز الاستعماري، بينما تؤدي مجمل هذه السياسات إلى حالة من الظلم الاجتماعي (National Opression) التي تحدث عنها فانون،[15] حيث ينتشر الفقر والجوع والبطالة في أوساط المحتلين، بينما يعيش المستوطنون والمنتفعون من المشروع الاستعماري في حالة معاكسة من الرفاه ورغد العيش، لدرجة تمقت هؤلاء. وهنا يبرز تفسير آخر لفكرة الحقد الطبقي الذي تحدث عنه ماركس كدافع لحركات التحرر، بينما تسعى عامة الشعب بالعادة إلى التبرير وإلى محاولة التأقلم مع الأوضاع الجديدة التي يفرضها المستعمر، أو من إظهار عجز الإرادة. وهنا يقول باولو فيريري "إن المضطهدين الذين تكيفوا مع بنية السيطرة التي غرقوا فيها واستسلموا لها، حيث سيتحرجون من خوض القتال من أجل الحرية ما داموا يشعرون بعدم القدرة على الإقدام على المخاطرة التي يتطلبها النضال. إضافة إلى ذلك، فإن نضالهم من أجل الحرية لا يهدد المضطهدين فقط بل أيضا رفاقهم الذين يخافون من وقوع اضطهاد أشد".[16] وفي هذه الحالة تتشكل أنماط لدى السكان المحلين خصوصاً عند النخب المضادة التي تبرز بقوة، وتأخذ شرعية أكثر، حيث ترغب هذه النخب في تغيير الأوضاع، خصوصاً لدى حدوث أعمال عنف أو قمع أو حوادث مهمة من قبل المستعمر أو لدى تضرر مصالح شريحة من السكان. لكن هذه التوجهات المقاومة تبقى عفوية ومتضاربة من قبل السكان، وتبقى دفينة كونها مرتبطة بالخوف من الحرية حسب مقولة من يفضلون شرور الفرعون التي يعرفونها على الحرية التي يقودهم إليها موسى. وفي هذه الحالة، يعاني المستعمَرون من ازدواجية تقبع في داخلهم "فهم يكتشفون أنهم لا يستطيعون العيش بشكل حقيقي بدون حرية، ومع ذلك يخافونها رغم رغبتهم في الوجود الحقيقي أنهم يجمعون في الوقت ذاته بين أنفسهم والمضطهد الذين استلهموا وعيه والصراع يكمن في الاختيار بين أن يكونوا أنفسهم كلية أو أن يكونوا منقسمين مجزأين، بين أن يلفظوا المضطهد القابع في داخلهم

[15] Fanon, Frantz. 1963. **The Wretched of the Earth**. New York: Grove Press

[16] فيريري، مصدر سبق ذكره، ص20.

أو ألا يلفظوه، بين التضامن الإنساني والاغتراب، بين إتباع الأوامر والايعازات أو التمتع بالاختيار، بين أن يكونوا متفرجين أو أن يكونوا لاعبين... مشلولة قدرتهم على الخلق وإعادة الخلق مخصيه قدرتهم على تغيير العالم."[17]

تؤدي هذه الحالة من التناقضات داخل الحالة الاستعمارية إلى بروز نوعين من الثنائيات[18] لدى النخب المحلية سواءً المتعاونة أم المعارضة، حسب فانون وهي الثنائية الثقافية Cultural Dualism[19] وثنائية الحرمان Deprivation Dualism[20]. لذا، تلعب هذه الثنائيات دوراً مهماً في استقرار المشروع الاستعماري، حيث يؤدي تكريسها إلى استمرار نفوذ المستعمِر ودعمه من قبل الفئات الواقعة تحت الاحتلال، بينما عندما يحصل تحالف بين النخب المحلية في العادة يؤدي ذلك إلى ضعضعة المشروع الاستعماري، ويعزز من قوة حركة التحرر الوطنية. وهنا، لا يمكن الحديث عن أن حركات التغيير كانت دائماً مقترنة بالنخب، بل أن هناك دوراً مهماً للشرائح الاجتماعية الأخرى خصوصاً الفلاحين والعمال حيث أثبتت التجربة التاريخية أن هاتين الشريحتين لعبتا دوراً مهما في حركات التحرر والتغيير، خصوصاً بعد أن أصبح المشروع الاستعماري يتضارب مع مصالحهم. لذا يحرص المستعمر في العادة إلى احتواء هذه الشرائح من خلال علاقات زبائنية، وهذا يفسر لماذا يشكل المستعمر طبقة برجوازية خاصة به مع طبقة أخرى أو كومبرادورية من النخب. وعليه، نرى أن عامل نجاح كثير من حركات التحرر كان بسبب التوحد أو التحالف الذي حدث ما بين النخب الوطنية والشرائح نحو قيادة واحدة وهدف واحد، أو بسبب توحيد الجماهير "بالقوة" نحو نخبة وقيادة وطنية بعد أن يتم تطهير المجتمع من المتعاونين وأعوان المستعمر، أو التفاف الجماهير نحو النخبة المقاومة كما في حالتي الجزائر وفيتنام.

---

[17] نفس المرجع السابق، ص21.

[18] المقصود بالثنائية هنا، هو وجود سمات او اتجاهات معرفية مزدوجة و متناقضة في نفس الجسم، حول موضوع واحد، تؤدي هذه الحالة إلى تناقض ما بين الفكر والسلوك، وهذه تكون نتيجة لمعضلة معينة أو صراع فكري.

[19] الثنائية الثقافية حسب فانون هي تداخل الثقافة الأوربية الغربية مع الثقافة الأصلية، بحيث تطغى على الثقافة المحلية وتكون هي المعيار.

[20] ثنائية الحرمان حسب فانون هي رغبة من النخبة المحتلة في أن تزيل الاحتلال والشرط الكولونيالي ولكن مع وجود رغبة باستبدال المحتل لتكون مكانه

تؤدي هذه الحالة من الثنائيات إلى بروز نوع من العنف الداخلي يعبر عنه بالنكات والمزاح والأمثال الشعبية والشتائم وبعض المظاهر العنصرية التي يكون مصدرها كذلك المجتمع والتربية السلطوية التي يعززها المستعمِر، بالإضافة إلى الأداة الأساسية للتعبير عن ذلك "العنف" وهو ما سمّاه باولو فيريري "العنف الأفقي"، إذ يوجهون ضرباتهم إلى رفاقهم لأتفه الأسباب. يقول فيريري: "سيعبر الشخص المستعمر أولا عن هذه العدوانية التي استقرت في عظامه ضد أبناء جلدته، هذه هي المرحلة التي يأخذ الزنوج فيها بضرب بعضهم البعض، ولا تعرف الشرطة والقضاة أية وجهة يتجهون عندما تواجههم موجات الجريمة المذهلة في شمال إفريقيا... فبينما يتمتع المستوطن أو الشرطي طيلة اليوم بحق ضرب المواطن الأصلي وتوجيه الشتائم له وحمله على الزحف، ترى المواطن الأصلي يستل سكينه عند مواجهة أبسط نظرة عدائية من شخص مثله، وذلك لأن الملاذ الأخير للمواطن الأصلي هو الدفاع عن شخصيته أمام أخيه...فعندما يهاجمون رفاقهم يقومون بمهاجمة المضطهد بطريق غير مباشر."[21] وبهذا الصدد، يوجد جدل مرتبط بنظرية العقاب أولاً، وبفكرة الندب النرجسي ثانياً لدى الأشخاص، فالعوامل الشخصية ذات البعد النرجسي تأخذ دوراً أكبر في التفاعل مع الأحداث بشكل مباشر حتى في حركات التحرر، بينما يكون اللاشعور هو العامل الأكبر في تهييج الجماهير أو في ضبطها كما سنرى لاحقاً عند الحديث عن سيكولوجيا الجماهير.

نلاحظ مما سبق أن النخب والجماهير الوطنية تبقى عاجزة عن التحرك وأسيرة في حالة من السلبية بسبب سياسات المستعمر، وبسبب العلاقات الزبائنية التي ربطها المستعمر بالسكان، والتأزم الداخلي من ثنائيات ومشاكل داخلية وفرقة وعدم وجود قيادة موحدة، وعدم وجود دعم خارجي. وهذه العوامل سيتم معالجتها في مرحلة التحرر التي تتلو الخروج المادي للاستعمار رغم بقاء "وسطائه" و"وكلائه."

[21] فيريري، مصدر سبق ذكره، ص38.

2.4 سيكولوجيا التحرير

هناك عدة مدارس تفسر ظهور حركات التحرر وكيفية عملها منها المدرسة العنفية أو "نموذج فانون" والمدرسة اللاعنفية أو "نموذج غاندي"، والتي سيتم الحديث عنها بالتفصيل في الفصول التالية. لكن هناك أيضاً عدة مدارس أخرى تفسر سلوك الجماعات في حالة التحرر. وهنا، قد يتساءل البعض لماذا يتم تناول العوامل النفسية كجزء أساسي في دراسة حركات التحرر، أو لماذا يتم التركيز عليها، بدل التركيز على الأفكار والايدولوجيا المحركة لهذه الجماهير؟ تكمن الإجابة في أنه يوجد رأي يؤكد على أهمية العوامل النفسية، مع عدم إغفال العوامل الأخرى المحركة للجماهير كالعوامل الدينية والايدولوجيا، حيث أن فهم الجماهير للماركسية يختلف عن فهم لينين لها، لذا فعندما قاد لينين الثورة البلشفية عام 1917، بالتأكيد لم يستخدم حرفياً مقولات كارل ماركس حول النقد ورأس المال ليقنع الجماهير بمهاجمة قصر القيصر، بل بالتأكيد استخدم مثل غيره من القيادات عوامل وأدوات أخرى فعالة في تحريك هذه الجماهير وتحريضها، وهذا ما يهم الدراسة. أي إن الحديث هنا لا يقتصر على الايدولوجيا أو المبررات الفلسفية وراء تحرك ثورات معينة، بل يتناول، كذلك، الديناميكية التي جعلتهم يتحركون ويغيرون واقعهم، والبنى التي استخدمتها وتستخدمها بعض الحركات في تشكيل وعي الجمهور، وسلوكه وبالتالي توجيهه نحو تحقيق بعض الأهداف.

ولكن قبل الخوض في ذلك لا بد من توضيح معنى جمهور وتوضيح الفرق بين أنواع الجماهير، حيث أن كلمة جمهور تفيد، في معناها العادي، تجمعاً لمجموعة لا على التعيين من الأفراد، أياً تكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأياً تكن المصادفة التي جمعتهم، أو مجموعة من الأشخاص الموجودون في مكان محدد. وهنا يشار إلى نوعين من الجماهير:[22] جماهير غير متجانسة، وهي نوعان: الأول أسماه غوستاف لوبون بالجماهير المغفلة كجماهير الشارع، والنوع الثاني جماهير غير مغفلة كهيئات المحلفين والمجالس البرلمانية والأحزاب؛ والآخر جماهير متجانسة، وهي ثلاثة أنواع: الأول الطوائف الدينية والسياسية والمناطقية، والنوع الثاني الزمر وقد تكون من الزمر العسكرية والكهنوتية والزمر العمالية، والثالث هو الطبقات سواء أكانت برجوازية أم عمالية.

---

[22] لوبون، مصدر سبق ذكره، ص158.

هنا، يسود نمط مشترك بين هذه المجموعات المختلفة من الجماهير وهو ذوبان الفرد فيها بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، حيث "يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جداً عن خصائص كل فرد يشكله، فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، وعندئذ تتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة بدون شك، ولكنها تتمتع بخصائص محددة ومتبلورة تماماً... تصبح جمهوراً نفسياً سيكولوجياً. إنها تشكل عندئذ كينونة واحدة وتصبح خاضعة لقانون الوحدة العقلية للجماهير."[23] وعليه، فقد يجتمع العديد من الناس في مكان محدد عن طريق المصادفة ودون هدف واضح، وهذا بالتالي لا يجعلهم يشكلون جمهوراً منظماً. ولذا فالمعيار هنا هو وجود هدف لهذا التجمع أو الجمهور، تماماً مثل نفس المعيار الذي اتخذه ماركس في الحديث عن الطبقات حيث اشترط ذلك بوجود وعي لدى هذه الطبقة بأنها طبقة لذاتها، وهو ما سماه بالوعي الطبقي.

ولذا، فإن عملية دراسة الجمهور مهمة للسياسيين ولحركات التحرر على حد سواء، كونها سلاح ذو حدين في وجه أي متطلبات قد تقتضيها الظروف الدولية. فهناك ادعاء بأن اللاوعي يسيطر على الجماهير ما يذيب من بعض عمليات التفكير والمحاكمات المنطقية في بعض الأحيان، فيصبح سلوك الأفراد تماماً مثل سلوك الجماعة وكأنها حالة من التنويم المغناطيسي. ومن ناحية ثانية، يتحول سلوك المجموعة إلى سلوك موحد وكأن العملية عكسية حيث تندمج الجماهير بعضها في البعض الآخر وكأنها جسد وعقل واحد، بينما تلجأ بعض الحركات المضادة لتفريقها ولكسر توحدها لتعود إلى نسقها الأول خصوصاً في حالات القمع والاستعمار، بحيث يسهل التعامل معها. وقد يبرر هذا لماذا تستخدم بعض الحركات الاستعمارية فكرة التجزئة والتقسيم. ومن ناحية ثالثة، هناك رأي سائد بأن اللاوعي أو اللاشعور هو الذي يحرك الجماهير، حيث تذوب الخصوصيات الفردية والذوات لحساب المجموع كما في الكثير من المسيرات والأعمال المشتركة. ولا شك بأن هذا النوع من السلوك يجعل الأفراد يتصرفون بناءً على توجيهات محددة قد توجهها الجماهير نفسها بطرق غير مباشرة أو قد يكون هناك نمط معين من الأفراد يوجهون هذه الجماهير حسب الأجندة الموضوعة

---

[23] المصدر السابق، ص53.

لهم. ومن هنا، تمحى الفروق الفردية والسمات الشخصية لحساب المجموع في ذلك الموقف، وقد ينطبق على وصف هذا السلوك بالتضامن الآلي بين هذه المجموعات.

أما بالنسبة للعقل الجمعي المكون لهذه المجموعة أو تلك فالعملية أعقد، إذ تتداخل فها عوامل كالذاكرة الجماعية، والنرجسيات الجماعية، حيث "هناك أسباب عديدة تتحكم بظهور الصفات الخاصة بالجماهير وأولها هو أن الفرد المنطوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع فقط شعوراً عارماً بالقوة، وهذا ما يتيح له الانصياع إلى بعض الغرائز، ولولا هذا الشعور لما انصاع، وهو ينصاع لها عن طوع واختيار لأن الجمهور مغفل بطبيعته وبالتالي فهو غير مسؤول، وبما أن الحس بالمسؤولية هو الذي يردع الأفراد، فإنه يختفي في مثل هذه الحالة كلياً. وأما السبب الثاني فهو العدوى العقلية أو الذهنية فهي تتدخل أيضا لكي ترصد لدى الجماهير تجليات الصفات الخاصة، ثم لكي توجهها في نفس الوقت، والعدوى ظاهرة تسهل ملاحظتها لكنها غير مفسرة إلى الآن... فلدى الجمهور نجد أن كل عاطفة وكل فعل هما معديان إلى حد أن الفرد يضحي بسهولة كبيرة بمصلحته الشخصية من أجل المصلحة الجماعية، وهذه قابلية معاكسة لطبيعته... وهناك سبب ثالث أكثر أهمية وحسماً بكثير لأنه يوجد في الأفراد المنخرطين في الجمهور صفات خصوصية تكون أحيانا معاكسة لصفات الفرد مأخوذاً على حدة."[24] ومن هنا، يمكن فهم الآلية الأولية في تحريك الجماهير، حيث أن الدعامة الأساسية تكمن في تحريك مشاعرها وعواطفها تجاه هدف معين، حيث تتسم الجماهير بسرعة انفعالها وعفويتها، وتتحول في سلوكها إلى الشكل البدائي، بحيث تصبح العملية مشابهة لعملية الاشتراط الكلاسيكي التي تحدث عنها بافلوف[25]، بحيث تصبح حركتها مقترنة بالمؤثر الذي تتعرض له. فمثلاً قد تبدأ الجماهير بالهتاف والصراخ والوقوف من أماكنها في حال أحرزت إحدى الفرق هدفاً في مرمى الفريق الآخر، بينما توجد نظرية تعلم لدى الطرف الآخر من الجمهور يأخذ ردة فعل عكسية كالانفعال أو الغضب. وهنا تصبح المحاكمات العقلية سطحية وبسيطة جداً ومرتبطة بالمثير الذي تعرضت له. ولذا، فإن سرعة انفعال الجماهير والشعور بالقوة المصاحب لكون الأفراد في مجموعة معينة تجعل البعض يتصرفون بطريقة لا يقومون بها في حالة الأفراد، يتكون نوع من الهوية الجديدة لهؤلاء الأفراد منبثقة من الانتماء إلى هذه المجموعة.

---

[24] نفس المصدر السابق، ص58.

[25] عالم نفس روسي، صاحب نظرية الاشتراط الكلاسيكي

لعل هذا يبرر الحماسة التي يبديها البعض في الانتماء إلى قومية أو عرق ما، بحيث يستمد قوته ونرجسيته وخصوصيته من هذه المجموعة أو الطائفة، وبالتالي يصبح ممثلاً لها ويتصرف ويفكر بطريقة لا واعية كما يتصرف ويفكر أفراد هذه الطائفة أو المجموعة، بينما في حالته الفردية وعقله الخاص قد يعارض بعض السلوكيات والتصرفات التي تقوم بها مجموعته أو جمهوره، بينما عندما يكون معها تنقلب الأية. ولعل هذا ما قد يفسر ازدواجية المعايير لدى بعض الجماهير المقابلة خصوصاً في حالة الشرط الاستعماري، حيث ترى المستوطنين متوغلين في فضاء السكان الأصليين وموغلين في العلاقة معهم، إذ "في نهاية الأسبوع يخرج في نزهة مع باقي أفراد عائلته باتجاه الأحياء الجنوبية القريبة أو القرية العربية إن أتاح الوضع الأمني ليمارس ذاته من خلال المطاعم الشرقية والتي تتمتع بطابع إكزوتي غير مهدد بل معد لاستخدامه هو بالذات وأفراد عائلته، عند عودته من رحلته الاستشراقية القصيرة ومعدته المتخمة بالآخر... في اللحظة المهمة رن التلفون معلناً الحرب الجديدة القديمة بدعوته إلى الواجب القومي، الخدمة العسكرية."[26]

هذا، ويلاحظ سرعة تأثر الجماهير إلى درجة سذاجتها في بعض الأحيان وتصديقها لأي شيء يعرض عليها، حيث يتحول المجموع إلى جسد ميكانيكي كما سبق الحديث يتحرك بناءً على المؤثر وشدته والطريقة التي يصل بها هذا المؤثر. ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من السلوكيات الاجتماعية، كالصلوات والمسرح والمحاضرات العامة والخطب الدينية في أيام الأحد أو الجمعة أو السبت، حيث يعبث المرشد الديني أو الممثل على المسرح بعقول وعواطف الجماهير من خلال استخدام القصص، وبتغيير نبرة الصوت والأداء المسرحي والتقلب بالحركات، والتواصل بلغة الجسد، بحيث يمرر ما يريد تمريره دون أية مقاومة تذكر بالعادة، بينما قد يغضب الجمهور في حال تعرض لقضايا حساسة تمسه بشكل مباشر أو مواضيع قد تغضبه، خصوصاً عندما يتعرض لرموز نرجسية متأصلة ومركبة لهويته العرقية أو القومية مثلاً، كالشخصيات المحببة أو التاريخية أو الدينية، أو لعقائد معينة تخصه.

[26] الناشف، مصدر سبق ذكره، ص55.

كما قد يحدث العكس تماماً عندما يتم التعرض لرموز تعزز من هذه النرجسيات مثل الحديث عن فضائل زعيم معين بطرق غير مباشرة أمام جمهور موال لهذا الزعيم، أو توظيف أحداث معينة من حقب تاريخية كالأساطير الدينية والتاريخية مثلاً، والتي كثيراً ما تم استخدامها في هكذا مواقف خصوصاً من قبل بعض الحركات التحررية. وبالتالي، فإن "خلق الأساطير التي تنتشر بمثل هذه السهولة في أوساط الجماهير ليس فقط ناتجاً عن سرعة كاملة في التصديق، وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيلة الأفراد المحتشدين أي "الجمهور" فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه بمجرد أن يراه الجمهور، فالجمهور يفكر عن طريق الصور، والصور المتشكلة في ذهنه تثير بدورها سلسلة من الصور الأخرى دون أية علاقة منطقية مع الأولى، ويمكننا أن نتصور بسهولة هذه الحالة عن طريق التفكير بالتتابع الغريب للأفكار الذي يقودنا إليه تذكر حدث معين."[27]

وكذلك فإن هذه العواطف والمشاعر يمكن تضخيمها وتبسيطها حسب شدة المؤثرات ودرجة تعزيزها، فقد يصبح حادث معين قضية رأي عام في وعي الجماهير، مثل قصة وقوع باريس هيلتون عن حصان، بينما قد يكون في ذلك اليوم ذاته قد قتل المئات من الناس في محاولات طلبهم للعيش في منجم في الصين أو غرقاً في قوارب الهجرة وما ثمة من ذكر لموتهم. وهذا يوضح السهولة التي يتم فيها التلاعب بعواطف وعقول الجماهير ويضحد فكرة "الرأي العام" الذي كثيراً ما تتم المراهنة عليه خصوصاً من قبل الحركات اللاعنفية.

وإضافة إلى ذلك، تتسم هذه الجماهير بنوع من التعصب في بعض التحركات بطريقة تجعل أمر مخالفة رغبة الجماهير خطيئة تستحق العقاب. كما تؤدي هذه العصبية بالفرد أن يصبح مستعداً لأن يضحي بنفسه من أجل المجموع، أو يرتكب جريمة قتل في سبيل هذا الهدف أو ذاك. وهذه نقطة محورية في التحليل، حيث تحدث من قبل عنها ابن خلدون عندما تناول فكرة العصبية والعوامل المشكلة لها والهدف الذي تسعى إليه،**[28]**كما حللها باقتدار كارل شميت في حديثه عن المواطنة والوطنية والإغواء بالقتل أو الموت باسم الأمة،[29] وحلل

---

[27] لوبون، ، مصدر سبق ذكره، ص55.

[28] انظر إلى ابن خلدون،عبد الرحمن.2004. المقدمة. تحقيق حامد احمد الطاهر.ط1. القاهرة: دار الفجر للتراث، ص171، ص183

[29] لمزيد من التفصيلات، أنظر:

Carl Schmitt. *The Concept of the Political*. Chicago: University of Chicago Press, 1996.

غيره دورها وعلاقتها في تشكيل الجمهور وتحريكه، حتى أن ابن خلدون ركز على أهمية هذا العامل في نجاح أية أفكار أو دعوات، فقال بأن الملك والدول عامة إنما تحصل بالقبيل والعصبية، وقال بأن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم.[30] كما تحدث ابن خلدون عن الكيفية التي يتم فيها توظيف العصبية في تحقيق الأهداف بينما في حال أستتب الأمر لهذه الدولة أو تلك فإنها تستغني عن العصبية.

أما عن أخلاقية الجماهير،[31] فهي مزدوجة ومتطرفة وسهلة التبدل حسب الظروف، فيمكن أن يسود هذه الجماهير أخلاقيات معينة كالتفاني والإخلاص والانتظام وحسن المعاملة والتضحية بالذات والانتظام والانضباط وعدم السرقة، في حين تمارس أبشع أنواع القتل والقمع والسرقة في حق مجموعات أخرى مقابلة أو منافسة لها. ولا شك أن هذه السمة موجودة بوضوح عند الجيوش أو العصابات أو الفرق الرياضية. إلا إن هذه الازدواجية قد تنقلب على نفس المجموعة بفعل ظروف معينة، وهذه النقطة هي حجة المدرسة اللاعنفية في ترابط الغايات والوسائل، حيث كثيراً ما كان أفراد نفس المنظمة أو الحزب يقاتلون جنباً إلى جنب وفي نفس الخندق، ومن ثم تحولوا مع الوقت إلى خصوم يرددون نفس شعارات وأدوات القتل التي كانوا يرددونها تجاه خصومهم. وهنا "الأخلاقية" تعني الاحترام الحقيقي لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية ثم القمع الدائم للنزوات التدميرية.

ومن هذا كله، يمكن الاستنتاج بأن الجماهير لا تربطها أخلاقية محددة، بل هي مزدوجة المعايير وقد تنقلب في أية لحظة على محركيها، هذه المشاهد تكررت كثيراً خصوصاً في تجارب بعض الزعماء كروبيسبير وهتلر وموسوليني، حيث الهتاف والتصفيق الذي سرعان ما يتبدل إلى شتم وتشفي بعد سقوط الأنظمة. ولعل تفسير ذلك يكمن في أن الجماهير، في العادة، تحب مظاهر القوة، لأن نرجسيتهم أصبحت مرتبطة بنرجسية الزعيم، ولأن هذا الزعيم أصبح يعطي هذه الجماهير معنى للوجود، وهذا ما يستند إليه الخطباء كثيراً في التوجه إلى جماهيرهم. وفضلاً عن ذلك، تلعب الشخصيات الكاريزماتية دورها في تسريع وتيرة هذه الأفكار،

---

[30] انظر كذلك إلى نفس المرجع السابق، ص201-207.

[31] لوبون، ، مصدر سبق ذكره، ص78.

مثل تأثير شخصية النبي محمد عليه السلام في دعوته، وفي توحيده للكثير من القبائل العربية،[32] وتأثير شخصية نابليون على جنوده، أو غاندي في تحريكه للجماهير الهندية في جنوب أفريقيا وفي الهند، وبن غوريون في بناء دولة إسرائيل. وفي المقابل، كثيراً ما كان يعزى توقف أو جمود بعض الحركات المقاومة إلى موت أو نفي أو سجن بعض زعاماتها الكاريزماتية كما حصل مع عبد القادر الجزائري، أو عبد الكريم الخطابي أو حركة مالكوم إكس حيث انتهت أو جمّد عملها بعد موت نبيها أو ملهمها الأول.

وفي هذا الإطار، يتم التركيز على شعارات مستمدة من البيئة المحلية أو من صفات بعض الحيوانات التي تدل على القوة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها: استخدام رسوم كالنسر والنمر والأسد، وكلمات مثل العاصفة، والكتائب، والصاعقة، أو تلك التي تدل على الأسلحة مثل شعار البندقية أو السيف، أو من خلال الخطاب مثل "شعب الجبارين"، و"خير أمة أخرجت للناس"، وإشعار الجماهير بأن الحرب حتمية ومصيرية للجماهير كما قال شمعون بيريس في الحرب على لبنان في العام 2006 "هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة لدولة إسرائيل، وأن وجود إسرائيل أصبح على المحك" واستخدام الازدراء[33] ضد الخصم مثل "بيت العنكبوت" و"جيش الهزائم"، والتغني بالموت "غايتنا الشهادة والموت لنا عادة"، والتباهي بمظاهر القوة من خلال الاستعراضات العسكرية، و تحدي الخصم "إذا ما ضربتم عاصمتنا سنضرب عاصمتكم"، وتبرير بعض الأعمال مثل "وجود إسرائيل أهم من صورتها،" وغير ذلك من ديناميات الحرب النفسية. من ناحية أخرى، فقد استخدمت الشعارات التأسيسية للحركات التحررية بالاستناد إلى نصوص مقدسة كشعار حزب الله الذي يقتبس أية من القرآن: "ألا إن حزب الله هم الغالبون،" أو شعار حماس "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة،" بينما اتخذت الحركات العلمانية شعارات علمانية مثل رسم البندقية وكلمة العاصفة لدى حركة فتح.

---

[32] حوراني، البرت. 1997. تاريخ الشعوب العربية.ترجمة كمال خولي.تحقيق. ط1. بيروت: نوفل،ص26

[33] هذه الأمثلة مستوحاة من محاضرة للدكتور وليد صليبي في العام 2008، عندما قام بعقد مقارنة بين خطاب حسن نصر الله وبشير الجميل.

وفي هذا السياق، يتم أيضاً استخدم الخوف في إقناع الجماهير، وهو من العوامل المهمة في تجيش الجماهير، بحيث تستثار لديهم غريزة البقاء[34]عندما يشعروا أنهم مهددين وهو عنف ردة الفعل.[35] ولعل هذه الأفعال تستند إلى عوامل نفسية مثل حب الموت (النكرفيليا) في حالة الكفاح المسلح حيث يتم تقوية روح المهاجمة واستنباط العنف الكامن في داخل الجماهير، وتوظيفه في خدمة المشروع التحرري بالعودة إلى العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل أراء الجماهير. فيلاحظ مثلاً التأثر بالصور والكلمات والعبارات أو الشعارات المبهرة، كاستخدام الصهيونية لنجمة داود كرمز لليهودية، واستخدم الإمبراطور قسطنطين ما يشبه الصليب كتميمة وكشعار في جيشه، الرمز ذاته الذي وظفته الحملات الإفرنجية كذلك في حملاتها على المشرق، واستخدام هتلر شعار الصليب المعقوف كرمز للنازية.

من الجانب النظري، يرى غوستاف لوبون "العرق والتقاليد الموروثة والزمن الذي يعزز ذلك بتجارب تاريخية، والمؤسسات السياسية والاجتماعية والتعليم والتربية"[36] كعوامل حاسمة في تحريك الجماهير، بينما يعزو إريك فروم أسباب ذلك إلى عامل الطاعة وحب الموت أو "النكروفيليا،" وحب الحياة أو "البيوفيليا."[37] وهذه، بطبيعة الحال، عوامل تحرك الجماهير والأفراد وترسم سلوكهم، فإذا ما أريد لجمهور معين التحرك باتجاه التدمير والحروب فإنه يتم التلاعب بعامل حب الموت أو النكروفيليا، بينما العكس هو صحيح في حالة السلم. ولعل هذا ما يفسر ازدواجية الجماهير، إذ إن أخلاقية الانتظام والإخلاص والتماهي مع الآخرين وقمع النزوات الشخصية لأجل الآخرين تأتي من باب حب الحياة "البيوفيليا،" بينما التدمير والقتل وأعمال العنف هي من باب النكروفيليا أو حب الموت. وقد لا نبالغ إن قلنا إن هذا الفرق هو أكثر الفروق جوهرية في تفسير الاختلافات بين الحركات التي تستخدم الكفاح المسلح والعنف بشكل عام، وتوظفه وتؤثر به على الأفراد والمجتمعات أثناء التحرر وبعده، وبين تلك الحركات التي تنتهج سبيل اللاعنف.

---

[34] وهذا يفسر الكثير من أساطير الحركة الصهيونية حيث كثيراً ما سوقت فكرة أنها مهددة طوال الوقت من جيرانها العرب وانها تقاتل للدفاع عن أنفسها، فالأمر مسألة حياة او موت

[35] فروم، ، مصدر سبق ذكره، ص20.

[36] نفس المرجع السابق، 99-114.

[37] فروم، ، مصدر سبق ذكره، ص35.

هذا، ويتم توظيف عناصر أخرى، كالأساطير القومية التي يتم إلحاقها بالتجارب التاريخية لجماعات معينة والتي تصبح مع الوقت محركة للجمهور وتشكل مثلهم الأعلى، كأسطورة مسادا على سبيل المثال. ولعل هذا يفسر سلوك الكثير من الحركات السلفية والأصولية التي ظهرت وبدأت تخطط للواقع من خلال الرجوع إلى التاريخ وتعظيم فكرة الأصل، ومن هذه الحركات الحركة الصهيونية التي تعلمت من التجارب التاريخية السابقة ووظفتها في استعمارها لفلسطين. ومن العوامل الأخرى، التي يذكرها غوستاف لوبون، العقل.[38] وقد ذكر بعض المحاججات العقلية في إقناع الجماهير، مثل ما قام به هرتسل أمام المؤتمر الصهيوني الأول حيث أقنع الحضور بأن المشروع الصهيوني قابل للتنفيذ، أو مثل ما قامت به النازية في إقناع الجماهير الألمانية بأن العرق النازي مختلف ومتطور، وحاولت أن تثبت ذلك من خلال بعض التجارب العلمية والعلوم تماماً كما حدث في عملية الاستشراق.

2.5 خلاصة

ولإيجاز ما سبق، وربط موضوع الجماهير بحركات التحرر، يمكن القول إن حركات التحرر تظهر من خلال نخب معينة لها مصالح طبقية وحزبية وشخصية، تتكون من شخصيات لها سمة الكاريزماتية بالعادة، مع وجود مصالح في نفس الوقت، تقوم هذه بتجنيد الجماهير لرسالتها عبر وسائل الإقناع التي تستخدمها في حملاتها، مثل: الصور والكلمات والشعارات والأوهام والأساطير والتجربة التاريخية، والعقل والحجج المنطقية. و في نفس الوقت، يستخدم محركو التأكيد والتكرار والعدوى في نقل هذه البنى. ولتحقيق ذلك الغرض يتم إعداد مؤسسات حاضنة له مثل معسكرات التدريب، والميليشيات والمظاهر المسلحة، وتماثيل الشهداء، بينما في حالة الحركات اللاعنفية يتم العمل من خلال حب الحياة أو البيوفيليا، ويتم أيضاً إعداد مؤسسات لها قد تكون من مؤسسات المجتمع مدني أو وسائل إعلام أو مؤسسات دينية كالكنائس والجوامع أو حتى مؤسسات اجتماعية كالنوادي والمراكز والجامعات.

---

[38] لوبون، ، مصدر سبق ذكره، ص135.

وفي ذلك يقول إريك فروم "النكروفيليون يلتفتون إلى الماضي ولا ينظرون أبدا إلى المستقبل، حياتهم العاطفية وجدانية، أي أنهم يتمتعون باستعادة المشاعر الماضية... أنهم أشخاص يتصفون بالبرود العاطفي، ومتحفظون متعصبون للقانون والنظام، نظام القيم لديهم معاكس لما نعتبره طبيعياً، فالموت عندهم لا الحياة يمثل المصدر الحقيقي للإثارة والرضا، ما يميز هؤلاء أيضا موقفهم من القوة، حسب سيمون فايل، القوة هي القدرة على تحويل إنسان إلى جثة، وكما الجنس يستطيع أن يكون سبب الحياة كذلك القوة بإمكانها تدمير الحياة في النهاية... محب الحياة يرى في القطبين مذكراً ومؤنثاً، أما محب الموت، فيرسم الخط الفاصل بين من يملكون القدرة على القتل ومن لا يملكونها، البشرية عنده منقسمة إلى جنسين: الأقوياء والعاجزون."[39] بينما يرى وليد صليبي[40] بأن قصور الماركسية يكمن في أنها حللت بنية العنف على أنها حرب بين الأغنياء والفقراء، بينما الأساس في ذلك ما أسماه تمحور الشخصية الرديفة أو " أنا الرديف" والتي تتشكل بفعل التربية الاستبدادية والطائفية التنافسية والتي تعبر عن نرجسية فردية وعن حب التدمير أو "النيكروفيليا" التي يتم تعزيزها من خلال الحركات العنفية وهذه سمة العنيفين الذين يتخلون تدريجياً عن نزعتهم الإنسانية التشاركية مقابل نزعة سادية تنافسية.

مما سبق نلاحظ أوجه التشابه بين البنى الفكرية الاستعمارية قد ارتكزت في بنيتها على الاستشراق،[41] والبنى التحررية التي اعتمدت على الايدولوجيات الدينية أو الماركسية، ولكن ليس بنفس الوتيرة والكم، حيث استخدمت نفس البنى تقريباً ولكن مع الفرق أنها استخدمتها في حالة التحرر حسب مجموعات متوالدة من الثنائيات والنقائض، نحو: **عالم الأضداد والثنائيات المتصارعة**[42] على امتداد العالم وبين مجموعاته وكياناته السياسية والثقافية والاقتصادية؛ و**ثنائية الأرقى والأدنى** بين شعوب اوروبا البيضاء "الراقية"، وشعوب الجنوب "الهمجية البربرية"؛ **والنماذج النمطية المقولبة لكل فئة**، سواء كانت صفات جسمية أو سلوكية أو معرفية كالذكاء أو انفعالية؛ **والأحكام المسبقة وما يتلوها من الشيطنة وإزالة الصفة الانسانية** عن الآخر؛ **وحتكار**

[39] نفس المصدر السابق، ص39.

[40] وليد صليبي مهندس مدني وأستاذ في الاقتصاد السياسي ومتخصص في الفيزياء وفي علم الاجتماع الاقتصادي، مفكر وكاتب لاعنفي له العديد من المنشورات والمؤلفات والترجمات في حقل النضال اللاعنف.

[41] Geismar, Peter. 1971. Fanon. New York: Dial press,p90

[42] يونان، أوغاريت. 1997. كيف نتربى على الطائفية.ط1.بيروت:حركة حقوق الناس:ص23.

القداسة؛ والأحكام القيمية التعميمية؛ والسادية ضد المختلف والخوف منه؛[43]وترويج أساطير **النقاء الذاتي** ومايكتنفها من **إلزامية الانتماء**؛ و**عبودية الرموز**، وغيرها من **الأساطير** كأسطورة عبء الرجل الأبيض نفسه، وما ينفيها من أسطورة المقاومة.

إن هذه البنى أسهمت كل الإسهام وصاغت العقل الجمعي لأكثر حركات التحرر، بل أنها وظفت في سبيل المشروع التحرري، في أثناء التحرر وما بعده، وفي نفس الوقت تعطي هذه الديناميات صورة عن الكيفية التي يتم فيها تحريك الجماهير والعبث في أفكارهم.

[43] فروم1966 في فريري2003 ، مصدر سبق ذكره، ص35

الفصل الثالث

النموذج العنفي: فانون

3.1 تمهيد

يتناول هذا الفصل أول النماذج التحررية وأكثرها شيوعاً في تراث الشعوب التي عرفت حالات استعمارية، وهو النموذج التحرري العنفي، أي النموذج الذي يدعو إليه المفكر فرانتز فانون وهو التحرر من خلال استخدام العنف المسلح. وسيتم في هذا الفصل الاستشهاد بتجربة الجزائر التحررية كحالة دراسية مناسبة تعبر عن هذا النموذج، كذلك لكون فانون نفسه قد شارك في الثورة الجزائرية وأصبح من أهم رموزها، مع الأخذ بعين الاعتبار أهم مزايا هذه النموذج وأدواته وأخلاقياته، ودورة الحياة التي مر بها، والمبررات التي استخدمها في تبرير أعماله، بالإضافة إلى أبرز النتائج التي أدى ويؤدي إليها.

3.2 _العنف المسلح ومبرراته

قبل الحديث عن العنف المسلح لا بد من تبيان أنواع العنف المختلفة التي يتناقلها الباحثون،[1]وتتراوح بين **العنف المتعلق باللعب**، مثل بعض أنواع الرياضيات كالمصارعة والكاراتيه وغيرها، والهدف منها عدم إيقاع الأذى بالخصم، بل إحراز نقاط معينة حسب آلية معينة؛ و**عنف ردة الفعل** الذي يلجأ إليه الإنسان للدفاع عن حياته وحريته أو مقتنياته؛ **والعنف الذي يولده الكبت** وهو نتيجة إحباط معين لأحد الاحتياجات، أو تعبير عن الغيرة والحسد وهما من أشكال الكبت؛ **والعنف الذي تولده رغبة الانتقام** ويكون دوره غير عقلاني، ومفاده إلغاء ما حصل واقعاً، وآليته موجودة عند الفرد كما عند الجماعة البدائية، إذ يزيد كلما ضعفت قوة الفرد وإنتاجيته، ويقل كلما عظمت قوة الفرد وإنتاجيته؛ و**العنف التعويضي**، وله طابع مرضي له علاقة بالسادية والمازوشية، بحيث يتلذذ الإنسان في ممارسته؛ و**العنف الذي له صفة العطش للدماء** الذي يحاول فاعله من خلال القتل تجاوز الحياة كونه يخاف التقدم وتطوير ملكاته الإنسانية، بحيث يصبح توكيد الذات والشعور بالنشوة مرتبطاً بالقتل، وهو سمة ما يسمى بالقاتل التسلسلي أو هوس القتل.

---

[1] للمزيد انظر إلى الفصل الثاني فروم، اريك. 1998. جوهر الإنسان.ترجمة هادي حبيب. بيروت:حركة حقوق الناس،ص19-34

ما يهم الدراسة هنا هو العنف المستخدم من قبل حركات التحرر والتي قد تختزل فيها جميع الأنواع السابقة، إلا إن الغطاء أو القناع يكون التحرر من الاستعمار، ويقصد به استخدام وسائل وأعمال حربية أو جسدية تهدف إلى إلحاق الضرر أو الأذى الجسدي بالخصم، ويترتب عنه أضرار مادية وجسدية ومعنوية، عبر استخدام وسائل مثل الأسلحة والمتفجرات والسلاح الأبيض وكافة الأدوات والأساليب الممكن أن تؤدي إلى إحداث ضرر جسدي، بينما يعرف جين شارب العنف، وهو ما يميل إليه الباحث، بأنه عنف جسدي ضد البشر ينجم عنه إصابات أو موت، أو التهديد بإحداث إيذاء جسدي أو الموت أو أية تأثيرات مهددة مشابهة لتلك الحالة.[2] واستناداً إلى هذا التعريف،[3]سيتم الحديث عن مبررات العنف لدى حركات التحرر والتي استندت إلى مبررات دينية، وتاريخية، وفكرية، وبيئية، وأخلاقية.

المبررات المستندة إلى مصادر دينية

ثمة نصوص دينية كثيرة تبرر استخدام العنف سواء في التحرر أو في الممارسات الحياتية، حتى أن نظام العقوبات لدى الديانات الإبراهيمية كثيراً ما برر العنف الجسدي مثل الجلد والرجم وقطع اليد والإعدام نفسه، كذلك فإن تاريخ الكنيسة لم يكن ذالك التاريخ المنزه عن العنف كمحاكم التفتيش والحروب الصليبية وغيرها. في نفس الوقت هناك ضرورة للفصل بين النصوص الدينية، وتوظيف هذه النصوص أو تأويلها، كذلك من حيث المعنى المقصود والمعنى الرمزي للنصوص وهذه محط جدل خلاف. من الملاحظ أن هذه التبريرات متنوعة وقد تبدو متناقضة، فهناك نصوص تدعو إلى استخدام العنف بمعناه الوارد في الدراسة، وأخرى تدعو إلى الوسائل اللاعنفية. مثلاً مبدأ العين بالعين والسن بالسن، وفي نفس الوقت توجد نصوص مثل "من يأخذ بالسيف، بالسيف يهلك"[4]، " ها أنا أرسلكم كالخراف في وسط الذئاب." بينما توجد في الإسلام نصوص مثل مثل "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ

---

[2] Gene,Sharp. 2007. Waging the Nonviolence.Boston:Extending Horizions Books protewr sargent,Ins,P 552.

[3] انظر ايضاً إلى موللر،جان ماري. 2008. قاموس اللاعنف. ترجمة محمد عبد الجليل.دمشق. معابر للنشر والهيئة اللبنانية للحقوق المدنية.

[4] بندلي، مصدر سبق ذكره، ص17.

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ"[5] ، كذلك أخلاقيات وآداب الجهاد في الإسلام "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [6]. كذلك فكرة تبرير الجهاد بحيث يكون الجهاد في سبيل الله وهذا ما تقرره الآيات "انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " [7] ، كذلك مبدأ "فمن اعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم،"[8] .

المبررات المستندة إلى مصادر تاريخية

وقد جاءت هذه المبررات بسبب الإرث التاريخي الذي أسند الأحداث والتغيرات التاريخية الكبيرة والمفاصل الهامة في حياة المجتمعات والشعوب إلى الانتصارات العسكرية والمعارك الكبرى، حيث إن أكثر المصادر التاريخية قد ركزت على تاريخ المعارك والحروب أكثر من التركيز على التجارب الأخرى نظراً لحدوث تغيرات جوهرية بعد هذه المعارك والحروب، مثل سقوط طروادة، وحروب هانيبال، وحروب الإسكندر الأكبر، وتدمير الهيكل، وغيرها. من خلال هذه التجارب، تم تصوير الوسيلة الأكثر شيوعاً لتحقيق مطالب أو تغيرات معينة بأنها استخدام القوة والعنف، إذ كانت المعارك وسفك الدماء وعدد القتلى وتحويل الأسرى إلى عبيد من المعايير المهمة في تحقيق أي نصر. **ولا شك** أن هذه المبررات متناقضة حيث أن بعض الشعوب تمجد العنف كرمز للذكورة، بينما تعتبره مجتمعات أخرى دليلاً على الهمجية والشر. ولعل هذه الأحكام مرتبطة بنظام القيم الموجود لدى كل مجتمع ومدى التقدم العلمي والثقافي لديها. ولذا، فقد أثبتت العديد من التجارب التاريخية بأن العنف هو المناص الوحيد والأكثر تأثيراً وسرعة لاسترداد الحقوق ولتغيير الأوضاع، بينما فشلت الوسائل الأخرى، أو لم تعط نفس النتائج التي أعطاها العنف. وقد سادت، في هذا السياق، طبيعة بدائية في التعامل مع الصراعات والنزاعات، من خلال معادلة (منتصر– مهزوم) بحيث لم يكن هناك إمكانية لوجود حالة (منتصر– منتصر) أو (مهزوم–مهزوم).

---

[5] سورة الحج الآيات: 39 41

[6] سورة النساء الآية 94

[7] سورة التوبة الآية 41

[8] سورة البقرة

المبررات المستندة إلى قناعات فكرية

وتعتمد هذه المبررات على مواقف متباينة من طبيعة الإنسان، وقد أسست هذه المواقف، فيما بعد، إلى المدرسة الواقعية متمثلة في هوبس، والمدرسة المثالية متمثلة في لوك والمدرسة (البرغماتية) متمثلة في ميكيافيلي. فعلى سبيل المثال، يرى هوبس أن "الطبيعة الإنسانية مشبعة بالعنف، فالناس يتحركون بواسطة الرغبات نفسها، وهذه الرغبات عادة ما تكون مستبدة وملحة، إما لأنها البديل الذاتي للحاجات البيولوجية الجامحة وإما لأن إشباعها يشكل بحد ذاته سبباً كافياً للسعي إلى تجديدها، غير أن الإشباع الشخصي أو الجماعي محدود دائماً، وذلك لأن الأغراض القابلة لإشباع هذه الرغبات تشكل كمية محدودة، ويترتب على مركب الرغبة والندرة، هذا تنافس دائم بين الناس، وبما أن أياً من الأفراد ليس قوياً بما فيه الكفاية ليفرض هيمنته بصورة دائمة."[9] وقد وجد ماركس أن العنف هو سمة للحالة الاجتماعية التي أفسدها الاستئثار بوسائل الإنتاج، فالتنافس بين الناس يتعلق بملكية وسائل الإنتاج، لذلك فإن الصراع ليس بين الجميع ضد الجميع كما ذهب هوبس، وإنما هو صراع بين الطبقات. وجدير بالذكر إن اهتمام ماركس قد انصب على العنف الثوري والذي يقع بين الأنظمة الاجتماعية والحضارية، وخلال تناوله للصراع، ربط ماركس بين كل من التغيير والصراع والعنف، مؤكداً الدور الإيجابي الذي يؤديه العنف في حركة التاريخ، فالصراع يشير إلى وجود خلل في البنى الاجتماعية، أما العنف فهو شرط أساسي لتجاوز هذا الخلل، ولإحداث التغيير، كما أنه الأداة التي تحل بواسطتها الحركة الاجتماعية مكانها وتحطم أشكالاً سياسية جامدة وميتة.

المبررات المستندة إلى ظروف بيئية

ثمة مقولة بأن الطبيعة الإنسانية واحدة مع وجود بعض الاختلافات المرتبطة بالبيئة والموقع الجغرافي. وعلى الرغم من أن العنف هو ممارسة وسلوك خارجي للجماعات والأفراد، إلا إنه توجد عوامل من شأنها أن تزيد من نسبة العنف لدى البشر كدرجة الحرارة والاكتظاظ، بينما تشكل الأجواء الباردة فرصة

---

[9] جميل، أسماء. 2006. "**العنف في تراث علم الاجتماع**".مجلة النبأ.ع84. (نسخة الكترونية استرجعت بتاريخ 27-3-2008)

ليقل فيها النشاط. وكذلك هو الأمر بالنسبة للطبيعة السكانية حيث تلعب الفروق بين المدينية والريف والبادية دوراً في زيادة نسبة العنف أو نقصانها. وقد ناقش ابن خلدون هذه الظاهرة عندما تحدث عن العمران البشري فأوضح أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها، مؤكداً أنه "لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة، كما قلنا في المقدمة الثالثة، لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر، فهم أقدر على التغلب والتنازع ما في أيدي سواهم من الأمم، بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الإعصار فكلما نزلوا الأرياف وتنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم." [10]

المبررات المستندة إلى مقولات أخلاقية

إن المنظومة الأخلاقية في أي مجتمع هي منظومة مركبة وتتفاعل فيها عوامل عدة، مثل: الخطاب الديني والتوظيف السياسي للنصوص التي يتداخل فيها الديني مع التاريخي. ولذا، يكمن التبرير الأكبر للعنف لدى بعض حركات التحرر في كونه ردة فعل على أعمال العنف الأساسية والمتأصلة في الحالة الاستعمارية نفسها، فالاستعمار هو أصل كل عنف كما يقول فانون. وعليه، فإن الرد على المسبب لهذه الحالة وبنفس الأسلوب هو أقل ما يمكن فعله نظراً لإنعدام الوسائل، وإن الأساليب اللاعنفية محدودة النتائج وليست كافية.[11] وكذلك، فإن العنف هو وسيلة لتحقيق الأهداف وحسب، فالقتل يكون لتحقيق أهداف ولإيجاد ميزان رعب، وليس لمجرد القتل نفسه. كما إنه ليس هناك من حرب نظيفة وأخرى قذرة، "فالحرب هي حرب وهي ليست أخلاقية بالأساس، ولكن الميزان هنا يكون الايجابيات والسلبيات، والحرب تأخذ شرعيتها من الأهداف الكبرى التي تترتب عليها، فكلما كان الهدف كبيراً بما يعني إنسانية الإنسان كانت الحرب شرعية."[12]

---

[10] ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص182.

[11] قاسم، نعيم. 2002. **المقاومة الفلسطينية المسلحة، أسئلة البعد الأخلاقي:** مجلة دار الآداب:16-19. (نسخة الكترونية استعيدت بتاريخ 29-1-2007)

[12] فضل الله، محمد حسين. 2002. **المقاومة الفلسطينية المسلحة، أسئلة البعد الأخلاقي:** مجلة دار الآداب:16-19. (نسخة الكترونية استعيدت بتاريخ 29-1-2007) .

وبالحديث عن أعمال القتل وغيرها وضرورة مراعاة حقوق الإنسان، فإن الرد على ذلك يكون بأن الاستعمار لم يراع هذه الحرمات عندما قدم بجيوشه وارتكب جرائم بحق الإنسانية. من ناحية أخرى، يأتي العنف من قبيل المعاملة بالمثل حيث يوقظ العنف حتماً ضمير الرهبة لدى العدو ويجعله يحسب ألف حساب قبل مواصلة عنفيته هو. كما إن العنف يقلص من قدرة الخصم على ممارسة مزيد من الظلم، وفي نفس الوقت يحمي الناس. ولذا، فهو مهم ووقائي، أي إنه "شر لا بد منه" كما تؤسس المقولة الدارجة. وعليه، فقد كان العنف وسيلة لتحقيق الغايات الكبرى، إذ لا بد من دفع ضريبة صغيرة مقابل أهداف كبرى، وأن العنف إنما يقوم بعامل الردع "ولكم في الحياة قصاص" و مبدأ "القاتل يقتل"، "وهو اللغة الوحيدة التي يفهمها الخصم."[13]

أما بالنسبة لتبرير قتل المدنيين نظراً لتواطؤهم مع المستعمرٍ، أو لإسهامهم بالمجهود الحربي من قريب أو بعيد، أو لوجودهم داخل المستوطنات أو المناطق المحتلة... فإن ذلك كله هو بحد ذاته جريمة أو فعل "غير أخلاقي." ولذا، فإن محاربتهم كجزء من المنظومة الاستعمارية واجبة ومبررة أخلاقياً. أما بالنسبة لقتل الأطفال، فلا يكون مقصوداً في العادة، بل يعتبر مقتلهم "كأضرار جانبية" ترافق العمليات العسكرية أو المقاومة، والذي يتحمل مسؤولية مقتلهم هو الاستعمار نفسه الذي استخدمهم وجعلهم في نطاق مناطق نشاط المقاومة،[14] أو هو من باب المعاملة بالمثل عندما يقتل الأطفال والمدنيون من جانب المجتمع الواقع تحت الاحتلال. وهنا، يمكن القول إن الأنواع الخمسة من المبررات هي أبرز الحجج التي يسوقها العنفيون في تبرير نضالهم، حيث يسوقون هذه المبادئ إلى الجماهيرعبر وسائل التأثير والإقناع المختلفة على نحو يبرز فضائل العنف وأهميته في عملية التحرر.

---

[13] صليبي، وليد. 2006. نعم للمقاومة لا للعنف.بيروت:النهار بتاريخ 16-1-

[14] فضل الله، محمد حسين. 2002. **المقاومة الفلسطينية المسلحة، أسئلة البعد الأخلاقي:** مجلة دار الآداب:16-19. (نسخة الكترونية استعيدت بتاريخ 29-1-2007)

3.3 الجزائر كحالة دراسية

يعود تاريخ الاستعمار في الجزائر إلى العام 1830، أي تاريخ الحادثة الشهيرة للطم الداي حسين للقنصل الفرنسي،[15]الأمر الذي أعتبر الذريعة لاحتلال الجزائر. أما بالنسبة لمبررات هذا الغزو، فقد كانت خسارة فرنسا للكثير من مستعمراتها وثرواتها بعد حروب نابليون وهزائمه، مع دخول الفرنسيين الجزائر، فرضت فرنسا أسلوب الاستعمار الاستيطاني، وجلبت معها مستوطنين، حتى إن بعضهم كانوا من جنسيات مختلفة كالأسبان والإيطاليين، إلا إنهم اعتبروا فرنسيين.

وبالتالي، فقد ساد نمط من الاستعمار الكلاسيكي، أي القواعد عسكرية، والمستوطنات، والأسواق، والسيطرة على الموارد. وقد أسست فرنسا نظام فصل ما بين المستوطنين والسكان الأصليين الجزائريين، فيما تمثلت الخطوة الأبرز والأخطر في ضم الجزائر لفرنسا، واعتبارها أرضاً فرنسية، وهي خطوة لم تتكرر كثيراً في حالات الاستعمار الأخرى، حيث أدت إلى بروز مشاكل كبيرة وإضافية لحركات المقاومة الجزائرية، وأعطت الشرط الاستعماري الجزائري خصوصيته. ومن ناحية أخرى، فقد فرضت فرنسا على السكان الأصليين سياسات محو كالفرنسة والتنصير ومهاجمة المؤسسات الاجتماعية والثقافية والمدارس التبشيرية والتجنيد الإجباري. كما لعب الجزائريون فيما بعد دوراً مهماً في حروب فرنسا كان أهمها المساهمة في تحرير فرنسا من النازيين، الفضل الذي لم يذكر كثيراً سوى مؤخراً وبصورة هامشية ندما كّرم الرئيس الفرنسي الجنود الجزائريين الذي ساهموا في تحرير فرنسا. ولعل فيلم (Days Of Glory) من أكثر التجسيدات لهذا الدور.[16] وقد مرت التجربة التحررية الجزائرية[17]بأربع مراحل.

---

[15] أتت هذه الحادثة بعد أن طالب الداي قنصل فرنسا بتسديد الديون المستحقة من القمح بعد مماطلة طويلة

[16] هذه الفلم يعطي صورة عن التمييز والتغريب الذي كان يتعرض له الجنود الافارقة الذين خدموا في الجيش الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية، وكيف أنهم كانوا مجرد وقود .

[17] انظر ايضاً الى حربي،محمد وكميل داغر.1983.**الجزائر 1954–1962**،**جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**.بيروت:مؤسسة الأبحاث العربية.

الشيخ، سليمان.2003. **الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين: دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

طلاس، مصطفى.1984. **الثورة الجزائرية** .دمشق: طلاس للدراسات والترجمة

المرحلة الأولى 1954–1956: وقد عرفت بمرحلة الإعداد، حيث تم تركيز الجهود على التجنيد والتموين ومد السلاح وشرائه وتوفير متطوعين ومراكز تدريب، وعلى نشر الثورة على كافة المناطق، حيث قوبلت هذه العمليات بملاحقات من البوليس السري ووحدات الجيش المختلفة، بالإضافة إلى تعزيز الحراسة على الحدود وقطع مصادر التموين.

المرحلة الثانية 1956–1958 : وقد تميزت بتزايد وتيرة القمع الفرنسي خصوصاً تجاه الريف والمناطق الجبلية، الأمر الذي صعد من موجات المقاومة وجند بالتالي إعداداً متزايدة من الجزائريين، كما شهدت ضعف التموين العسكري خصوصاً القادم من مصر بسبب حرب السويس وما شهدته المنطقة من توتر وحرب بسبب تأميم قناة السويس.

المرحلة الثالثة 1958–1960: وتعتبر من أصعب المراحل وأكثرها حسماً، إذ عززت فرنسا من قبضتها بعد خروجها من مصر في حرب السويس. ولعل الفيلم الفرنسي (العدو الحميم) الذي عرض مؤخراً يروي عن هذه الوحشية والسياسات التي أتبعتها فرنسا في قمع الثورة.[18] كما أنه في هذه الفترة تم الإعلان عن أول حكومة جزائرية في المنفى برئاسة عباس فرحات، الحكومة التي أصبحت الممثل الشرعي والناطقة باسم الشعب الجزائري والمسؤولة عن قيادة الثورة سياسياً وعسكرياً ومادياً، وقد أعلنت الحكومة في أول بيان لها عن موافقتها على إجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية شرط الاعتراف المسبق بالشخصية الوطنية الجزائرية.

المرحلة الرابعة 1960–1962: وفيها حاولت فرنسا أن تحسم أمر جبهة التحرير عسكرياً من خلال عدة حملات شنتها، وذلك للتفاوض بشروط أفضل، إلا إن محاولاتها باءت بالفشل بسبب الخسائر الفادحة التي منيت بها على يد جبهة التحرير، وبسبب تقهقر فرنسا في الجزائر، واستحالة الحسم العسكري، وبروز بعض المشاكل الداخلية خصوصاً الانقلاب الذي قامت به فرقة المظليين، ومحاولة اغتيال ديغول في باريس، وخروج فرنسا المذل من فيتنام، الأمر الذي دفع فرنسا في النهاية إلى قبول التفاوض مرغمة، وصولاً إلى

[18] تحدث الفيلم عن وجهة نظر الاستعمار حول الجزائر ويظهر كيف كان الجنود الفرنسيون يعذبون الجزائريين من المدنيين وغيرهم، وفي نفس الوقت يظهر زيف الدعاية الفرنسية أمام الجمهور الفرنسي، حيث سوقت أحداث الجزائر دائماً بصورة جندي يساعد الأطفال المرضى، بينما في الواقع كان عكس ذلك

الاستقلال في 27 حزيران 1962، مخلفين وراءهم كل ما سلبوه طوال 130 سنة من الجزائريين الذين تكبدوا أكثر من مليون شهيد. وقد أدى ذلك إلى جلاء المستوطنين من الجزار ليعودوا إلى بلدهم الأم فرنسا، بينما ترك المتعاونون مع السلطات الفرنسية من الجزائريين والمنضويين تحت لواء الجيش الفرنسي ليلقوا مصيرهم المشئوم، حيث هرب القليل منهم مع الجيش الفرنسي ليستقر في فرنسا، بينما ترك البقية في المعسكرات التي أخلتها فرنسا، دون حماية ولا حتى سلاح ولا ذخيرة، ليذبحوا على يد جبهة التحرير دون أية مقاومة، أو ليلتحق بعضهم بقوات جبهة التحرير قبل أن تأتيهم الخناجر، وإما لدور فرنسي خفي في ذلك.[19]

هذا، وقد اعترفت بهذا الاستقلال الكثير من الدول، وتم اختيار أحمد بن بيلا ليكون أول رئيس للجمهورية الجزائرية. ولكن هذا التحرر لم يكن بهذه البساطة، فكثيراً ما كانت هناك خلافات وصراعات في القمة بن قادة جبهة التحرير خصوصاً في العام 1959–1960.[20]وقد هذه الخلافات بين القيادة العامة للأركان والحكومة المؤقتة حول اتفاقيات إيفان. وما أن تم إعلان الدولة حتى قاد العقيد هواري بومدين انقلابًا عسكريًا أدى إلى اعتقال بن بيلا وعزله بتهمة الإسراف، واستخدام أموال الدولة في غير وجوهها. وقد تولى مجلس قيادة الثورة حكم الجزائر برئاسة بومدْين التي عرفت فيها الجزائر أحداثاً وتطورات كثيرة، منها مشاكل سياسية مثل الصراع الحدودي كل من المغرب وليبيا وتونس، ومشاكل اقتصادية، ومشاكل في الجيش بين الزمر العسكرية، ومشاكل في تبني وتأهيل أبناء الشهداء في ثورة التحرير، وفي تعليم اللغة العربية، وصولاً إلى الفترة بين عامي 1989–1991 ومحاولات تبني نظام ديمقراطي شكلي أدى في النهاية إلى وصول الإسلاميين إلى السلطة بقيادة جبهة الإنقاذ، الأمر الذي أدى إلى إلغاء نتائج هذه الانتخابات وإعلان حالة الطوارئ عبر تدخل فرنسي. وقد أدى ذلك إلى موجة شديدة من العنف الداخلي الذي سقط فيه مئات الألوف من الضحايا، وما من السخط على الحكومة من قبل الإسلاميين الذين عادوا إلى نفس نهج جبهة التحرير من خلال استخدام العنف في تحقيق الأهداف، ولكن هذه المرة تجاه الحكومة التي عادت هي الأخرى إلى نفس الوسائل الاستعمارية في قمع الإسلاميين مع بروز دور خارجي كبير خصوصاً لفرنسا في أزمات الجزائر وبخاصة موجة من العنف ما زالت الجزائر تعاني منها حتى اليوم.

---

[19] براهيمي، مصدر سبق ذكره، ص31

[20] نفس المصدر السابق، ص42.

3.4 فرانز فانون ومسألة التحرر

يعتبر فانون[21]من أهم المساهمين فيما يتعلق بمسألة التحرر، حيث تناول التحرر من منظور ماركسي، وهو نموذج قائم بحد ذاته، حيث وصف في كتابه ***معذبو الأرض*** التفاصيل الواجب على الشعوب اتباعها في حالة التحرر من الاستعمار، وحدد في نفس الوقت الآلية المستخدمة في التحرر عبر العنف. وقد برر فانون ذلك وعبّر عن التحرر بمصطلح (Emancipation) أو الانعتاق حيث تحدث عن ثلاث مستويات يمكن أن يتحقق من خلالها الانعتاق وهي: الانفصال عن الغرب (Disengagement from the west)، وقول الحقيقة (Truth telling)، ووجود رؤية وأهداف واضحة (Having a Clear vision and targets). وقد تحدث فانون عن آليات الانعتاق وهي الطبقة الأخرى من التحرر لديه، حيث العنف والوعي والثورة وزوال الطبقات والقيادة لتشكل معاً منظومة تحررية متكاملة، بحيث من الصعب تحقيق المرحلة الثانية دون تحقيق المرحلة الأولى وبكلاهما معاً يحدث الانعتاق، بينما في حال تم تحقيق واحدة دون أخرى، فإن ذلك سيؤدي إلى مشاكل ستظهر في مرحلة ما بعد التحرر.

الانفصال عن الغرب

يتم الانفصال عن الغرب، حسب فانون، على ستة مستويات، تتضمن: الأفراد، والأحزاب السياسي، والطبقة البرجوازية، والنخب الثقافية، والأمة الجغرافية، والمؤسسات العامة.

أما **الأفراد**، فيجب عليهم التخلص من الثنائية الثقافية، وبالتالي إلغاء الهوية الاستعمارية التي بناها المستعمر في ذهنية المستعمَرين، واستبدالها بالهوية المحلية التي تعبر عنهم، وهذا لا يتم إلا من خلال إقناع هؤلاء بأن النمط الأوروبي لا يخصهم.[22]ومن ناحية أخرى، فإن التخلص من الهوية الاستعمارية سيؤدي إلى نمو الهوية الوطنية التي تؤسس لرواية جامعة بعيداً عن تأثيرات المستعمِر. وعلى الرغم من ذلك، إلا إن مفهوم الهوية

---

[21] أنظر إلى. Gendzier, Iren l. 1973 .Frantz fanon: A critical biography. New York: Pantheon

[22] Samman, p22

لدى الباحث هو مفهوم مركب يحتاج إلى تفكيك، وليس بالبساطة التي تحدث عنها فانون، كون الهوية كما يقول الطاهر لبيب "هي ما أنا عليه فإذا ما وجدت الثقافة الغربية في كياني فهي جزء من هويتي."[23] وكذلك فإن الهوية لا يمكن بناؤها بمعزل عن الرواية الاستعمارية، لأن تاريخه أصبح جزءاً من البنية الاجتماعية والنفسية لهذا المجتمع أو ذاك.

وأما الأحزاب السياسية، فيقول فانون إن مشكلتها هي أنها موجودة ضمن الشرط الاستعماري وأنها مبنية حسب الطراز والمفهوم الأوروبي للحزب السياسي، وكذلك في استعارة مفهوم الدولة القومية. لذا، فدور هذه الأحزاب أو الحكومات يكون ذا طابع شكلي، يأخذ قراراته مباشرة من السلطة الاستعمارية، ومن مصلحة الدولة الاستعمارية أن تخلق سلطة كهذه لأنها تعطي للمستعمِر شكل الشرعية، وتغلِّف الاحتلال. لذا يجب على هذه الأحزاب، حسب فانون، أن تتوجه إلى قضايا مجتمعها المحتل، وأن تكون معبرة عن حاجاته التحررية لا عن مصالح فئات معينة. وهنا، أغفل فانون العوامل التي تؤسس لحبكة وطنية، ولم يتعاط معها في التحليل، بل تناول البنية الفوقية لمفهوم القومية، ولم يتناول العوامل النفسية لها، حيث تتشكل الفكرة القومية ومفهوم الأمة بنفس الطريقة والآلية، على الرغم من أنها مستعارة في حالة الدولة ما بعد الاستعمارية، حيث تعبر في الأساس عن نرجسية جماعية نامية، يؤدي نموها إلى تطور مفهوم القومية.

وأما **الطبقة البرجوازية** في العالم الثالث، فليست مثل الطبقة البرجوازية في أوروبا، فهي في العادة مخلوقة من قبل المستعمِر كـــ"نخب كومبرادورية"، وتتشكل من النخب المحلية والأغنياء الجدد، من تجار، وصناع، وإقطاعيين، وملاك أراضي، ورجال دين. كما تكون هذه الطبقة مرتبطة بعلاقات زبائنية ومصالح مع الغرب، وترث الاحتكارات السابقة من المستعمِر وتتماثل معه في تعاملاتها، وتسيطر على قطاعات حيوية في البلاد تظهر بشكل واضح للعيان بعد رحيل الاستعمار. وبذا، فهذه الطبقة لها مصالحها مع المركز الاستعماري، وقد تتحول أو تتقلب في ولائها في بعض الأحيان حسب المصلحة. وعليه، فإن علاقتها وظيفية بالدرجة الأولى ومرتبطة بالفائدة المرجوة. ولذا، يقول فانون إن الانفصال عن الغرب من قبل هذه الطبقة سيؤدي إلى

---

[23] لبيب، الطاهر، قناة العربية، 9-12-2007.

تدميرها. ولكن ثمة تساؤل إلى أي حد يمكن أن يكون هذا الطرح واقعياً ومقبولاً؟ ففانون يدعو الى نوع من الاشتراكية، بينما قد تقوم هذه الطبقة بتحمل أعباء إعادة الإعمار وتطوير البلاد، بل أن دورها حيوي في الانتعاش الاقتصادي والانتقال الديمقراطي، والدليل على ذلك، مع الفرق في النتائج، ما قامت به الطبقة البرجوازية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى والتي تحالفت مع النازية، وقد أدى ذلك التحالف إلى جعل ألمانيا قوة عظمى بعد أن كانت مدمرة ومهزومة.

وفيما يتعلق ب**النخب الثقافية أو المثقفين**، فإن فانون يعتقد بوجود دور حيوي ومهم لهذه الطبقة في عملية تنظيم التحرر أو الانعتاق، وذلك من خلال نشر الوعي وإشاعته بين الناس، وطرح مظاهر الظلم وتبرير تغييره من خلال مقاومة الاستعمار. كما يظهر دورها بشكل مباشر من خلال المجالس المحلية واللجان الشعبية، ولكن في نفس الوقت يقول فانون إن هذه الطبقة معرضة لأن تصبح فاسدة إذا لم تنتقل إلى المرحلة الثورية التي تحدث عنها، والتي تعني إنهيار الطبقات، وتحول الأحزاب إلى الأجندة التحررية الوطنية. تتسم هذه الطبقة في جزء منها، حسب فانون، بالانتهازية والوصولية والانبهار بالمعايير الأوروبية،[24] إذ منها من يؤيد النمط الأوروبي مع وجود عدم قدرة على تناسي الثقافة المحلية، ومنها من يريد تطبيق النمط المحلي.

من هذه الأفكار يمكن استنباط مدى التحدي الموجود أمام هذه الطبقة في تقويض الشرط الاستعماري من جهة، وفي رفض القيم المحلية الموجودة من جهة أخرى، ولاعتماد على النخب في عملية التغيير الاجتماعي. ولعل هذه هي مشكلة فانون في هذا الطرح، حيث أنه قد وحد بين هذه النخب واعتبرها وحدة واحدة، واعتبر أن لها أجندة موحدة في مرحلة الوعي، على الرغم من أن التجارب تثبت عكس ذلك. إن هذه النخب تعيش في حالة صراع مستمر نظراً لاختلاف المصالح بينها والتي لا تتفق بالضرورة مع تلك الخاصة بالحركات التحررية. هذا، وقد أغفل فانون الدور المركزي الذي تلعبه فئات الشعب الأخرى كالفلاحين والعمال في التغيرات الاجتماعية التي تكون أكثر تحركاتها المضادة نتيجة تضررها المباشر من الحالة الاستعمارية. لقد جعل فانون عملية صنع الوعي مقتصرةً على النخب المثقفة والسياسية، وكأن التغيير يأتي دائماً من أعلى.

---

[24] Samman, p24

قد تكون هذه مشكلة فانون الكبرى في الحديث عن دور المثقفين، أما عن مشكلة الثنائية الثقافية التي دعا إلى التخلص منها حتى تتوجه هذه النخب نحو القالب الوطني والقومي، فتبرز بوضوح خصوصاً في مرحلة ما بعد التحرر. "ولكن المثقف،" كما يقول إدوارد سعيد، "تحاصره دائماً وتتحداه بلا هوادة مشكلة الولاء، فكل منا وبلا استثناء ينتمي إلى لون ما من الجماعات القومية أو العرقية أو الدينية، ومن المحال على أحد مهما يبلغ حجم احتجاجاته أو إنكاره أن يقول إنه قد ارتفع فوق الروابط الحيوية العضوية التي تربط الفرد بالأسرة وبالمجتمع وبطبيعة الحال بالقومية كذلك.. .فإن الإحساس بأن شعبك يتهدده الفناء أو الانقراض السياسي بل والمادي فعلاً يلزمك بالدفاع عنه، وبأن تفعل كل ما في طاقتك لحمايته أو للقتال ضد أعداء الأمة، هذه وطنية دفاعية بطبيعة الحال."[25] ومن هنا يأتي الجدل حول فكرة التحرر: هل هو تحرر من قيود المجتمع وسلطاته الموازية كالسلطة الدينية، أم هو تحرر من قيود المستعمِر؟ ولذا، تبقى مسألة التحرر مسألة نسبية، وهذا نقد آخر لفانون الذي لم يتناول دور المثقفين الداخلي في الانعتاق ليس فقط من سلطة الاستعمار وحسب، بل من سلطة المجتمع نفسه كذلك.

وأما عند تناوله لمفهوم الأمة الجغرافية،[26] فيتحدث فانون عن ضرورة الانعتاق والانفصال عن فكرة المركز الجغرافي المتمثل بالعاصمة أو المركز كفكرة استعمارية محضة تعكس فكرة مركزية أوروبا، وهي تعبير عن سياسات التمييز بين المناطق والسكان. لذا، يعتقد فانون بضرورة التخلص من هذه التقسيمات كونها تؤدي إلى خلق صدع في الأمة الواحدة، وتحدث توترات داخلية وتعيق من توحد الجهود. وعلى ذلك، فالتوجه إلى المحيط خصوصاً المناطق الريفية من نواحي التطوير وإعادة التأهيل سيقرب المسافات بين السكان، وسيقلل من الهوة الثقافية والتفاوت بين المجموعات الريفية والمدنية، وسيعمل، بالتالي، على تصدير الثورة وتعميمها على كافة فئات الشعب، وليس على فئة أو منطقة بعينها. ولعل النقد الموجه إلى هذا الطرح يكمن في تناسي الخصوصية التي تتميز بها كل مجموعة أو منطقة سواء من ناحية التركيبات الإثنية أو اللغوية أو الثقافية أو الدينية الموجودة في المجتمع الواحد، إذ توجد في الجزائر مجموعات أمازيغية، وأخرى قبلية،

---

[25] نفس المصدر السابق، ص83-84.

[26] Samman, p25

وثالثة ريفية، ولكل منها له سماتها الخاصة، والتي لا ينبغي أن يكون الاستعمار سبباً في زوال خصوصياتها باسم التوحيد من أجل التحرر.

أما **المؤسسات العامة**، فقد تحدث فانون عن دورها في عملية الانعتاق، ولكنه وضع عدداً من المحاذير كعدم خضوع هذه المؤسسات لأجندات غربية، لأنها ستصطدم بالثقافة المحلية وستؤدي إلى فساد أخلاقي[27]. وبينما يقول فانون بوجود دور حيوي لهذه المؤسسات في خلق القيادات المحلية المستقبلية، وفي تهيئة الظروف التي تساهم في خلق الوعي لدى الناس، والمتمثل بالبحث عن الهوية الوطنية وتقويتها، واستبدال الهوية الاستعمارية الغربية بهوية محلية، يطالبُ الشعوب بأن تختلق هوية خاصة بها لمواجهة الهوية المفروضة على هؤلاء الواقعين تحت شرط إستعماري.

قول الحقيقة

يتحدث فانون عن قول الحقيقة [28] كعامل مهم في عملية الانعتاق وكعامل مهم في البناء الذاتي للأمة. وهنا، يوجد جدل كبير حول مدى اختزال هذا المفهوم وواقعيته. فعندما يقول فانون بأن على الطبقات البرجوازية أن تحل نفسها بعد أن يحصل الوعي في سبيل الوحدة الوطنية، وأن على النخب الثقافية أن تتحول في ولائها من خدمة الأحزاب الموالية الموجودة في الشرط الاستعماري للتحول الى أحزاب رديفة تمثل الشعب... يقع في المثالية والخيالية حسب الباحث. ففانون يرفع شعارات تغييرية مثالية لا تعبر بالعادة عن مصالح المجتمعات أو الطبقات، حيث لم يشر مثلاً إلى أن ما يحرك هذه الجماهير والنخب هو المصالح سواء الخاصة أو العامة، والرغبة الدفينة في استبدال المستعمر لتحل مكانة، وهذه سمة من أبرز سمات حركات التحرر التي أشار إليها فانون بنفسه عندما تحدث عن ثنائية الحرمان. إن هذه الاشتراكية المرجوة تحتاج إلى أسس وإلى ظروف وشروط معينة كانت موجودة في روسيا قبل الثورة البلشفية، ولكن هذه الظروف ليس بالضرورة أن تكون متوفرة في بعض الدول التي ما زالت محتلة. ومن هنا، يمكن الاستنتاج بأن فانون قد أسقط معايير التجربة الاشتراكية في بعض دول أوروبا على دول العالم الثالث مرة أخرى من خلال الحديث عن الطبقات، والوحدة

---

[27] نفس المصدر السابق، ص25

[28] Samman ,P12

الوطنية، والأحزاب. ومن ناحية أخرى، لم يشر فانون إلى آليات عملية خلال التحرر متعلقة بحل هذه الطبقات، فهو يعتقد بأن العنف سيقوم بذلك بينما أثبت الواقع عكس ذلك، إذ إنه كثيراً ما تكونت برجوازيات وأغنياء جدد أو أغنياء حرب بفعل العنف المستخدم في التحرر، وتركز ذلك بشكل خاص في النخب العسكرية وزعماء الحرب الذين شاركوا في القتال والتحرر، وهذا تأكيد آخر على الخلاف حول معنى التحرر، إذ لا يوجد تحرر بل تحول في حالة هذه الدول بعد ما يسمى بالاستقلال حيث تجد "الهوية القومية التي تناضل للتحرر من سيطرة الامبريالية نفسها مودعة منغرسة في الدولة "القومية المستقلة حديثاً" ومحققة لذاتها فيها أيضاً فيما يبدو ونتج عن ذلك جيوش ورايات ومجالس تشريعية وخطط للتعليم القومي وأحزاب سياسية طاغية إن لم تكن وحيدة. وقد تم ذلك عادة بطرق منحت النخب القومية المكانة التي كان يحتلها البريطانيون أو الفرنسيون من قبل. ويبرز (هنا) تمييز بايزل ديفيدسون الهام بين استنفار الجماهير (Mobilization) "كالجموع الهندية الهائلة التي تظاهرت في شوارع كلكتا مثلاً"، والمشاركة الجماهيرية (Participation) ، التمايز بين النخبة القومية والجماهير الريفية والحضرية التي كانت لزمن وجيز جزءاً عضوياً من المشروع القومي." [29]

بكلمات أخرى، إن بعض النخب توظف الشرائح الاجتماعية الأخرى في تنفيذ مشاريعها التحررية من خلال تحالفات ضمنية أو صريحة تعقدها مع بعض شرائح المجتمع، يكون فيها مصلحة للطرفين، وتتخذ من القومية أو الدين أو من الفكر الماركسي مبررات ودوافع لها. لقد مرت هذه الحركات بعدة مراحل، فمثلاً في تجربة دول المغرب العربي اتخذت شكلاً دينياً لمقابلة الفكر الاستعماري "وحين كان على المغرب أن يقابل الفكر الاستعماري بتراث مكتوب، بتعبير محمد أركون، فقد وجد في الحقل الأيدولوجي والثقافي المنتمي إليه ديناً ولغة وحضارة الأرضية التي ستسعفه على إدراك وفهم الاستعمار أولاً والتفكير والعمل على تحديد الوسائل لمقاومته بأفق تجاوزه قطرياً وجماعياً." [30]وفي المحصلة، فإن النخب الجديدة بعد أن حصلت على

---

[29] سعيد، ادوارد .1997. الثقافة والامبريالية.ترجمة كمال ابو ديب. بيروت: دار الآداب، ص320

[30] مالكي،محمد. 1993. الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي. ط1. بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، ص 217

مبتغاها قامت بالتخلي عن تحالفاتها القديمة، بل إنها تنكرت لها في مرحلة الدولة، الأمر الذي أدى إلى بروز نخب مقابلة تطالب بالتغيير، وأكبر مثال على ذلك حركة التحرير الجزائرية.

وجود الرؤية والأهداف الواضحة

يؤكد طرح فانون ضرورة وجود رؤية وأهداف واضحة خلال عملية الانعتاق أو التحرر، أي رؤية إستراتيجية مستقبلية لشكل الدولة والنظام السياسي والاقتصادي الممكن أن تتبناه الدولة بعد أن تتولى حركة التحرر مقاليد الحكم، وبعد التحرر كذلك بحيث لا تكرر نفس أخطاء الماضي المتمثلة بتجسيد البنى الاستعمارية.[31]وفي هذا الطرح تكمن رؤية مستقبلية تواجه معيقات كثيرة، ليست بالضرورة كافية لتكون واقعية. كذلك الأمر بالنسبة للوعي الذي أعطاه أهمية كبيرة،[32]حيث يوجد هنا عقل خاص وعقل جمعي ويصعب أن يتم توحيد الجماهير حسب عقل جمعي موحد، لأن العوامل الثقافية والمستوى الطبقي ونمط العمل والفروق الفردية تلعب دوراً حاسماً، هنا، حالها حال فكرة الانفصال أو الانعتاق عن الغرب حيث توجد صعوبة في تخلي البعض عن بعض الأفكار الغربية خصوصاً عندما لا يوجد هناك بديل لها. يدعو فانون إلى قطيعة مع الغرب بينما قد تكون هذه القطيعة مفيدة للتحرك إذا ما وظفت جيداً من قبل حركات المقاومة، بل حتى إنها تكون العامل الأبرز في التأثير على الخصم الاستعماري.

وبذا، فإن فكر فانون بخصوص مسألة التحرر يتركز على ما أسماه آليات الانعتاق المتمثلة بمنظومة خماسية تشمل ثنائيات متقابلة تساهم كل منها في النهاية بتحقيق الوحدة الوطنية، [33]حسب وهي: العنف، ويقابله التمرد؛ والوعي ويقابله البناء الذاتي؛ والتمرد ويقابله الثورة؛ وانهيار الطبقات ويقابلها مجتمع مكون من طبقة واحدة وتعني نجاح الثورة؛ والقيادة.

---

[31] Hansn, Emmanuel. 1977. Frantz fanon: social and political thought: Columbus. Ohio State University Press,p81

[32] انظر كذلك إلى Onwuanibe, Richard c. 1983. A Critique of Revolutionary Humanism: Frantz fanon: St Louis .Mo .USA .W. H .Green.

[33] Fanon, Frantz. 1963.The Wretched of the Earth. New York: Grove Press, P2-170.

يعتبر **العنف** الذي عناه فانون الركيزة الأساسية والأداة الفاعلة في التحرر، حيث يبدأ العنف بشكل عفوي غير مخطط من قبل بعض الأفراد والجماعات؛ ويكون ذلك بسبب حادثة معينة تكون هي الشرارة التي تختزل الكثير من المواقف السابقة مع المستعمر بحيث تأخذ مساحة أكثر من المساحة المتوقعة. فاستشهاد أربعة فلسطينيين في غزة في أواخر العام 1987، مثلاً، أدى إلى اشتعال الانتفاضة الأولى حينها. ومن ثم، فإن هذه الأحداث، وبعد أن تقابل بقمع شديد من القوة الاستعمارية، تمتد لتشمل المناطق الأخرى حين تحدث "العدوى"، بحيث تتدحرج وتكبر ككرة الثلج، ويبرز خلال هذه العملية عملية وعي مؤقت ومشاعر من الحنين للهوية الوطنية والتي تصبح دافعاً للثورة. وكذلك تبرز بعض القيادات التي تكون خاملة قبل اندلاع الشرارة الأولى، بحيث تكون هذه الأحداث بمثابة المنبه لهذا التنين، فتتجه التحركات نحو التنظيم من خلال بناء بعض المؤسسات فيصبح هناك نوع من تقسيم العمل، قسم سياسي، وقسم اجتماعي، وقسم عسكري. يبدأ العمل المسلح، ويتخذ شكلاً أكثر تنظيم وأكثر سرية خصوصاً بعد حدوث أعمال قمع، ويصبح أقل شعبية خوفاً من الاختراق، وهنا يصبح النضال بالإنابة، وتصبح القيادة أكثر حزماً لتفادي الانقسامات الداخلية بحيث يكون المحدد الأساسي لنجاح هذه الحركات التنظيم الجيد، والتخطيط، ووضوح الهدف والاستراتيجيات، والإمدادات البشرية واللوجستية، لأن المستعمِر في العادة يملك الأدوات والموارد الكافية لقمع هذه التحركات.

وينقسم العنف حسب فانون إلى ثلاثة مراحل، تتمثل المرحلة الأولى بالحالة التي يكون فيها المجتمع الواقع تحت شرط استعماري في حالة تخبط وبحث عن هوية نتيجة لحالات التهميش والظلم الاجتماعي وفساد بعض النخب وسياسات الاستعمار التي سبق الحديث عنها. وعليه، فإن هذا الوضع المتأزم يؤدي إلى حشد بركان من العنف ينتظر الثوران في أية لحظة. أما المرحلة الثانية، فيتم فيها تفريغ العنف في العادة بشكل داخلي، بحيث ترتفع نسبة الجريمة والعنف المجتمعي بين أفراد وجماعات المجتمع نفسه، وقد تبرز على شكل صراعات طائفية أو دينية أو إثنية أو قبلية. [34] وأما المرحلة الثالثة، فبعد أن يكون العنف مستشرياً في الداخل بين فئات المجتمع، يبدأ هذا العنف نفسه بالارتداد على مصدره الأول وهو

[34] Samman,P31

المستعمِر، أو ما يمكن وصفه بإعادة إنتاج العنف وتصديره إلى مربعه الأول، حيث يبدأ هذا العنف يأخذ منحى أكثر تنظيماً ليصل، بالتالي، إلى مرحلة اللاعودة حسب تعبير فانون. ومن هذه المراحل الثلاثة يمكن الاستنتاج أن مصدر العنف الأول هو الاستعمار.[35] ويضيف فانون في كتابه ***معذبو الأرض*** بعض فوائد النف إذ يحرر المجتمعات المحتلة من الأساطير والأوهام التي عاشوا فيها طويلاً، مثل علو كعب الأوروبي، والتمايز بين الناس على أساس العرق، كما يحررهم من عقدة الخوف من المستعمِر. كما يعتبر فانون العنف قوة مطهرة،[36] و يساعد في التخلص من عقدة النقص، ويعيد الاحترام الذاتي للأفراد ويحررهم من الخوف. لذا، فالعنف يسرِّع من عملية الانعتاق ويبطل عوامل الانقسام الداخلي، وهو عامل موحد للشعب، بحيث يهدم الجسم والنظام الذي بناه الاستعمار لصالح بناء جسم أو نظام جديد. والعنف، لذلك، خطوة نحو بناء نمط جديد للمجتمع، بعيداً عن النمط الغربي بحيث يؤدي الوعي الوطني إلى مرحلة الوطنية.

أما **الوعي**، فقد ركز فانون على دوره في عملية التحرر، واعتبره عاملاً مهماً إذ هو الذي يحرك الجماهير ويجعلها واعية لنفسها ولواقعها، ذلك أن أصل حركات التحرر هو الوعي. ويذكر فانون بأن الوعي من شأنه أن يجعل الأفراد يتركون أوهام الماضي والأساطير التي عاشوا فيها، وأن يصبغ الأفراد والمجتمعات بصبغة ثورية تواجه أية دكتاتوريات أو حالات احتلال محتملة، ويجعلها تترك دور القطيع وتصبح لها قيادات ونخب محلية، بحيث لا تتيح مجالاً لاستبدال المستعمِر وذلك في إطار ما يسميه البعض "الثورة المستمرة." وفي نفس الوقت يعمل الوعي على خلق وصقل الهوية المحلية التي تأثرت بالهجمة الاستعمارية. ويعمل الوعي، كذلك، على خلق أسس لدولة بعيدة عن الغرب، يضمن فيها عدم العودة إلى تراث الماضي المتمثل بفساد النخب. غير أن فانون، ورغم دقة توصسفه لدور الوعي وأهميته، اعتمد على النخب في تحليله، وتناسى دور الفلاحين والعمال وجعلهم تابعين في عملية الوعي، كما قام بالتوحيد بين النخب، بينما هناك تضارب بين مصالحها،[37] إذ لكل فئة منها مصالحها الخاصة.

---

[35] هناك عدة أفكار مشابهة حول الموضوع طرحها ابن خلدون عندما تحدث عن العمران البشري

[36] نفس المرجع السابق، ص32

[37] هذه الأفكار مستوحاه من محاضرة للدكتور عبد الرحيم الشيخ في صيف 2006

وعن **الثورة**، فقد تحدث فانون بوصفها عاملاً مهماً في عملية الانعتاق، حيث قسم عناصرها إلى نخب وفاعلين على الأرض. ولكنه، مرة أخرى، قد تم اعطاء هذا الزخم الكبير للنخب، بينما قد تكون العناصر الأخرى كالعمال أو الفلاحين هم الأكثر فعالية في هذه الثورات. ولعل هذه تكون مشكلة كثيرين ممن حاولوا تفسير سلوك حركات التحرر على أنه تاريخ نخب، بينما في الواقع لعبت أطراف الفلاحين والعمال الدور الأبرز في حصول تغيرات بنيوية في المجتمعات المستعمَرة.[38]ومن هنا يبرز الطرح المثالي الذي وضعه فانون في رسمه صورة وردية للاستقلال عن طريق العنف، بحيث لم يتعرض إلى مخاطر استخدام العنف الذي يمكن أن يرتد إلى المجتمع نفسه، ويدمر مؤسساته، ويؤدي به إلى حروب أهلية وانشقاقات بين النخب ورفاق السلاح، وتعميق دور العامل الخارجي في خلق الأزمات. ومن ناحية أخرى، فإن حركات التحرر أثناء الثورة ليست مثل حركات التحرر في حالة الدولة بالضرورة، إذ إن "فرانتز فانون توقع مسار الأحداث هذا في الفصل الذي عقده لمزالق الوعي من كتابه ***معذبو الأرض***. لقد اعتبر أنه ما لم يتحول الوعي الوطني لحظة نجاحه إلى وعي اجتماعي بطريقة أو بأخرى فإن المستقبل لن يحمل التحرير بل تمديد الامبريالية"[39]

ومن ناحية **زوال الطبقات**، فقد طالب فانون بثورة اجتماعية تطال كافة بنى المجتمع. ولذا، فقد ارتكز على مفهوم زوال الطبقات الذي يعني القضاء على الطبقة البرجوازية التي شكلها الاستعمار، وذلك من خلال الوعي والعنف، وصولاً إلى الحالة الاشتراكية التي نادى بها، بحيث تسود المساواة بين فئات الشعب ويتم التخلي عن المقبض الأوروبي، حيث إن زوال الطبقات سيشكل مجتمعاً جديداً له هوية وطنية تعبر عنه وعن أهدافه وحاجاته بدلاً من أن يكون تابعاً للمركز الاستعماري. هذا، ويؤكد إدوارد سعيد صبغة التحليل الماركسي عند فانون، فهو يتحدث عن صراع طبقات وزوالها بالعنف وصولاً إلى المرحلة الاشتراكية، ويعتقد أن "فانون قرأ أثناء كتابته لعمله كتاب جورج لوكاش ***التاريخ والوعي الطبقي***

[38] أنظر أيضاً إلى مافيجي، أرشي. 1992. منطق العمل الوطني: حركة التحرر الوطني الفلسطينية في دراسة مقارنة مع حركات التحرر الإفريقية: من الكفاح المسلح إلى الحلول التفاوضية.ترجمة أحمد يوسف أحمد.دمشق: دار كنعان. ولإيضاح ذلك في الحال الفلسطينية، أنظر: رسالة د. رنا بركات حول دور فلاحي القدس أو "الواجهة الغربية" في أحداث 1929 وثورة عام 1936.

[39] سعيد، 1997، ص323.

الذي ظهرت ترجمته إلى الفرنسية في العام 1960، ويبين لوكاش أن تأثيرات الرأسمالية هي التجزيء واعتبار المجرد مادياً، في مثل هذا التدبير يصبح كل كائن بشري موضوعاً أو سلعة، الأمر الذي يسفر عن اغتراب نتاج العمل الإنساني عن الصانع، بحيث تختفي صورة الكل أو الجماعة على نحو تام.[40]

ومن ناحية أخرى، يتحدث فانون عن دور مهم تلعبه الطبقة البرجوازية في هذه العملية، حيث إن استمرار دورها الاقتصادي والسياسي سيؤدي بطريقة أو بأخرى إلى استمرار النظام الاستعماري. وقد دعا فانون إلى القضاء على هذه الطبقة من خلال جيش التحرير، وإلا فإن التجربة الاستعمارية ستتكرر لأن الطبقة البرجوازية مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالمركز الاستعماري، وتتوجه دائماً نحو مصالحها، وتتطلع حتى في التحرر لتخلف المستعمِر وتستبدله، إذ يؤدي وجودها إلى عدد من المخاطر التي منها نشر الفساد بين المجتمع، والسيطرة على الأحزاب السياسية، والتأسيس لنظام استغلالي يخلف الاستعمار. لذا، رأى فانون أنه يجب أن تحرر هذه الطبقة نفسها من الثنائية وأن تتوجه إلى خدمة مصالح أبناء البلد.

وأما العنصر الأخير من عناصر آلية الانعتاق، وهو **القيادة**، فقد أكد فانون أنها تلعب دوراً مهماً في نشر الوعي بين الجمهور، وفي تبرير الثورة وتبيان أهدافها وفوائدها، وخلق الجسم الوطني الجديد، وتعزيز الهوية الوطنية،[41]وتحرك الجماهير باتجاه تغيير الأوضاع، والعمل على استقطاب الجماهير، حيث تمتاز هذه القيادات في العادة بصفات كاريزماتية تجعلها ذات تأثير على الأفراد والجماعات، بحيث يكون دورها فعّالاً في نجاح الثورات. وعلى الرغم من تناول فانون للقيادات على أنها موحدة الأجندة خلال مرحلة التحرر، إلا إن كثيراً من حركات التحرر تشهد انقسامات بسبب الخلافات الشخصية بين قياداتها التي قد تكون دكتاتورية وتعتمد على الصفات الكاريزماتية والنفوذ الشخصي الأمر الذي يعتبر من عوامل ضعف هذه الحركات، إذ ليست البنى المؤسساتية هي التي تحرك الجمهور بل أفراده وقياداته. وفي اللحظة التي تقصى هذه القيادات أو تقتل فإن تأثيرها يخمد، وهذه مشكلة أكثر حركات التحرر العنفية التي تعتمد على كاريزماتية القادة، إذ الأصل أن يكون هناك بنى وليس شخوصاً بعينهم، فإذا ما

---

[40] سعيد، إدوارد، الثقافة والامبريالية، مصدر سبق ذكره،،ص326

[41] Samman,P42

اغتيل رأس الهرم، تكون هناك آليات لاختيار بديل والاستمرار في الثورة. ففي حالات كثيرة كان موت الزعيم أو أسره سبباً في توقف ثورات وحركات كثيرة كثورة عبد القادر الجزائري والخطابي وغيرهما.

وبعد أن يتم تحقيق هذه المطالب، فقد دعا فانون إلى عملية البناء الاجتماعي والاستقلال من خلال العمل على تعزيز الهوية الوطنية، وتجنب العودة إلى تبني النمط الأوروبي الغربي في الحياة سواء من ناحية الطبقات، أو من خلال الأحزاب السياسية، أو حتى من خلال نمط الحياة الذي هو نمط غريب ليس نمط أبناء البلد. لذا، يدعو فانون إلى بناء نمط جديد لا يشبه النمط الاستعماري أو لا يكمله. وهذا لا يتحقق، بطبيعة الحال، إلا عبر العوامل السابقة التي تضمن زوال الطبقات واستمرار العنف كأداة تأهيل وإعادة خلق،[42] والوعي، والثورة المستمرة، والقيادة الوطنية.

3.5 أدوات النموذج العنفي

تعتمد المنظومة العنفية بشكل أساسي على أسلحة مختلفة الأنواع، وعلى ما يتبعها من أدوات ضرورية للعمل العسكري، وهي الركيزة الأساسية في تحقيق الأهداف. ولكن كما في كل منظومة أخرى تتكون المنظومة العنفية[43] في حالة حركات التحرر من عدة محاور هي السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والإعلامية، والاجتماعية.

المحور السياسي: ويتمثل بوجود جهاز سياسي يدير دفة الأمور من خلال هرمية محددة، وتشكل في العادة من النخب السياسية والعسكرية، ويتميز أفراده بالكفاءة العسكرية، والصفات الكاريزماتية والقدرات القيادية، والدكتاتورية في بعض الأحيان كون المنظومة عسكرية عنفية لا تقبل الحوار والمجادلة. وهذه القيادة السياسية

---

[42] Kebede, Messay(2004). Africa' s Quest for a philosophy of decolonization.Amsterdam & NewYork:VIBS.P94-120

[43] انظر كذلك إلى طرابلسي، فواز. 1996. "ديمقراطية حركات التحرر". *حوار من أجل الديمقراطية*. علي الكواري (تحرير). بيروت: دار الطليعة.

تكون في العادة سرية النشاط في داخل الأراضي المحتلة، أو علنية عندما تكون في المنفى لأنها تكون عرضة للاغتيال والملاحقة، وتكون مسؤولة، أيضاً، عن تلبية الاحتياجات الميدانية مثل الأموال اللازمة لشراء الأسلحة، وتمويل النشاطات الإعلامية والاجتماعية. وقد تمثلت هذه القيادة السياسية في حالة الجزائر بجبهة التحرير، وبقادة متميزين مثل أحمد بن بيلا، وفرحات عباس، وديدوش مراد، وغيرهم.

المحور العسكري: ويتمثل بالقادة الميدانيين والأفراد المسؤولين عن تنفيذ العمليات العسكرية، وقد يتخذ هذا التنظيم شكل الكتائب والخلايا الصغيرة الموزعة على المدن والقرى، وقد يتخذ شكل الجيوش المصغرة، مثل المقاومة الفرنسية إبان الاحتلال النازي، أو مثل الجيش الجمهوري الأيرلندي. ويتميز هذا المحور بالسرية خوفاً من الأساس في العمل العسكري، فلا مجال لمناقشة الأوامر العسكرية، إذ يوجد فيه نظام عقوبات صارم يصل كثيراً إلى درجة الحكم بالإعدام على أفراده وذلك بحجج الخيانة العظمى. ويستخدم الجناح العسكري رموزاً كشعارات مشتقة من التراث المحلي أو الديني في العادة. وفي حالة الجزائر، كان الشعار العام بندقيتين وسعفتي زيتون. وقد كانت الفواعل العسكرية تعمل في الخفاء وتتنكر بزي مدني، وكانت المشاركة متذبذبة، فقد تشمل فئات المجتمع جميعها، وقد تقتصر على فئات محصورة ممن لهم خبرة في العمل العسكري والقدرات البدنية أو الذهنية. وقد كانت هذه القوات العسكرية تستخدم الريف والجبال والمناطق غير المأهولة في العادة كقواعد لها لأسباب أمنية، وتعمل من خلال المدنيين. كما كانت تتولى أمور التجنيد، والاستخبارات، وتأمين السلاح وتهريبه عبر خطوط العدو. وقد تأتمر بما تمليه عليها الإرادة السياسية، وتشن حربها بمختلف أنواع الأسلحة الحديثة والبدائية، كالقنابل والمتفجرات والصواريخ وغيرها، وتعمل على إنشاء مصانع خاصة لذلك الغرض. ومن الجدير بالذكر أن هذه القوات قد تستخدم أدوات أخرى بالحرب، مثل النساء والمخدرات والكحول والابتزاز في إستدراج أشخاص أو الحصول معلومات.[44]

أما أبرز الاستراتيجيات التي تتبعها المنظمات العسكرية، فهي: حرب العصابات، وحرب المدن، وحرب الاستنزاف، والحرب الشعبية. أما **حرب العصابات**، فتلجأ إليها حركات التحرر لأنها من أكثر الأساليب فعالية

---

[44] وردت هذه الشهادة في العام 1998 خلال مقابلة مع جورج حاوي لدى حديثه عن حرب لبنان. قناة الجزيرة.

في إلحاق خسائر في طرف العدو من مبدأ الكر والفر والمباغتة، لأن القوة المعادية الموجودة على الأرض تكون مستعدة للمجابهة بقوات نظامية كبيرة. ولذا، فإن اللجوء لهذا الأسلوب يبقى أكثر فعالية ودقة وأقل خسائر، إذ تعمل المقاومة على شكل خلايا صغيرة، ويختار توقيت العمليات بحيث يراعى عامل المفاجأة، وبحيث تضرب وتهرب من خلال الحدود أو المدن أو القرى، أو حتى خلف خطوط العدو. وقد تم استخدام هذا الأسلوب من قبل جبهة التحرير الجزائرية، ومنظمات أخرى كحزب الله والمقاومة الفلسطينية.

وأما **حرب المدن**، فهي شبيهة بحرب العصابات، حيث تستخدم فيها حركات المقاومة المدن كساحات قتال، بحيث تستدرج القوات الهجومية، أو كأماكن للمجابهة بحيث تستخدم فيها نظرية القتال من بيت لبيت ومن شارع لشارع، بحيث توقع في صفوف الغزاة أكبر عدد من الخسائر. وهنا، تكون الكمائن والأفخاخ السمة الأبرز، بحيث تبدو هذه المدن كالأفخاخ المعدة لاصطياد الرؤوس والأرواح. ولكن مشكلة هذا النوع من الحروب هو وجود الكثير من المدنيين، حيث تلجأ قوة الاحتلال إلى ضرب المدنيين، ما يحدث خسائر كبيرة في الأرواح، أو تضرب بعض المواقع التاريخية كما حدث في قلعة الشقيف التي دمرت إسرائيل أجزاء منها في حرب تموز في العام 2006. ولعل ميزة هذا النوع من الحروب أن المدن تعطي غطاءً جيداً لحركات المقاومة من حيث الخفة والتنقل والمرونة والتمويه وتوفير الدعم، والمعرفة الجيدة بالمكان وجغرافيته. وقد استخدمت قوى المقاومة الفلسطينية هذا الأسلوب في حصار بيروت في العام 1982، وفي حصار مخيم جنين في العام 2002، كما إستخدم هذه الإستراتيجية بفعالية مقاتلو حزب الله ضد الجيش الإسرائيلي في حرب تموز في العام 2006.

وأما حرب الاستنزاف، فهي الحاضنة للنوعين السابقين، بحيث تستخدم فيها حرب العصابات وحرب المدن، في استنزاف قدرات العدو وضرب ومواصلاته. وفي هذا النوع من الحروب تكون الخسائر متبادلة لأن العدو قد يستخدم نفس الإستراتيجية، وبالتالي يتمكن من إرهاق المقاومة وإنزال ضربات موجعة بها، مثل: قتل قادتها، وضرب الموارد والمعامل التي تورّد الأسلحة أو تصنعها، أو إغلاق الحدود وكهربتها كما حدث مع الحدود التونسية الجزائرية لوقف الإمدادات. وكذلك، فإن تكلفة هذه الحرب عالية جداً في الأرواح والمعدات، إذ الرهان فيها يعتمد على انسحاب الخصم تحت الضربات، ومشكلتها تكمن في انقطاع التموين والإمدادات.

وأخيراً، فإن **الحرب الشعبية**، من الوسائل الفعالة التي تعتمد على الكم العددي وعلى مشاركة كافة فئات الشعب في الثورة، بحيث تلحق الخسائر في العدو إينما كان. وفي هذا النوع من الحرب يكون الجنود من مختلف الفئات: أطفالاً وشباباً وشيوخاً ونساءً. وقد تم توظيف هذا النوع من قبل الفيتكونغ ضد القوات الفرنسية أثناء الاستقلال، وضد القوات الأمريكية في حرب فيتنام، والمقاومة الفلسطينية في أوائل عهدها، وفي انتفاضتي 1987 و 2000. ولكن مشكلة هذا النوع من الحرب أنه يجند أطفال ويجعلهم مشاركين في العمل العسكري، كما إنه يوقع عقوبات جماعية بحق السكان قد ينجح الاحتلال في تبريرها حين يصبح التمييز بين المدني والعسكري مستحيلاً.

المحور الإعلامي: وهو من الأجهزة الداعمة للجهود السياسية والعسكرية، بحيث يلعب دوراً حيوياً في تهيئة الجماهير وتجنيدها لصالح القضية، وفي شن الحرب النفسية على العدو، وفي تمرير الأوامر العسكرية، والمشاريع السياسية، وفي نقل أخبار المجهودات الحربية والاجتماعية. وتستخدم في العادة الإذاعة والتلفزيون والصحف في هذا المحور، وذلك حسب الأحوال على الأرض، فإذا كانت الرقابة شديدة وملاحقة تذيع المقاومة أخبارها من مكان ما سري، أو حتى يكون مقرها في المنفى.

المحور الاقتصادي: وهو من الأجهزة المهمة في توفير المصادر المالية للثورة، وخصوصاً شراء الأسلحة التي بدونها قد تنتهي الثورة. لذا، فإن المحور الاقتصادي هو من الأجهزة الحساسة التي تحصل على الأموال والتبرعات من المواطنين داخل البلاد وبطرق سرية، ومن جاليات موالية في الدول الأخرى. ففي تجربة الجزائر لعبت الجالية الجزائرية في فرنسا دوراً مهماً في جمع أموال لجبهة التحرير. أو قد تحصل الجهات على التمويل من مصادر خارجية، كبعض الدول المؤيدة لهذه الثورة مثل دول النفط أو الدول الشيوعية أو الإسلامية، أو حتى من أجهزة مخابرات أجنبية كما حصل في حالة أفغانستان في حربها مع الاتحاد السوفياتي سابقاً. وكذلك، فقد تعتمد الثورة على التمويل الداخلي من خلال مصادر شرعية وغير شرعية، مثل أموال التهريب وتجارة المخدرات، كما حدث في تجارب كثيرة خصوصاً في أفغانستان ولبنان.

المحور الاجتماعي: وهو من الأجهزة الثانوية الداعمة نوعاً ما حيث تتركز جهوده في إقامة نشاطات اجتماعية مثل الحفلات والمهرجانات والخطب لدعم المجهود العسكري والسياسي، ويتمثل، كذلك، في إقامة نظام من التضامن والتكافل الاجتماعي بين السكان، مثل دور الأيتام والمستشفيات والتعليم الذي يبرر الثورة، ويدعمها، ويخضع لأجندتها، إضافة إلى ما تتكفل به هذه المؤسسات من إعادة لتأهيل ما دمرته الحرب.

3.6 مراحل النموذج العنفي

لنماذج التحرر التي تنتهج أسلوب الكفاح المسلح، أو العنفي، دورة حياة، بحيث تبدأ بمرحلة وتنتهي الدائرة بمرحلة أخرى، وتتكون هذه الدورة من عدة مراحل، هي : الهدف، والاستعداد، وكسب العقول والقلوب، وتبديل الطاعة، والمناورة، والاستنزاف، والمفاوضات، وإستلام السلطة.

فمن المهم لحركات التحرر التي تتبنى النموذج العنفي أن تحدد **الهدف** المرجو من هذا النضال، ويكو ن هذا الهدف في العادة متمثلاً بالاستقلال والتحرر من الاستعمار، بينما هناك أهداف فرعية تخص كل ثورة. أما في مرحلة **الاستعداد،** فتقوم الحركات التحررية ببناء المؤسسات الإيديولوجية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بطرق منظمة وغير منظمة، وذلك لدعم الهدف وتنفيذه، نحو: تأمين مصادر تمويل وتوريد السلاح، وتأسيس إذاعات، ورسم خطط للهجوم، وتجنيد الأفراد والمؤسسات، وإقامة المستشفيات للعمل ضمن هذه المنظومة. ولعل العامل الأهم هنا هو الأدلجة، وهو ما ركز عليه فانون كثيراً عندما تحدث عن عامل الوعي، كعامل أساسي في التحرر والإنعتاق.

ومن هذه المرحلة تنتقل الثورة إلى مرحلة **كسب العقول والقلوب،** وهي من المراحل الأكثر أهمية في نجاح أو فشل أية حركات، إذ إن التحرر لا يتم إلا من خلال بعض النخب قليلة العدد، ومن هنا تأتي الحاجة إلى جماهير توفر للحركة الدعم والأفراد والموارد والاستمرارية. ولذا، فإن عملية إقناع الجماهير بالثورة وكسب تأييد ودعم ومشاركة أفراد المجتمع لا يتم بسهولة، خصوصاً وأننا نتحدث عن حرب ضروس قادمة ممكن أن يشاركوا فيها، بحيث قد يتركون منافع كثيرة من أجلها. وعليه، فإن عملية كسب العقول والقلوب تتم من خلال محركات الجماهير، حيث يستخدم القادة في برامجهم الكفاحية أو السياسية عوامل وتقنيات في توظيف الجماهير العريضة، مثل الطاعة والإقناع والعدوى، والتكرار والتأكيد،

والنرجسيات الجماعية والحبكات، وتأليفها واختلاقها، وتوظيف الدين في التحرك، واللجوء إلى التبرير والعوامل النفسية الأخرى في إقناع الجماهير.

أما مرحلة **تبديل الطاعة**، فهي من الأمور المرتبطة بالعملية السابقة، وتعتمد على مدى مصداقية الحركة التحررية بين الجماهير، وفي مدى إقناعها، بحيث تتحول هذه الجماعات في طاعتها من معاونة النظام الاستعماري إلى طاعة النخب الثورية ومؤسساتها. ومن الأمور المهمة والممكن استخدامها القيام ببعض الإنجازات الكبرى، مثل تدمير أهداف أو إيقاع خسائر كبيرة في صفوف العدو، والعمليات النوعية. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به حزب الله في حربه الأخيرة مع إسرائيل حيث استطاع أن يكسب احترام جماهير العدو قبل حلفائه ومواطنيه من خلال الشخصية الكاريزماتية التي يتمتع بها الأمين العام للحزب السيد حسن نصر الله، ومن خلال قيام الحزب بإنجازات كبيرة مثل تدمير أسطورة الميركافاه، والنيل من الأسطول البحري الإسرائيلي، وضرب العمق الإسرائيلي، وتحقيق توازن رعب لأول مرة في تاريخ الصراع مع الصهيونية وإسرائيل.

وأما **المناورة**، فهي من الأمور المهمة في نجاح أية حركة، خصوصاً وأن النظم الاستعمارية في العادة تكون مستعدة ومتيقنة من وقوع اضطرابات وثورات. ولذا، فهي دائمة الاستعداد، وتمتلك الموارد والمصادر مثل وسائل التنصت والتجسس، والعملاء على الأرض، والتكنولوجيا المتقدمة في الجو. ولا شك أن هذه العوامل من شأنها أن تحبط مخططات حركات التحرر وتجهدها قبل أوانها، من خلال عملية "الإحباط الهجومي."[45] وعليه، فإن تبديل الاستراتيجيات والمواقع والمرونة في تحقيق متطلبات الواقع، والأمن الداخلي للتنظيم من الأمور الحيوية في رسم المصير المستقبلي لهذه الحركة أو تلك. بالنسبة للجزائر وللمقاومة الفلسطينية فكثيراً ما عانت من هذه الاختراقات، لأن إجراءات القمع كانت تعتمد بالدرجة الأولى على دقة الاستخبارات والمعلومات.

---

[45] وهي زرع قوات الخصم بأكبر قدر ممكن من العملاء؛ وبالتالي إفشال هذه الحركات وضرب قياداتها ومخططاتها

ومن الاستراتيجيات والأهداف الحيوية التي تلجأ إليها حركات التحرر **الاستنزاف**، ويكون ذلك من خلال تحقيق ضربات نوعية قاصمة للقوى المحتلة، بحيث تجهدها وتكلفها غالياً، وفي نفس الوقت تهدف إلى ضرب النظام من خلال تكبيده خسائر جسيمة، الأمر الذي من شأنه أن يخلق بلبلة في صفوفه حول جدوى أعمال القمع أو استمرار الاحتلال، حيث تسبب هذه الضربات مشاكل وخلافات داخلية لدى الخصم متمثلة في جدوى البقاء في المستعمرة، ومن شأنها، كذلك، أن تدفع المركز الاستعماري ووسائل إعلامه ورأيه العام للتوجه نحو السلم والمفاوضات بدلاً من استمرار نزيف الدم والخسائر. ومن الحالات التي تبنت هذه الإستراتيجية فيتنام في حربها مع الولايات المتحدة، وكذلك فقد استخدمتها جبهة التحرير الجزائرية، بحيث لم يجد ديغول بداً من التفاوض مع جبهة التحرير والتسليم بشرعية تمثيلها.

أما **المفاوضات**، فإنه يتم التوصل إليها بعد توالي الضربات والخسائر في صفوف القوى المحتلة، حيث تلجأ الدول الاستعمارية في هذه الحالة إلى المفاوضات لسببين: الأول، أنها تريد كسب المزيد من الوقت للاستعداد وبالتالي شن حرب جديدة، والآخر، أنها تفكر جدياً في الرحيل ولكن بأفضل الشروط. وهنا يكمن الفخ في بعض الأحيان حيث إن المقاومة يجب أن تستمر حتى في ظل وجود مفاوضات لأن توقف القتال يعني موقف ضعيفاً في المفاوضات، بل أن تكثيف الضربات خلال المفاوضات يعطي المفاوض قوة أكثر للتفاوض في كثير من الأحيان، وهذا ما فعله الفيتناميون، مثلاً، في حربهم مع الولايات المتحدة، وما فعلته جبهة التحرير إذ استمرت بالإعداد وبتطهير المناطق من جيوب العملاء والمتعاونين مع السلطات الفرنسية.

وأخيراً، تأتي مرحلة **استلام السلطة** على يدي حركة التحرر، إذ تستلم الحركة المقاومِةُ السلطة بعد رحيل آخر جندي، أو بعد الاتفاق على آليات معينة للخروج كالمعاهدات، وهي الطريقة التي انتهت بها تقريباً جميع الشروط الاستعمارية، إذ لم يعرف نظام استعماري انتهي بعد القضاء على آخر جندي من خلال الحسم العسكري، بل كان التفاوض هو المرحلة التي تسبق ذلك الانسحاب، حيث تتولى الهيئة السياسية في حركة التحرر النظام وتعمل على تأميم الموارد والثروات وتعمل على انتخاب أو اختيار علم ورئيس للدولة. وهنا، وتتحول الدولة إلى مرحلة ما بعد الإستعمار، وهنا كذلك، تبدأ المشاكل الفعلية

والإرث الاستعماري، وقد تخلف المستعمر في أدواتها وأسلوب حكمها، فترث سجونه ومعداته ووحشيته كما حدث في أكثر الدول كالجزائر، أو إنها قد تتبنى نهجاً ديمقراطياً تعددياً.

3.7 خلاصة

لقد تبين من خلال هذا الفصل أن هناك أنواعاً مختلفة من العنف، منها المتعلق باللعب، ومنها العنف ردة الفعل وهو الذي تنطبق عليه حركات التحرر، ومنها العنف التعويضي وغيرها من أنواع العنف. وفي نفس الوقت لا يوجد إجماع على تعريف موحد للعنف. لذا، فالعنف وتعريفه هو أحد مشاكل الدراسة الأساسية حاله حال مفهوم "التحرر"، إذ "التحول" هو التعبير الأدق الذي يراه الباحث لوصف هذه الحالة. وعلى صعيد آخر، تستخدم حركات التحرر ومحركو الجماهير في النموذج العنفي مبررات نابعة من مصادر تاريخية وفكرية ومن النصوص الدينية ومبررات من التجربة والتراث الإنساني، ويتم تسويقها عبر آليات العدوى والتأكيد والتكرار على الجماهير. كما وتوظف لها بعض الحجج التي تعبر عن أخلاقيات العنف من قبيل أن العنف هو قوة مطهرة، أو هو عامل تنقية وتوحيد لإزالة الطبقات، وأن العنف يدل على شجاعة وأفضل السبل لمحاربة العدو، وأنه كذلك أفضل الشرور، ما إلى ذلك من مبررات وأخلاقيات. وفي هذا السياق، يمكن القول إن فانون هو أبرز مفكري هذا النموذج، وهو من أفضل من وضعوا رؤية واضحة لعملية التحرر في إبراز عناصرها وشروطها ومتطلبات نجاحها، بحيث يمكن تسميته بحق "نبي العنف." ولكن طرح فانون كان مثالياً للغاية لدرجة من شبه المستحيل تطبيقها على الواقع. فهو يدعو إلى بناء نمط جديد من الحكم والنظام الاجتماعية لا يشبه النمط الاستعماري أو لا يكمله، نظام يتحقق بزوال الطبقات عبر العنف الذي هو أداة تأهيل وإعادة خلق، والوعي، والثورة المستمرة، والقيادة الوطنية. كما إن للنموذج العنفي أدوات ودورة حياة، حيث يكون الهدف والاستنزاف واختيار الوسائل وكسب العقول والقلوب من أهم مراحل النموذج العنفي. وهو نموذج فعّال في تحقيق الأهداف ولكن تكلفته عالية جداً، ويتعارض كثيراً مع حقوق الإنسان، وإن كان على نحو أقل من الاستعمار نفسه، ولايخدمها بسبب ما يرافقه من جرائم حرب وحالات قتل للمدنيين، تحت شعار التحرر.

كذلك فإنه يشكل بيئة خصبة ويوفر العناصر الضرورية لقيام دكتاتوريات عسكرية جديدة تخلف الاستعمار بعد التحرر.

الفصل الرابع

نموذج غاندي " التحرر من خلال طرائق العمل اللاعنفي"

4.1 تمهيد

يتحدث هذا الفصل عن ثاني النماذج التحررية وهو الأقل شيوعاً في تراث الشعوب، وهو النموذج التحرري اللاعنفي، أي النموذج الذي دشّنه غاندي، وهو: التحرر من خلال استخدام اللاعنف. وسيتم في هذا الفصل الاستشهاد بتجربة غاندي في جنوب أفريقيا كحالة دراسية تعبر عن هذا النموذج، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الهند وليست جنوب أفريقيا هو البلد الذي تحرر عن طريق اللاعنف، وأن غاندي لم يكن من مواطني جنوب أفريقيا. ولكن ما يهم الدراسة هنا هو الاستشهاد بالتجربة اللاعنفية التي أسس لها غاندي في جنوب أفريقيا ومن ثم طورها في الهند، إذ المهم هنا هو أبرز مزايا هذه النموذج وأدواته وأخلاقياته ودورة الحياة التي يمر بها والمبررات التي يستخدمها، بالإضافة إلى أبرز النتائج التي أدى إليها هذا النموذج.

4.2 مبررات اللاعنف ومدارسه وأخلاقياته

من المهم قبل الحديث عن مبررات اللاعنف التطرق لموضوع صعوبة تعريف اللاعنف، والذي يشكل هو الآخر مشكلة دراسية تماماً مثل تعريف العنف، فما هي المعايير التي تفصل بين العنف واللاعنف؟ ومن الذي أقرها؟ ولتجاوز هذا الخلاف، فقد تم وضع تعريف للاعنف حسبما تبناه جين شارب، وهو "أسلوب لحشد القوى في مواجهة الخصم، وعادة ما يكون لدى هذا الخصم قدرات إدارية وإقتصادية وسياسية وبوليسية وعسكرية، ذلك أن هذا الخصم يكون عادة هو جهاز الدولة ذاته عندما تسيطر عليه نخبة معادية لمصالح الأغلبية الساحقة من الشعب، وقد يكون الخصم أيضاً جهازاً غير حكومي مدعوم من قبل جهاز الدولة."[1] واستناداً إلى هذا التعريف سيتم الحديث عن مبررات اللاعنف لدى حركات التحرر.

---

[1] نفس المرجع السابق، ص 10.

المبررات المستندة إلى مصادر دينية

ثمة نصوص دينية كثيرة تحض على دفع الظلم لدى جميع الديانات من خلال عدة وسائل، وهي نصوص متناقضة نوعاً ما لأنها تبرر العنف في مناطق أخرى. ولكن توجد نصوص تدعو إلى اللاعنف مثل "كونوا كالحيات حاذقين وكالحمام وديعين،"[2] أو "اغفر لهم لأنهم لا يدركون ما يفعلون،"[3] أو "أحبوا أعدائكم وباركوا لأعنيكم وافعلوا الخير للذين يبغضونكم وادعوا للذين يضطهدونكم."[4] هذا، وتوجد لدى الإسلام مبادئ مشابهة مثل "من قتل نفساً بغير نفس، أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً،"[5] أو "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفى له من أخيه شيئاً فإتباع بالمعروف وأداء إليه بأمان، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم."[6] وكذلك فقد ورد في السيرة النبوية الكثير من النصوص والمواقف التي تحض على التسامح العفو عند المقدرة.

المبررات المستندة إلى مصادر تاريخية

لقد جاءت هذه المبررات من بعض التجارب التاريخية، كقصة هروب بني إسرائيل من مصر هروباً من ظلم الفرعون والهجرة إلى أرض الميعاد، وذلك يمثل وسيلة الاختفاء الجماعي بمصطلحات اللاعنف الحديثة؛ وسيرة محمد النبي التي تشكل مصدراً غنياً ومهماً بالتجارب اللاعنفية، حيث استخدم النبي والصحابة في أوائل الدعوة بعض الوسائل اللاعنفية مثل المسيرات، والتصريحات العلنية، والرسائل إلى الحكام، والجهر بالدعوة، والهجرة إلى الحبشة، والاحتجاجات، والتدخل المباشر اللاعنيف، وتحرير العبيد، والصيام في شعاب مكة، والتجمع والصلاة في الكعبة على الرغم من معارضة قريش له، والحج خصوصاً في بيعة الرضوان، وما قام به النبي في فتح مكة حيث عفى عن أهلها بعد أن حاربوه طويلاً. كل هذه الوسائل وغيرها تم استخدامها ليس لغرض الفرائض الدينية فقط، بل للتأكيد كذلك على حقوق

---

[2] (متى 10:16).

[3] (لوقا 23،34).

[4] متى، الفصل الخامس 43-45). وأنظر، كذلك: كينج،مارتن لوثر.1998.قوة المحبة.ترجمة أنطوان طوق.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

[5] سورة المائدة.

[6] سورة البقرة.

المسلمين السياسية والدينية، وكنوع من الدهاء السياسي. ومن هنا تركز الكثير من الأدبيات على أن تجربة غاندي هي أساس اللاعنف، بينما هناك تجارب تاريخية في التراث الإنساني مهمة ولا بد من الاستشهاد بها، كقصة السيد المسيح نفسه، حيث إن فكرة اللاعنف موجودة منذ قدم الإنسان. وبطبيعة الحال، فإن غاندي هو من صاغ هذا الفكر وكرسّه من خلال حركة منظمة، ولكن هذا لا ينفي أهمية التجارب الأخرى التي لم يتم التركيز عليها في كثير من الأدبيات التي تتحدث عن اللاعنف. ولذا، فإن الطرح هنا من باب المعالجة التاريخية وليس من قبيل المعالجة الدينية، لذا تشكل هذه النصوص والأحداث مصادر ملهمة لمبررات حركات اللاعنف ربما غير الممنهجة.

المبررات المستندة إلى قناعات فكرية

عبر استعراض العديد من أفكار المفكرين والروائيين، وبوجه الخصوص من خلال لوك، ومن بعده المدرسة المثالية والرومانسية، فقد تبين أن الشر ليس طبيعة بشرية بالضرورة، بل هو مكتسب. وقد جاء ذلك على عكس هوبس والمدرسة الواقعية من بعده، وعلى خلاف هوبز يرى كل من جان جاك روسو وكارل ماركس أن العنف لا يمثل حالة طبيعية، فقد وجد روسو أن الطبيعة البشرية أصيلة وخيرة، وأن فسادها أمر تقرره الحضارة الإنسانية. أما دوركهايم، فقد وجد، في أثناء بحثه في الأسباب الموضوعية لإشكاليات القهر والتسلط في الحياة الاجتماعية، أن العنف ظاهرة ثقافية أتت مع رياح التطور الاجتماعي، ومع تحول المجتمعات الإنسانية من مجتمعات بسيطة إلى مجتمعات مركبة. وكذلك توجد الكثير من النصوص الأدبية والروايات التي تعزز من هذا التوجه خصوصاً لدى تولستوي، وبول فاليري، ولعل من أشهر مقولاته: "الحرب ليست سوى صراع بين أناس لا يعرفون بعضهم، يقتتلون من أجل أناس يعرفون بعضهم جيداً ولا يقتتلون أبداً."[7]

المبررات المستندة إلى ظروف بيئية

إن هذه المبررات متعلقة بعدة عوامل لا يمكن تعميمها ولكنها تلعب دوراً مهماً، وهي مرتبطة بالأفراد والجماعات، ومنها: المستوى الثقافي، والتعليم، وطبيعة المهنة، ومكان السكن، ومستوى الدخل، وعدد

[7] صليبي، وليد.2006.نعم للمقاومة لا للعنف .ط1. بيروت: حركة حقوق الناس،ص10

أفراد الأسرة، وعوامل مثل الحالة الاستعمارية نفسها، من حيث ازدياد أو انخفاض درجة العنف في المجتمع، كدرجة الحرارة، والاكتظاظ، والظروف السياسية والاجتماعية، والرفاه، الرضا الوظيفي.

المبررات المستندة إلى مقولات أخلاقية

يمكن تقسيم المبررات الأخلاقية التي تتبنها وترددها حركات المقاومة اللاعنفية إلى عدة محاور: يتعلق الأول منها بالفعالية في تحقيق الأهداف، ومن ناحية مدى الالتزام بحقوق الإنسان والقيم الديمقراطية، فيما يتعلق الثاني بالمقولة الأخلاقية، ويتعلق الثالث بالانسانية وفكرة حفظها من الفناء، ويتعلق المحورالرابع بمحاذير استخدام العنف ومخاطره. إن هذه المحاور تعبر في الوقت نفسه عن أخلاقيات هذا النموذج، حيث تكمن الخطوة الأولى كما يراها جان ماري موللر[8]من خلال "التربية الإجتماعيّة والثقافية للمجتمع الذي يثقل كواهلنا منذ قرون بموروث ثقافي يمجد العنف ويمنحه من الفضائل مثل الشجاعة والجرأة والتضحية... بحيث بدا العنف في وعينا الباطني ومخزوننا الثقافي فضيلة. فيما بدا اللاعنف نفياً لهذه الفضيلة. من هنا، فإن أولى الأولويات لناشطي اللاعنف العمل في واقعهم الاجتماعي لإحداث تغيير مفاهيمي حول المفاهيم التي يتضمنها اللاعنف. وعليه، فإنّ المقاومة اللاعنفيّة ليست مفهوما سطحياً، كما قد يظنّ البعض للوهلة الأولى، أو كما يحلو للبعض أن يصوّره، بل هي نضال له فلسفته واستراتيجياته وآليات عمله المتعدّدة والمعقّدة."[9] بينما يؤكد جين شارب، وهو من أبرز المنظرين اللاعنفيين، في موقع آخر على أن النضال اللاعنفي هو أكثر تعقيداً من العنف ويستخدم أساليب أكثر تنوعاً، حيث يستخدم الأسلحة النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمواطنين ولمؤسسات المجتمع. ويُطلِق على هذه الأساليب من الاحتجاج والإضراب واللاتعاون والمقاطعة وسلطة الشعب بأسلحة اللاعنف. هذا، ويرى وليد صليبي[10] أن اللاعنف هو فاعلية وأخلاقية معاً، والغاية منه

---

[8] مفكر فرنسي لاعنفي، أدين سنة 1969 بسبب إرجاعه بطاقته العسكرية للسلطات، بعدها تخلى عن تعليم الفلسفة ليتفرغ للأبحاث عن اللاعنف وعن كيفية وضع اللاعنف موضع التنفيذ، له العديد من المؤلفات و الأبحاث في هذا المجال لعل أبرزها بالفرنسية (إنجيل اللاعنف)،(تحدي اللاعنف)، (سيزار شافيز نضال لاعنفي)،(معجم اللاعنف)

[9] موللر،جان ماري.(1999).إستراتيجية العمل اللاعنفي. ترجمة ماري طوق.ط1.بيروت: حركة حقوق الناس،ص13-14.

[10] دكتور في الاقتصاد السياسي، حائز على دبلوم دراسات معمقة في علم الاجتماع الاقتصادي، مجاز في الفيزياء ومهندس مدني، له عدة دراسات وأبحاث اقتصادية، بالإضافة الى العديد من الترجمات والمؤلفات في حقل اللاعنف ، بادر الى تأسيس حركة حقوق الناس عام 1988 ونسق حملاتها الوطنية والحقوقية من أبرزها حملة (من اجل قانون مدني للأحوال الشخصية) وحملة (من اجل

إلغاء الظلم لا الظالم، يقول: "من جهتي لا أرى العنف يحقق أية غاية عادلة مرجوة على الإطلاق، ولسبب بسيط ليس لأنه لا يمكنه الانتصار على صاحب المشروع الظالم، بل لأنه يهزم صاحب القضية المحقة... حتى أنه يمكن القول أن لحظة قمة الانتصار العسكري على الخصم هي لحظة قمة هزيمة المناضل، إنتصرت القضية هزمت القضية، مات الملك عاش الملك، من يصل بالعنف، بالعنف يحكم. والحصيلة هزم الخصم عسكرياً، هزم المناضل إنسانياً، إنتصر العنف."[11]

ولعل من أبرز التبريرات التي يسوقها اللاعنفيون هي أن اللاعنف هو وسيلة وأخلاقية بنفس الوقت، وهنا يقول جان ماري موللر " إن العمل اللاعنفي ليس مجرد شهادة أخلاقية لا يكفي أن نناصر الحق في مواجهة الباطل، كما كتب برنانوس، بل يجب أن ننتصر على الباطل، لهذا يتطلب العمل اللاعنفي إستراتيجية قادرة على إعطائه فعالية حقيقية،"[12] وإن "الهدف من التحرك والنضال هو تغيير الظلم، وإلغائه، لا إلغاء الظالم."[13] فالظالم، على أية حال، إنسان قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً، وقد يكون من نفس الدين والقومية. ولذا، فإن تضارب المصالح في بعض الأحيان قد يؤدي إلى حالات من الظلم. وعليه، يجب البحث عن سبل أكثر إنسانية في حل الصراعات غير العنف، لأن العنف يؤدي إلى مأسي مضاعفة، وإلى عنف متبادل بالإضافة إلى تجسيد ثقافة الثأر والانتقام التي تحول الصراع الأساسي عن جوهره، وتدخله في دوامة العبث والمجهول.

وكذلك، فإن فكرة قداسة الحياة، وأن الله الذي خلق الناس ودب الروح فيهم، هو الوحيد الذي له الحق في أخذ هذه الروح، وأنه لا يجوز سلب احد هذه العطية، مهما كانت التبريرات تعتبر فكرة قوية وذات دلالة في هذا السياق. كما إن فكرة "عدم الوعي" التي افترضها الكثيرون من قبيل "اغفر لهم لأنهم لا يدركون ما يفعلون" القادمة من الإنجيل تفترض أن بعض الناس يمارسون الشر والظلم ليس لأنهم

الغاء عقوبة الإعدام) وكان سعى منذ العام 1983 مع د.اوغاريت يونان إلى نشر الفكر اللاعنفي وإستراتيجيات النضال المدني، وذلك على مستوى التدريب والإعداد والترجمة والتأليف والتخطيط الميداني خلال التحركات العامة

[11] النهار بتاريخ 16 كانون ثاني 2006

[12] موللر، مرجع سبق ذكره، ص38.

[13] صليبي،وليد. 2006.نعم للمقاومة لا للعنف .ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

أشرار، حيث يقوم بعض الأشخاص بتصرفات ليسوا بالعادة مقتنعين بها، بل لأنهم مُنقادون لزعماء يحثونهم على فعل الشرور، بحيث يكون هؤلاء أول ضحايا العنف نفسه. وكذلك يمكن النظر إلى أنه تحكمهم عوامل مثل الطاعة أو "غسيل الدماغ"، أو حتى بنى زائفة تصنعها وسائل الإعلام حول القضية، والكيفية التي يصنع بها الآخر وتشويه صورته التي يمكن تغييرها لتصبح أكثر واقعية، حتى أن كثيراً من المحاربين يقاتلون من دون أن يعرفوا ماذا يطالب الطرف الآخر، وذلك من بسبب سياسات التمويه والتضليل التي تستخدمها الدول والأنظمة الظالمة في مسيرتها. وهنا تجدر الإشارة إلى بعض الحالات التي انقلب فيها المقاتلون المشاركون في الظلم ليتحولو إلى الطرف المقابل، وربما كان أشهرهم فرانز فانون نفسه الذي كان يخدم مع الجيش الفرنسي في الجزائر، وروجيه غارودي الذي كان من الجنود المحاربين في صفوف الجيش الفرنسي، ليتحول بعد ذلك إلى أحد ابرز المدافعين عن الإسلام والقضايا التحررية، كذلك المفكر اللاعنفي الفرنسي جان ماري موللر الذي كان ممن رفضوا مواصلة الخدمة في الجيش الفرنسي بسبب حرب الجزائر.

ومن ناحية أخرى، ثمة تبريرات مثل أن العنف يؤدي إلى هزيمة المناضل إنسانياً، "فالعنف يحول المناضل من شخص مؤمن بمجموعة قيم انسانية إلى شخص قاس، بارد تخلى تدريجيا عن القيم التي يسعى إليها، الواحدة تلو الأخرى ليبرر مسيرته العنفية."[14] إذ كثير ما انحرفت حركات التحرر عن أهدافها، لأن التلازم بين الغايات والوسائل ضروري، وقد جاءت هذه الفكرة على لسان غاندي الذي قال بأن الغاية موجودة في الوسيلة كما أن الشجرة موجودة في البذرة، وإن الحروب لا تؤدي إلا إلى مصائب للإنسانية وتدمير للبشر والحجر، فليس هناك منتصر بالنضال العنفي. فالحرب العنفية مكلفة وخسائرها جسيمة، ومثلاً الحرب العالمية كلفت البشرية أكثر من خمسين مليون قتيل، وفي حرب الجزائر أكثر من مليون، بينما قد يسقط بعض القتلى في النضال اللاعنفي، ولكن ليس كما في النضال العنفي، حيث يصبح القتل عبثياً روتينيا ربما دون جدوى سياسية أو عملية. والعنف، إضافة إلى ذلك، يفرز طغياناً جديداً أثناء وبعد التحرر، وذلك نحو غطرسة السلاح، إذ يصبح بعض الرعاع يتحكمون

---

[14] صليبي، مصدر سبق ذكره، ص12.

في الأمور العامة، ويسود حكم الميليشيات وما إلى ذلك. كمايوجد خطر دائم من تحول النزعة العدوانية إلى شهوة التدمير وحب القتل أو النكروفيليا التي سبق الحديث عنها، حيث لا يسعى العنف إلى كبح جماح الخصم بل إلى تعذيبه وإبادته. وفي هذا الشأن يقول بول ريكو "يجب أن لا نخدع بوجهة العنف والغاية التي يصبو إليها ضمنياً أو صراحة، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، فالعنف يعني موت الآخر، أو شيئاً ما أسوء من موته."[15]والعنف، كذلك، يؤدي الى إحتقار الخصم ونفي إنسانيته، ومن أمثلة هذه الحالات طقوس جر العدو المهزوم بالسيارات، أو التمثيل بالجثث وحرقها، وحالات الاغتصاب التي كثيراً ما ترافق الحروب، حيث تتخذ هذه الاغتصابات شكلاً جنسياً بينما هي تعبير عن العنف. وفي المقابل، أي في النضال اللاعنفي، تحترم إنسانية الإنسان، ولا يُسعى إلى إلغائه وتدميره، ويميز ببين الأبرياء والضالعين في الظلم أو بالاحتلال.

واللاعنف، بهذا المعنى، ذو محتوى إستراتيجي، فهو أقل كلفة وأكثر ذكاءً ودهاءً في تحقيق الأهداف. وهو ديناميكية قوية في مواجهة الأنظمة والقوى الاستعمارية المجيشة بكافة أنواع العنف والقمع. لذا، فلماذا يتم تقديم خدمة لهذه الأنظمة المستعدة والمجهزة أصلاً، فتستعمل كل ترسانتها في وجه القوى التحررية، ويعمل على نوع من توازن القوى على الساحة السياسية، ويمّكن المقاومة من إحداث ضغط على الخصم، والتفاوض بوضع أفضل. كما إن اللاعنف يساعد في تجيش بعض القوى من الخصم خصوصاً "قوى الاعتدال" في الطرف الآخر، والرأي العام العالمي والذي قال عنه نلسون مانديلا مرةً بأنه يساوي جهد حاملة طائرات بحيث توجه لصالح القضية. بينما أعمال العنف ستجيش الطرف الآخر كله وتسنفره في خندق واحد لأن حياته تصبح على المحك، حيث ستبرر أعمال قمعه وتصبح دفاعاً عن النفس، وتوظف بناءً على القانون الدولي. هذا بالإضافة إلى أن العنف قد يؤدي في بعض الأحيان إلى قتل أبرياء.

---

[15] موللر، مصدر سبق ذكره، ص20.

أما من ناحية حقوق الإنسان، فإن النضال اللاعنفي يحافظ على حقوق الإنسان في العادة، وقد يتواصل ذلك من ناحية الشكل الديمقراطي وشكل الدولة بعد التحرر، حيث إن الوصول من خلال العنف والعسكر يؤدي في العادة إلى أنظمة دكتاتورية متسلطة لعل من أبرز أمثلتها الجزائر. أما بالنسبة للقيادة في الحركات العنفية، فهي في العادة دكتاتورية، بينما في الحركات اللاعنفية تكون القيادة أكثر مشاركة، ويوجد متسع للتعددية الحزبية، لأن التعدد والحلفاء من أبرز ضمانات النجاح في الحركات اللاعنفية. أما من ناحية المشاركة الشعبية، ففي النموذج العنفي يكون النضال بالإنابة عادة، ويكون لفئة معينة تمتلك صفات القوة البدنية وغيرها. حتى أنه في فكرة الحرب الشعبية ما تلبث فئات المجتمع تنسحب تدريجياً ليبقى أمر الحرب لفئة محددة. أما في النضال اللاعنفي، فيمكن أن تنضم جميع فئات الشعب إلى "المعركة" التي تأخذ شكل كرة الثلج.

وعلى صعيد آخر، يحتاج اللاعنف إلى تدريب شاق، فاللاعنف مقاومة وأسلوب حياة. بينما تحكم الحركات العنفية الأوامر العسكرية التي لا نقاش فيها ولا حولها. والعنف يؤدي إلى استنزاف قدرات المجتمع ويؤدي إلى تدمير بنيته التحتية، بينما النضال اللاعنفي يحرم الخصم من هكذا فرصة، بل يوفر فرصة لبناء مؤسسات بديلة للاحتلال أو للنظام الدكتاتوري. وفي نفس الوقت يمتاز اللاعنف بعدم السرية، ويعبر عن مطالب واضحة بالعادة، بينما تمتاز بعض النضالات العنفية ببروز بعض المصالح الشخصية التي تتستر بالقضايا الوطنية. ومن الحجج أن العنف لا يردع بالعادة بل يولد أحقاداً وإنتقاماً متبادلاً، بينما اللاعنف يؤدي إلى المصالحة. ولذا، فإنه من هذه التبريرات الأخلاقية تصوغ الحركات اللاعنفية رسالتها وحملاتها. وهنا يؤكد نهرو أقوال غاندي أنه "لم يكن اللاعنف بالنسبة لنا ولحزب المؤتمر في مجموعه، ولا يمكن أن يكون ديناً أو عقيدة أو مبدأ جامداً لا يتغير، ولا يمكن أن يكون إلا سياسة وتكتيكاً يعد ببعض النتائج، وينبغي الحكم عليه في النهاية وفق هذه النتائج."[16]

[16] نفس المرجع السابق، ص33.

4.3 جنوب أفريقيا كحالة دراسية

لا بد من الإشارة إلى أن أنه ليس المقصود من الاستشهاد بتجربة جنوب أفريقيا الحديث عن تاريخ البلد النضالي بقدر ما هو دراسة للنموذج الذي بدأه غاندي من جنوب أفريقيا. ولأن غاندي لم يكن، كذلك، من مواطني تلك البلاد، فالأجدى دراسة تجربة الهند التحررية وليس جنوب أفريقيا. ولكن لهذا الطرح مبرراته وهو المقارنة فيما بعد بالنموذج التحرري الفلسطيني الذي لا يمكن أن نخضعه، وعل نحو تطابقي، لنفس الأدوات والمتغيرات التي خضعت لها التجربة التحررية الجزائرية والتجربة التحررية الجنوب أفريقية. وكذلك، فإنه تمت المقارنة لخصوصية الحالة التحررية والاستعمارية في جنوب أفريقيا، والتي تمثلت بوجود نظام فصل عنصري، ودولة أسسها المستوطنون مستفيدين من الشرط الاستعماري لصالحهم تماماً كما فعلت إسرائيل عند تأسيسها، ولا تزال.

ولذا، فإن من المهم عدم إغفال بعض الحقائق عن جنوب أفريقيا، التي يتحدث سكانها هناك لغات محلية، حيث تشكلت الدولة من خليط من السكان الأصليين، وبعض الجاليات التي هاجرت للعمل ومنها الجالية الهندية، إضافة إلى المستعمرين الأوروبيين الذين هاجروا إلى جنوب أفريقيا أثناء احتلال هذه المنطقة، ومن العناصر البيضاء كالهولنديين، والألمان، والبريطانيين، والفرنسيين، التي شكلت خليطاً من العناصر أطلق على نفسه تسمية "الافركانيرز." لقد خلق هؤلاء لأنفسهم قومية جديدة من هذا الشتات، ويتحدثون لغة مشتقة من الهولندية ممزوجة بكلمات ألمانية وإنجليزية أطلقوا عليها لغة "الافركانرز". وقد بدأ تغلغل هؤلاء من الهولنديين المزارعين في العام 1652 حيث تسارعوا في استيطان المنطقة، وأقاموا مستوطنات معزولة وانتشروا فها، وكانت لهم لغتهم الخاصة، وانفصلوا عن البانتو الذين عاشوا في الداخل في ظروف فقر وحرمان.[17]

---

[17] بندلي، مصدر سبق ذكره، ص58.

من هنا يأتي التشابه مع ما فعلته الصهيونية في فلسطين حيث الخطاب الاستعماري التوراتي،[18]وحيث وفد المستوطنون الفرنسيون والألمان وعاشوا وسط هذه المجتمعات فيما بعد وعرفوا بالأفريكانرز Afrikaners. ومنذ مطلع سنة 1800، وصل المستوطنون البريطانيون، وجاء الهنود كعمال في زراعة قصب_السكر في أواخر القرن التاسع عشر. وفي أثناء هذا القرن جاءت أقلية برتغالية، وكان البيض قد أحضروا معهم لجنوب أفريقيا ثقافاتهم ولغاتهم من أوروبا ولا سيما البريطانيين. كما جاء الآسيويون ولا سيما الهنود بثقافاتهم. وأما البويريين فهم من أصول هولندية.[19]وبذا، ونظراً لهذا التنوع الكبير بين السكان الأصليين والمستوطنين، فقد تميزت هذه البلاد بسياسة التمييز العنصري منذ استقلالها، حيث حكم أربعة ملايين من العناصر البيضاء حوالي 29 مليوناً من غير البيض، إلا إنه تم تفكيك هذه السياسة في العام 1990 بعد صراع طويل مع الأغلبية السوداء ومجموعات مناهضة للعنصرية من البيض والهنود.

ما يهم الدراسة هنا هو تجربة غاندي اللاعنفية في جنوب أفريقيا، حيث كان التمييز بحق الهنود وغيرهم. وقد كان التحرك الأول باتجاه تغيير قوانين التمييز بحق الهنود خصوصاً بعد حادثة القطار الشهيرة،[20] حيث بدأ غاندي تحركاته الأولى وحاول أن يجمع من حوله بعض رجالات الهند هناك، حيث استخدم عدة وسائل في حركته مثل الدعاوى القانونية، وحرق الجوازات، والمؤتمرات العامة، ورفض التعاون، وسياسة ملئ السجون، والمظاهرات العمالية، وتقديم العرائض، ورفض التعامل مع القوانين الإنجليزية وتحديها. وقد كان القمع الدائم من نصيب هذه الحركات، إلا إن ظروف الحرب العالمية الأولى وتزايد نفوذ الحركة الغاندية في جنوب أفريقيا دفع بالإنجليز لأن يلبوا بعض مطالب غاندي الذي قفل عائداً إلى الهند في العام 1915 ليستقر

---

[18] أنظر الى الفصل السادس من المسيري، عبد الوهاب. (2001). الصهيونية والعنف.ط1. القاهرة:دار الشروق، 108-114

[19] لعبوا دوراً مهماً في تاريخ جنوب إفريقيا الحديث.حيث استولت إنجلترا على المستعمرة الهولندية عام 1806م أثناء الحروب النابليونية. إلا ان هذا الاستعمار البريطاني قوبل بالمقاومة من البويريين الذين رفضوا النفوذ الانجليزي، وسيطرتهم على ثروات البلاد، كذلك رفضوا تحويلهم إلى الطائفة الإنجيلية، والسياسات البريطانية التي تمنع العبودية. ففي عام 1833م، بدأ البويريون الهجرة الجماعية إلى الأراضي الأفريقية حيث انشأوا جمهوريات (ترانسفال) و (أورانج فري). عاش شعب الجمهوريتين في سلام مع جيرانهم من البريطانيين حتى عام 1867م. لكن بمجرد اكتشاف الماس والذهب في هذه الأراضي بدأ الصراع بين الجمهوريات البويرية والإنجليز. وصل القتال إلى أشده بين الجهتين عام 1899م. وبحلول عام 1900م، نجحت القوات البريطانية في السيطرة على معظم المدن البويرية. تمثلت خطورة البويريين في شنهم لبعض الهجمات المسلحة. لكن الإنجليز إستطاعوا القضاء على معظم الوحدات البويرية المسلحة. وأبرز هذه المحطات حرب البوير الثانية (11-10-1899 الى 31-5-1902). والتي غيرت من مجرى الأحداث لمصلحة الانجليز بشكل فعّال

[20] حيث تم الاعتداء على غاندي رفضه مغادرة القاطرة التي إستقلها، حيث كان يجلس في مكان مخصص للبيض.

هناك وليتمم تجربته ومشروعه التحرري في بلده الأم.[21] ولعل أهم تجربة قام بها غاندي في جنوب أفريقيا كانت مشروع "أشرام" وتعني المزرعة أو المجتمع، وهي تعبير عن إقامة مؤسسات بديلة للنظام العنصري الموجود في جنوب أفريقيا حينها، حيث حاول إقامة أول مجتمع اشتراكي جمع الناس من عدة طوائف وطبقات وأديان، وساد فيه نوع من تقسيم العمل المتساوي ليثبت أن البشر يستطيعون أن يعيشوا سوية، وأسس هناك صحيفة كانت اللسان الناطق لحركته الفتية، وحركة طالبت بتغيير القوانين العنصرية وقاومتها، وأرست الدعامات الأولى لحركة لاعنفية لعبت دوراً محوري في تحرير الهند كذلك من الاستعمار الإنجليزي.

4.4 . وجهة نظر غاندي حول مسألة التحرر

يعتبر غاندي المنظر الأساسي للمدرسة اللاعنفية، حيث قدم من خلال تجربته التحررية نموذجاً كفاحياً حديثاً نوعاً ما. فبالإضافة إلى مؤلفاته حول اللاعنف، طرح غاندي العديد من المبادئ الأخلاقية والتي يمكن تلخيصها في هذه الأسس العامة التي تختزل الكثير من أخلاقيات العمل ومحاذيره، وهي:" اللاعنف هو قانون الجنس البشري، وهو أعظم من القوة العنفية؛ أنه لا ينجح من لا يؤمن بإله المحبة؛ أنه يعطي أحسن ضمان لشرف الفرد والأمة إن لم يكن على هذه الفعالية بالنسبة لسلامة الممتلكات؛ ينبغي أن يكون صاحبه مستعداً للتضحية؛ أنه يصلح للجميع وحتى للأطفال ويجب أن يمتد إلى كافة جوانب الحياة؛ وأنه يصلح للشعب كما يصلح للفرد."[22]وبهذا الصدد يقول غاندي: "لقد رميت السيف جانباً، ولم يبق لي سوى كأس الحب يسعني تقديمها لمن يهبّون لمقاومتي. إنني أريد أن أقرن أعظم حب، بأشد مقاومة للشر."[23] وإضافة إلى ذلك، فإن اللاعنف هو رفض للجبن والخذلان وانتهاك الكرامة.

---

[21] انظر ايضاً الى غاندي، موهنداس . 1964. **قصة تجاربي مع الحقيقة:سيرة غاندي**.ترجمة منير البعلبكي.بيروت: دار العلم للملايين.

.... 1934. **المهاتما غاندي**. ترجمة مظهر إسماعيل.مصر: دار إحياء الكتب العربية

[22] كشطاني، خالد. 1986. نحو اللاعنف.القدس: المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف، ص92.

[23] غاندي، موهنداس 1964 . قصة تجاربي مع الحقيقة:سيرة غاندي.ترجمة منير البعلبكي.بيروت: دار العلم للملايين،ص 368.

وبالإضافة إلى غاندي، هناك رواد آخرون ممن لهم مساهماتهم الفكرية في هذا المجال، ولعل من أبرزهم جين شارب وجان ماري موللر ووليد صليبي الذين قدموا العديد من المؤلفات المهمة حول الموضوع تناولت مراحل وأساليب في المقاومة لعدة أنواع من الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. فمثلاً تحدث جين شارب عن تشريح النظام الموجود في سبيل بناء تحرك فاعل ضد هذا النظام والتعرف على مكامن القوة والضعف والعمل من خلالها. بينما تحدث جان ماري موللر عن الاستراتيجيات والمراحل التي يمر بها النضال اللاعنفي.[24] فيما تركز عمل وليد صليبي في أكثر مؤلفاته على العنف البنيوي والاقتصادي والمحاججات الأخلاقية والعملية لإستخدام النضال اللاعنفي في مواجهة كافة أنواع الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي[25] كون النضال اللاعنفي فكر وأسلوب حياة وأدوات يمكن استخدامها في مجال الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية أثناء مقارعة حالات الاستعمار وبعد انتهائها.

ولعل أكثر ما يعبر عن وجهة النظر هذه تحليل جين شارب[26] لطبيعة العمل اللاعنفي، حيث يرتكز تحليله على مفهوم القوة ومصادرها وتحليلها في أي مجتمع، سواء أكان هذا الوضع من قبل قوة إستعمارية أم من قبل دكتاتور محلي مع الفرق بين الجهتين، وذلك من خلال تحليل مصادر هذه القوة التي تعتمد عليها الأنظمة في ممارسة سلطاتها وفي أسلوبها للعمل، وعلى الأدوات التي يستخدمها هذا النظام، والمصادر التي تدعم هذه المنظومة، والكيفية التي يحمي بها هذا النظام نفسه. ولذا، فإن التحرك المقاوم لهذه السلطة يكمن من خلال دراسة هذه الأجزاء الحاملة للنظام وتفكيكها بالاعتماد على خلق قوة رديفة من الشعب أو من المؤسسات المعنية بتغيير الأوضاع وصولاً إلى تجريد هذا النظام من الأدوات التي تحميه وتشكله، وذلك من خلال القيام بأنشطة لاعنفية كالعصيان المدني[27] وغيره كالتمرد ورفض التعاون والمقاطعة. إن هذه الأنشطة تؤدي في المحصلة إلى تجريد النظام من مصادر قوته، وبالتالي سقوطه وتحول القوة إلى الجماهير على الرغم من

---

[24] موللر، جان ماري.1999.إستراتيجية العمل اللاعنفي.ترجمة ماري طوق.بيروت: حركة حقوق الناس، ص141

[25] حول هذا الموضوع أنظر كذلك إلى: صليبي، وليد.2005. نعم للمقاومة لا للعنف.ط1. بيروت:الهيئة اللبنانية للحقوق المدنية.

[26] عمل لأكثر من ثلاثين عاماً في مركز الشؤون الدولية في جامعة هارفرد، يعتبر من أهم المنظرين والدارسين لحركات المقاومة اللاعنفية،له عدة إصدارات ومؤلفات في مجال اللاعنف. يعمل حالياً في مؤسسة ألبرت اينشتاين للأبحاث

[27] شارب، جين 1996. أعمال الاحتجاج والإقناع. ترجمة وليد صليبي.ط1. بيروت:مركز اللاعنف وحقوق الإنسان

وجود قمع، حيث من المهم في هذا التحرك أيضاً التعرف على نظام العقوبات الموجود في هذا النظام والتحرك من خلالها لتجاوزها.

ولعل المحاججة الأكبر لدى هذا التيار أن إستخدام اللاعنف سيؤدي بالضرورة إلى تقليل فرص استخدام الخصم لكل منظومته القمعية حيث "تتميز الأنظمة الدكتاتورية باستعدادها لاستخدام العنف الذي تستطيع به سحق الحركات الديمقراطية مهما طال الزمن، وفي نهاية المطاف لا تجد هذه الحركات أمامها خياراً إلا مواجهة الحقائق العسكرية الصعبة، وهي أن الأنظمة الدكتاتورية تتفوق بامتلاكها للعتاد العسكري والذخائر ووسائل النقل وتتفوق بحجم القوات العسكرية بحيث لا تستطيع الحركات الديمقراطية برغم شجاعة أفرادها من أن تكون، في أغلب الأحيان مثيلاً لها".[28] وبالتالي يتم الوصول إلى حصر أعمال القمع وتقنينها، بينما في حال تم استخدام العنف من قبل الجماهير، فإن ذلك سيؤدي إلى تبرير استخدام الخصم لكل منظومته الدفاعية من أحكام عرفية، وإعدامات وإطلاق نار ومنع تجوال وغيرها من وسائل. وهنا تكمن قوة اللاعنف إذ يفرض قواعد معينة للعب من حيث "هذا التلازم بين الغاية والوسيلة ضروري ليس من أجل الأخلاقية فحسب بل من أجل فاعليته، إذ إن فاعلية وسيلة ما تقاس بمدى تحقيقها للغاية النبيلة التي تسعى إليها، وليس القضاء على الخصم، وتقاس بمدى إزالتها للظلم لا الظالم."[29]هنا، يكون للجماهير المطالبة بالتغيير إمكانيات المبادرة والاستنزاف والقوة، بحيث تؤدي إلى توترات وإلى حالة من الانقسام في صفوف الخصم، ويؤدي ذلك في العادة إلى إرباك الخصم، فالقوى الأمنية مستعدة لمجابهة جيوش مثيلة لها، وإنها تصاب بالإرباك عندما تتعامل مع الآلاف من الجماهير في الشوارع، ومهما تدربت على حالات القمع إلا أن زمام المبادرة تبقى بيد الجماهير العريضة في هكذا نوع من الحركات، فتقف هذه القوات في دوامة أن ترتكب مجزرة أو أن تخضع لمطالب الجماهير، وفي كلتا الحالتين هناك تهديد للنظام بأكثر ما هو تهديد للجماهير.

---

[28] شارب،جين.2003. من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، إطار تصوري للتحرر.ترجمة خالد عمر.بوسطن: مؤسسة البرت اينشتاين، ص12

[29] صحيفة النهار، 16 كانون ثاني 2006

يعتمد أسلوب اللاعنف أيضا على استمالة الخصم من خلال تحييد بعض الأطراف الفاعلة مثل رجال شرطة والجيش، أي خطوط الدفاع الأساسية التي يعتمد عليها النظام، من خلال أساليب معينة، مثل: التوجه لهم في بعض الحملات، والتهديد بمحاكماتهم، ومحاولة تحييدهم من خلال المسيرات السلمية التي تربك قوات القمع التي لا ترى مبرراً في قمع التحركات النسائية والأطفال والعجائز. وبطبيعة الحال، تختلف هذه العوامل في حالة وجود مستعمر، حيث إنه ليس بالضرورة وجود علاقة مباشرة معه، ولكن قد تؤثر هذه الوسائل في سلوك المستعمر وأفراده، فيرفضون المساهمة في نشاطات القمع أو حتى في تطبيق الأوامر العسكرية، وقد حدثت في كثير من المناطق خصوصاً في الأراضي الفلسطينية المحتلة في انتفاضة العام 1987. ولذا، فإن وسائل اللاعنف تؤدي بالعادة إلى تحييد فئات كبيرة من قوات الخصم لأنها تعتمد أساليب تؤدي إلى خلال خلق إرباك في صفوف هذا الخصم بعد أن يتعرف على مطالب هذه الفئات، حيث إن الإرباك المقصود هو إحداث حالات من عصيان الأوامر العسكرية، أو رفض التجنيد، أو رفض المساهمة في أعمال القمع من قبل قوات الشرطة أو الجيش. وهنا، يكمن اللاعنف ، فهو كما يؤثر في الأفراد ويجيشهم، يؤثر كذلك في الخصم من خلال استخدامه لأدوات سلمية غير عنيفة قد تعبر عن عدالة مطالب معينة.[30] فالحركات اللاعنفية تركز على تحليل مصادر القوة التي تتركز حسب جين شارب[31] في:

السلطة: ويعنى بها مدى شرعية السلطة القائمة، وطبيعة النظام الموجود من حيث الممارسات الديمقراطية أم الدكتاتورية، وعناصرها من برلمان وغيره؛ و**الموارد البشرية:** ويعنى بها الأفراد والمؤسسات التي تدعم هذه السلطة، وطبيعتهم من السكان المحليين أم مستوطنين، ومدى تمثيلهم، والعوامل والعلاقات التي تربطهم في النظام سواء من علاقات زبائنية أم علاقات إثنية؛ **والمعرفة والمهارات:** بمعنى القدرات والإمكانيات المادية والنفسية ومدى الاستعداد لدى هؤلاء الأفراد والمؤسسات، والعوامل التي يستمدون منها هذه المهارات مثل الجامعات، والمؤسسات الخاصة، والدعم الخارجي وغيره؛ **والعوامل غير الظاهرة:** وتتمثل في العوامل الإيديولوجية والنفسية المحركة لهؤلاء، مثل العادات والمواقف تجاه الطاعة والخضوع؛ **والموارد المادية:**

[30] Robert L. Holmes, Barry L. Gan, (N.D). Nonviolence in Theory and Practice .2Ed: Waveland Press.

[31] شارب، 2003، مصدر سبق ذكره، ص27.

وتتضمن الملكية والموارد الطبيعية والاقتصادية التي يعتمد عليها هذا النظام مثل الثروات المحلية كالنفط والضرائب وغيرها، ومن يساهم بها، والكيفية التي ممكن أن يتأثر من خلالها؛ **والعقوبات:** وذلك من خلال التعرف على طبيعة القوانين التي تحكم هذا النظام قوانين عرفية أم يوجد دستور، والمؤسسات التي تقوم بتنفيذ هذه العقوبات والجماعات الضابطة مثل منظمات حقوق الإنسان وغيرها من الاتفاقيات الموقعة مع الأمم المتحدة.

وفي هذا التحليل يوجد نقد قد يجدي في حال كان الخصم قوة استعمارية على النمط الكلاسيكي، أو حتى إن نظاماً محلياً دكتاتورياً. ولكن ماذا لو كان الخصم استعمارياً من النوع الإحلالي، ويمتلك جميع مصادر القوة بطريقة تمنع الطرف الآخر من الوصول إليها كما هو الحال في الشرط الاستعماري الفلسطيني؟ من هنا، تقتصر هذه الأدوات برأي الباحث على الأنماط الأخرى من الشروط الاستعمارية وحالات الأنظمة الدكتاتورية، بحيث يمكن تطبيقها بنجاح نظرياً، بينما هناك استثناء للشرط الاستعماري الفلسطيني، حيث يعتبر حالة خاصة جداً إذا ما أردنا أن نطبق نفس المعايير على هذه الأدوات. من ناحية أخرى، تعتمد مصادر القوة هذه التي تستخدمها السلطة على مدى تعاون الأفراد، بحيث تؤدي مقاطعتها إلى حدوث شلل تام في هذه الأجهزة، كالمؤسسات الحكومية والمواصلات العامة والمصانع وغيرها. وهنا، يوضح جين شارب الأسس البنيوية للتحركات اللاعنفية التي تقوم بها المؤسسات المناهضة للنظام القائم سواء أكان هذا النظام سلطة دكتاتورية أم نظاماً إستعمارياً، والمقصود بالمؤسسات هنا هو الوسائل والبنى المنظمة التي تستخدمها هذه المجموعات في تحركاتها، وقد تكون مؤسسات دينية أو اجتماعية كالمقاهي والأندية أو مؤسسات غير حكومية ونقابات. وتكون هذه البني مرتبطة[32] حسب: الرغبة النسبية للمواطنين في تنظيم قوتهم؛ وعدد المنظمات والمؤسسات المستقلة؛ والقوة النسبية لهذه المنظمات والمؤسسات ودرجة استقلاليتها؛ ومصادر القوة التي تملكها وتسيطر عليها؛ وحجم القوة الاجتماعية التي تملكها ويمكن أن تستخدمها؛ والقدرة النسبية للمواطنين على حجب رضاهم عن الحاكم ودعمهم له.

---

[32] شارب 1988، مصدر سبق ذكره، ص15

بعد أن يتم تحقيق هذه العوامل ويرفض الشعب التعاون مع النظام القائم، تصبح نهاية هذا النظم مسألة وقت، حيث يسحب البساط من تحتها من خلال تجفيف مواردها التي تعتمد عليها. وهنا توجد عوامل لا بد من تحقيقها إذا ما أريد لهذه الحركات النجاح، وهي مدى التزام الأفراد والمجموعات بالنشاط التي تقوم به، وبالتالي القيام بالتصعيد في كل مرحلة وصولاً إلى المرحلة النهائية وهي سقوط النظام. وكذلك فكرة كرة الثلج التي تحاكيها الحركة من حيث توسيع نطاق المشاركة بحيث تشمل أكثرية المواطنين، ووجود تجدد وابتكاريه في الأساليب المتبعة لأن الأنظمة الموجودة تعلمت كيفية الدفاع عن نفسها[33]، من ناحية أخرى التزام منهجية اللاعنف كأسلوب وحيد، إذ إن استخدام أكثر من أسلوب في التحرك يضر به ويجعل المشاركة نسبية وبالإنابة. وهنا، ثمة ضرورة لتحديد الهدف، وعمل تخطيط واقعي، وأخذ معيقات التخطيط بالحسبان[34]، واختيار الأساليب، والاستعداد لأعمال القمع ومواجهتها.

كما تنبغي الإشارة إلى أنه يوجد دور كبير للقيادة وتحديد آلية اختيارها واستبدالها في حال دعت الضرورة كحالات الاغتيال والاعتقال التي أول ما تصيب قادة التحرك. وهنا، يوجد ثلاثة مستويات للتحرك سماها جين شارب أسلحة اللاعنف:[35]الأول، يتضمن الاحتجاج اللاعنيف والإقناع؛ والثاني، هو مستوى عدم التعاون والعصيان؛ والثالث؛ هو التدخل اللاعنيف. وبذا، استخدام العديد من الوسائل للاحتجاج على الظلم الواقع، وبالتالي تكمن المطالبة بالتغيير، وفي حال لم يتم الرضوخ إلى مطالب الجماهير، يتم الانتقال إلى المرحلة الثانية التي تشمل أعمالاً شاملة من عدم التعاون والعصيان على ثلاثة مستويات: عدم التعاون السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي. ويندرج تحت كل مستوى من هذه المئات من أساليب العصيان.[36] أما في المرحلة الثالثة، فيتم التدخل اللاعنيف، وهو آخر مرحلة تشمل استلام السلطة بعد مفاوضات نهائية وبعد القيام بأعمال مباشرة مثل غارات لاعنفية، واحتلالات للأبنية الحكومية والبرلمان، والساحات العامة والمنشآت من قبل

---

[33] شارب، 2003، مصدر سبق ذكره، ص37

[34] شارب، 2003، مصدر سبق ذكره، ص42.

[35] حول هذا الموضوع أنظر الى: شارب، جين. 1997. أعمال الاحتجاج والإقناع.ترجمة سمية عبود.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس

[36] حول هذا الموضوع أنظر الى: شارب، جين.1997 . عدم التعاون الاقتصادي.ترجمة جورج مدبك.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس.

الجماهير التي قد تكون مطالبة بالاستقلال أو بتغيير النظام. وهنا ضروري أن تكون الأدوات المستخدمة متوجهة نحو الهدف، فإذا كان الهدف سياسياً ينبغي أن تكون الوسائل سياسية، وذلك نحو قيام غاندي بحرق الملابس الإنجليزية للدلالة على المقاطعة الاقتصادية.

في المقابل تقوم الأنظمة الموجودة بالدفاع عن نفسها من خلال الأدوات المتوفرة لديها وهي نفس مصادر القوة التي سبق الحديث عنها من خلال المؤسسات الحكومية كالشرطة والجيش، ونظام العقوبات كالسجون والضرائب وغيرها. هنا، تقابل هذه الحركات بالقمع الذي قد ينقلب على الدولة نفسها بما أسماه جين شارب بالجودو السياسي،[37]حيث تنقلب قوة الخصم عليه بحركة تشبه رياضة الجودو أو الايكيدو، إذ تصبح أجهزة الشرطة والجيش في خدمة المتظاهرين من خلال تحييدهم، أو حتى انقلابهم ضد النظام ليصبحوا مع المتظاهرين ضد النظام حين يرفضون تنفيذ الأوامر. وقد تكررت هذه الحالة في عدة مناطق مؤخراً في صربيا حيث سمحت قوات الشرطة والجيش للمتظاهرين بدخول البرلمان واحتلاله، وبالتالي امتنعت عن قمع الجماهير، وقد أدى ذلك إلى سقوط نظام ميليزوفيتش الدكتاتوري. من هنا، فإن نجاح أو فشل أي تحرك لاعنفي مرتبط بالدرجة الأولى بمدى التخطيط المحكم ووضوح الرؤية والأهداف الموضوعة للتحرك.

في المقابل هناك نقد لما سبق مفاده أن الأنظمة الموجودة تعلمت كيف تحمي نفسها، فهي مستعدة لهكذا تحركات، وقد تعرف تفاصيلها، ولذا، فإنها بالمقابل تسعى لإفشالها من خلال دس بعض المأجورين والعملاء الذين يزودون السلطات بالمعلومات وبخطط التحرك، فتكون مستعدة للتحركات قبل تنفيذها. وكذلك قد تلجأ الأنظمة إلى دس بعض العناصر المشاغبة لتحدث أعمال عنف لكي تفشل التحرك اللاعنيف فتحصل السلطة على مبررات أكثر لقمع الجماهير، وقد تلجأ إلى التحريض عبر وسائل الإعلام كنوع من الهجوم المضاد على هذه الحملات، أو أنها قد تخرج مظاهرات مقابلة لإفشال هكذا تحركات. إذن فالكلمة المفتاحية في هذه التحركات وما تحاول أن تقوم به كل مجموعة هو مبدأ "حرق القيادة" حيث يحاول كل طرف أن يفشل تحركات الطرف الآخر من خلال الوصول إلى مصادر القوة. فقد يقوم الخصم بإغلاق المؤسسات التي تحوي

---

[37] شارب،1988.مصدر سبق،ص19

قيادات المقاومة، وقد تستخدم تقنيات متطورة مثل التجسس والتنصت على تحركات المقاومة. لذا، فإن هذه الأمور يجب عدم إغفالها، فليس بهذه السهولة يمكن إسقاط نظام ما، بالإضافة إلى دور الدعم الخارجي في الموضوع، خصوصاً من قبل القوى الكبرى التي قد ترى أن لها مصلحة سياسية في دعم هذه الاضطرابات فتجيش لها وسائل الإعلام ومجلس الأمن كما حصل في صربيا مؤخراً.

ومن ناحية أخرى، فإن عملية تجنيد وحشد المنظمات والأفراد لهذا التحرك تحتاج إلى جهود كبيرة ومصادر وحجج إقناع، إذ عن الحديث هنا يدور حول تجنيد مؤسسات قد تكون لها مصالح مشتركة مع النظام القائم الذي سيحاول أن يرشي بعضها كنوع من الترغيب والترهيب، ولإحداث التفرقة بين الجموع، وأن يقوم بسياسة قطع الرأس من خلال ضرب القيادات ونفيها أو اعتقالها أو حتى إعدامها... كي تعزف الجماهير عن التحرك. ومقابل هذا النموذج الذي يطرحه جين شارب أو جان ماري موللر كتعبيرعن النموذج الغاندي، فإنهم يرسمون توقعاً دائماً بأن الخصم سيستخدم العنف والقمع كرد فعل على هذه التحركات، ولكن ماذا لو أن هذا الخصم إستخدم نفس أساليب اللاعنف بشكل مضاد؟ أي لو أنه تم توظيف فكرة الجودو السياسي ضد هذا التحرك لإضعاف الخصم من خلال إستخدام نفس الوسائل من خلال مرتزقة يعملون لديه، أو حتى من أناس لهم مصالح, تكمن الإجابة في أن هذا يعتمد على مدى التخطيط وعلى نوع القيادة الموجودة، حتى أن البعض يرجح كفة النظام الاستعماري في هكذا حالات مثل النموذج الاستعماري الإسرائيلي، لأن للنظام الموارد الكافية والقوة ووسائل الإعلام والجيش والشرطة والمخابرات التي قد يحبط بها ببساطة هكذا تحركات، فالمسألة نسبية وتختلف من مكان لآخر.

وفي هذا السياق، يتحدث جين شارب عن أربع آليات للتغيير من خلال اللاعنف وهي:التحول، والتكيف، والإرغام اللاعنيف، والتحلل، إذ "في فكرة التحول فإن الخصم نتيجة لممارسات حركة اللاعنف يتبنى جانباً من وجهات نظر الحركة ويقر بأن أهدافها جيدة ومقبولة. وفي حالة التكيف فإن الخصم يقرر تقديم بعض التنازلات عندما يدرك أن من مصلحته أن يفعل ذلك أو لإنقاذ ماء الوجه، أو لقطع الطريق على انشقاق داخلي. وأما في حالة الإرغام اللاعنيف، فيتم إحراز النجاح وتحقيق الأهداف رغماً عن الخصم وضد إرادته،

ويصبح هذا ممكناً عندما تنجح حركة الكفاح اللاعنيف سواء بشكل مباشر أو غير مباشر في قطع مصادر قوة الخصم بدرجة كبيرة، أي عندما تصبح إرادة الخصم مقيدة تماماً، لأسباب عديدة منها عدم السيطرة على الجماهير من خلال القمع، وعندما يصبح النظام مشلولاً، وعندما تتقلص قدرة الخصم على تطبيق القمع من خلال حالات العصيان والتمرد من الجيش والشرطة. أما في حالة التحلل فأنه عندما يتم قطع مصادر قوة الخصم بالكامل بحيث لا يمكنه البقاء والاستمرار بعد ذلك."[38]

وبالعودة إلى مصادر القوة التي سبق الحديث عنها، فإن التحرك اللاعنيف يصيبها كلها من خلال مبدأ حرق القيادة و إستبدال الطاعة،[39]حيث يقول غاندي هنا إن أي نظام موجود مثل الشجرة التي لها جذور فإذا ما قطعت هذه الجذور التي تغذي هذه الشجرة فإنها ستسقط وتموت. وكذلك تحويل الموارد البشرية إلى صالح الجماهير والمقاومة اللاعنفية، وكذلك المهارات والموارد. ويمكن في نفس الوقت أن تتحول هذه القوة إلى موقع السلطة من خلال تحويل الشرطة والجيش لصالحها دون استخدام العنف، ولكنها قد تستخدم الجيش في حفظ الأمن وحماية الممتلكات، وحتى أنها قد تستعيد نظام العقوبات مثل السجون للمواليين للسلطة، تماماً كما في حالة الانقلابات العسكرية وعمليات إستبدال السلطة، بحيث تصبح كلفة الحفاظ على النظام أو استعادته غير مجدية "وها نحن نصل إلى النقطة التي يهدم النظام نفسه بنفسه، إن المستعمرات تكلف أكثر مما تفيد."[40]من هذه المعطيات يمكن تقدير مدى قدرة وفاعلية استخدام النموذج اللاعنفي في التحرك ضد الاستعمار، او ضد حالات الظلم الاجتماعي والسياسي وغيرها.

وعلى الرغم من ذلك، يوجد جدل آخر حول مفهوم القوة المقصودة، إذ يعتبر الباحث أن هذا المفهوم من مشاكل الدراسة الأساسية، فهل تعني "القوة" القدرة على تحويل السلوك؟ أم إنها تعني القدرة على ممارسة

---

[38] نفس المرجع السابق، ص20.

[39] أنظر كذلك إلى الفصل التاسع في: شارب،جين. 2003، من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، إطار تصوري للتحرر. ترجمة خالد عمر.بوسطن: مؤسسة البرت اينشتاين، ص55

[40] سارتر، جان بول 1964.الاستعمار الجديد. ترجمة عايده وسهيل إدريس.بيروت:دار الآداب،ص37.

ضغط لإجبار الخصم على تقديم تنازلات معينة؟[41] يمكن الاستنتاج أن القوة المقصودة لدى جين شارب ذات حدين تتحكم بها عوامل عدة مثل التنظيم والقيادة والإعداد الجيد والفئات الداعمة. ووجود القوة مع أي طرف يعني قدرة أكبر على التغيير، وتعتمد بشكل أساسي على السكان وتعاونهم بشكل مباشر أو غير مباشر مع الخصم، أي "أسطورة سيد القرود."[42]فالخصم يعتمد في قوته على مؤسسات وعلى بنى يساهم الطرف الآخر فيها، بينما عندما يتم تجريد هذا الخصم من هذه المؤسسات من خلال عدم التعاون وغيره، يصبح الخصم عبارة عن مجموعة من الأفراد. فمثلاً يعتمد بعض الحكام في قوتهم في الحفاظ على نظامهم على أجهزة الشرطة والجيش والمخابرات وبعض المؤسسات الحكومية، في حين عندما تعلن هذه المؤسسات عدم تعاونها مع هذا الحاكم يصبح عاجزاً عن فعل أي شيء أمام إرادة هذا الجموع. وهنا تكمن قوة التحرك اللاعنفي الذي يستخدم أدوات اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية لممارسة الضغوط وفرض العقوبات، ولا يستخدم الأدوات العنيفة. وقد تحدث جين شارب عن أكثر من مائتي أداة للاحتجاج استخدمتها الشعوب في تحركاتها[43].

4.5 أدوات النموذج اللاعنفي

هناك تداخل كبير بين وجهة نظر غاندي حول اللاعنف، وبين أدوات النموذج اللاعنفي وأخلاقياته، حيث لا يمكن الفصل بينها إذ إنها تأتي جميعاً كمنظومة واحدة، وهو ما عناه غاندي عندما تحدث عن الشجرة والبذرة، وهذا التداخل قادم من باب أن اللاعنف هو فكر وأسلوب حياة معاً. لكنه يمكن الحديث عن استخدام اللاعنف لتفكيك النظام وتحليله، بحيث لا يصبح السجن سجناً ولا الشرطي شرطياً، حيث تعتمد المنظومة اللاعنفية في كفاحها على عدة أدوات، تماماً كما في الحروب، إذ عادة ما اصطلح عليها بأسلحة اللاعنف التي سبق الحديث عنها، إذ "إن أحد المبادئ الأساسية للاعنف هو إيجاد حجج وبراهين يمكن أن تثبت للخصم عدالة مطالبنا،

---

[41] طرح هذا التساؤل د. عبد الرحيم الشيخ خلال إحدى النقاشات في صيف عام 2006 بشأن تعريف القوة، للدلالة على إشكالية تعريف القوة.

[42] نفس المرجع السابق، ص21

[43] شارب، جين. 1997 . أشكال التدخل المباشر.ترجمة هادي حبيب.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس. كذلك انظر إلى

........، 1997 . عدم التعاون السياسي والاجتماعي.ترجمة نضال خوري.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس

يفترض اللاعنف أولاً اللجوء إلى الحوار، إنه دعوة إلى العقل في سبيل الإقناع، ونداء إلى الضمير من أجل الاهتداء، الأمر يتعلق بتوظيف كل قوة الكلمة، هذه القوة هي السلاح الأول والأخير للاعنف، لكنها ليست السلاح الوحيد."[44] حيث يوجد تقسيم عمل، ويوجد توزيع أدوار وقيادة سياسية وخطط إستراتيجية. وهي متعددة، حيث إن الابتكار والتجديد من سمات العمل اللاعنفي، ولكن يمكن حصر هذه الأدوات بمحاور رئيسية يندرج تحتها العديد من الأدوات الفرعية وهي الأدوات السياسية، وبناء القدرات، والمحور الاجتماعي والاقتصادي والميداني والإعلامي حيث تعمل جميعها جنباً إلى جنب في التحرك اللاعنفي سواء في حالة حركة التحرر، أو من خلال تغيير النظام.

المحور السياسي: ويتمثل بوجود جهاز سياسي قد يكون حزباً أو تحالف عدة أحزاب وحركات إجتماعية أو منظمات مجتمع مدني، يتم اختيار أعضائه عن طريق الانتخاب أو الاقتراع، حيث كثيراً ما تبرز هذه القيادات في خضم العمل. وبناء على الكفاءة والقدرات القيادية والولاء للهدف، يدير هذا القسم دفة الأمور، ويتولى مسؤوليات تحليل الأوضاع والتخطيط للتحركات، ويقوم بشؤون التفاوض، ويقوم بتعيين الأهداف المرجو الوصول لها بالمشاورة مع المعنيين بالتحرك والذين قد يكونون نخباً، أو عمال مصنع أو حركة تحرر. ولكن القيادة والأهداف تكون بالعادة موحدة أو حسب الأولويات، وتتشكل من بعض النخب السياسية أو من بعض القيادات الميدانية المتطورة. وقد يكون هناك تعددية على خلاف معظم الحركات العنفية التي لا تقبل إلا رأساً واحدة للقيادة، حيث إن سلسلة القيادة والأوامر تكون متنوعة حيث يكون الهرم متسلسلاً ولا يعتمد على رأس واحد.

هذا ويرفد الشق السياسي قسم بناء القدرات، وهو مسؤول عن إعداد الكوادر وتأهيلهم لقيادة التحركات الميدانية بتدريب عال يقود إلى انضباطية عالية، ويؤسس مهارات فردية، وإيمان شخصي باللاعنف، ويتم إعداد الأفراد إيدولوجياً وجسدياً من خلال الكثير من المهارات التي يتطلبها العمل اللاعنفي، مثل التفاوض، التعامل مع حالات القمع، مهارات التدريب، والتجنيد، ومهارات الإقناع، وإعداد الكتيبات والمنشورات.

---

[44] نفس المرجع السابق، ص43.

ويعتبر هذا القسم من أهم الأركان التي يعتمد عليها نجاح أو فشل أي تحرك لاعنفي، سواء في حالة حركات التحرر أو في التحركات النقابية وغيرها.

المحور الميداني: ويتمثل بالقادة الميدانيين المسؤولين عن العمليات الميدانية التنظيمية، وهم الذين ينظمون المسيرات ويحددون مجرى سيرها، ومنهم من يتولى التفاوض مع شرطة مكافحة الشغب، ويوجهون الأوامر إلى الجماهير العريضة. وقد يتخذ هذا التنظيم شكل الكتائب والخلايا الصغيرة الموزعة على المدن والقرى، إذ تستخدم بالعادة رموز كشعارات لها ولأعضائها كما في كل تنظيم مشتقة من التراث المحلي أو الديني. هذا، وتجدر الإشارة إلى أن العبء والضغط الأكبر يقع على عاتق القادة الميدانيين في التحركات اللاعنفية لأن أكثرهم يتعرضون للاعتقال والضرب، ولأعمال القمع والتنكيل من قبل قوات مكافحة الشغب. كما يتولى هذا القسم ممارسة اللاتعاون والعصيان المدني، والتدخل المباشر.

المحور **الإعلامي:** وهو من الأجهزة الداعمة المهمة للجهود السياسية والميدانية، بحيث تلعب دوراً حيوياً في تهيئة الجماهير وتجنيدها في صالح القضية، بالإضافة إلى الوصول إلى فئات وشرائح عدة في عدة دول لتجنيد الرأي العام في سبيل القضية، وفي نفس الوقت في شن الحرب النفسية على الخصم، حيث تستخدم الإذاعة أو التلفزيون أو الصحف أو اللافتات أو المؤلفات أو الترجمات حسب الأوضاع الميدانية، فإذا كانت الرقابة شديدة والقمع كذلك تلجأ إلى الأساليب السرية مثل تخبئة المطابع في مكان سري، أو البث من مكان سري كذلك، أو حتى من المنفى. ولعل من أبرز مهام المحور الإعلامي مخاطبة الرأي العام العالمي وتجنيده.
المحور الاقتصادي: وهو من الأجهزة الفرعية في توفير المصادر المالية لضمان تمويل الحملات الإعلامية وشراء المعدات اللازمة للتحركات اللاعنفية، إذ تتميز التحركات اللاعنفية بإنفاقها البسيط بحيث قد يكون التمويل ذاتياً، وذلك على عكس النموذج العنفي. فالنماذج اللاعنفية تعتمد بشكل أساسي على التمويل الداخلي من خلال أموال متوفرة لديها من مصادر متنوعة، أو من خلال التبرعات من المواطنين، في داخل البلاد أو قد تحصل على التمويل من مصادر خارجية كبعض الدول المؤيدة لهذه الثورة، أو حتى من أجهزة مخابرات أجنبية والتي قد تكون معنية بقلب بعض النظم لصالحها.

المحور الاجتماعي: وهو من الأجهزة الأساسية التي تعمل جنباً إلى جنب مع التحركات اللاعنفية الميدانية، خصوصاً المؤسسات الدينية، وبالذات الكنائس التي لعبت الدور الحاضن الأساسي لكثير من التحركات اللاعنفية من خلال التجارب التاريخية. يتمثل هذا الشق في إقامة نشاطات اجتماعية داعمة للنشاط اللاعنفي الأساسي، ومن الجدير ذكره أن هذه البنى في النموذج اللاعنفي تتحرك بشكل جماعي وفي آن واحد، بحيث تكون داعمة لبعضها، وتعتمد على الزخم الجماهيري والمشاركة الشعبية، وذلك على عكس النموذج العنفي الذي تتحرك فيه كل واحدة من هذه الأقسام على حدة، وتعتمد على قلة من المشاركين، الأمر الذي قد يؤدي إلى إحباط الثورة. وهنا، "يمكن القول إن أدوات الكفاح اللاعنيف تعتبر بمثابة تطبيقات محدودة لنظرية القوة التي تعرضنا لها، وهناك ثلاثة مستويات لأسلحة اللاعنف في إطار أسلوب الكفاح اللاعنيف، هي: الاحتجاج اللاعنيف والإقناع، وعدم التعاون والتدخل اللاعنيف، ويمكن لأسلحة اللاعنف هذه أن تغير من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل ويمكن أن تحدث تغييراً جذرياً في ميزان القوى، وهذا يشمل الاحتجاج اللاعنيف والإقناع أساساً، والأعمال الرمزية للمعارضة السلمية أو محاولة الإقناع. وتتجاوز هذه الأعمال مجرد التعبير اللفظي عن الاحتجاج إلا أنها لا تصل إلى حد اللاتعاون أو التدخل اللاعنيف. ومن بين هذه الأعمال المواكب الاجتماعية وإقامة الصلوات والملصقات والحداد والاجتماعات الاجتماعية. أما فيما يتعلق بعدم التعاون مع الخصم، فإنه يتضمن الانقطاع العمد أو تعليق أو تحدي علاقات معينة قائمة سواء إجتماعية أو إقتصادية أو سياسية. ويمكن أن يكون عدم التعاون عفوياً أو مخططاً كما يمكن أن يكون قانونياً أو غير قانوني."[45]

ويواكب هذه التحركات التدخل اللاعنيف الذي يعني التدخل في الموقف وزعزعته أو تغييره بطريقة جذرية من خلال أساليب التدخل،[46] مثل: الإضراب والاعتصام والغارات اللاعنفية. وتنقسم أساليب عدم التعاون إلى

---

[45] شارب، جين. 1988. دور القوة في الكفاح اللاعنيف. المقاومة المدنية في النضال السياسي .سعد الدين ابراهيم (تحرير). عمان: منتدى الفكر العربي،ص16

[46] أنظر إلى شارب، جين. 1997.أشكال التدخل المباشر.ترجمة هادي حبيب.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

ثلاثة أقسام: أساليب عدم التعاون الاجتماعي، وتتضمن المقاطعة الاجتماعية؛[47]وأساليب عدم التعاون الاقتصادي، وتتضمن المقاطعات الاقتصادية والإضرابات؛[48]وأساليب عدم التعاون السياسي، ويمكن أن يطلق عليها المقاطعة السياسية.[49] وإن إمتلاك هذه الوسائل وإدارتها معاً، مع عمل تحليل للوضع، ودراسة نقاط ضعف النظام التي سبق الحديث عنها في مبررات حركات التحرر، والتحرك من خلالها حسب خطة محكمة، من العوامل المهمة في نجاح أية تحركات لاعنفية.

4.6 مراحل النموذج اللاعنفي

للنموذج اللاعنفي "الغاندي" عدة عناصر تشكله، وفي نفس الوقت له دورة حياة تحدث عن أهم عوامل نجاحها جين شارب، إذ يتكون هذا النموذج من عدة عناصر صنفها المفكر الفرنسي جان ماري موللر كالتالي: "أولاً يجب أن يتم عمل تحليل للوضع، ومن ثم اختيار للهدف، وهنا خيار اللاعنف كإستراتيجية أساسية في التحرك وإعلانه كخيار وحيد للتحرر، ثم التنظيم، ثم المفاوضات الأولى والاستعانة بالرأي العام، وتوجيه إنذار نهائي، ثم بعدها التحركات المباشرة مثل عدم التعاون والإضرابات والمقاطعة والإضراب عن الطعام الجزئي، وعرقلة السير وغيرها، *تبديل الطاعة وفي نفس الوقت يكون هناك عمل بناء للقدرات والتطوير* الذاتي مثل مدارس بديلة ومؤسسات بديلة وإعداد الكوادر وطرق التدخل وتوزيع الأدوار أثناء التدخل. وهنا، يحصل القمع من قبل الطرف الآخر فتتوسع قاعدتهم الجماهيرية، ويكسبون الرأي العام."[50]

وهنا يوجه الباحث العديد من النقاط النقدية، حول التصور الذي وضعه جان ماري، حيث يخلو من بعض العناصر الأساسية كالتخطيط الاستراتيجي المرن، ومعيقاته، ورسم خطط بديلة في حال فشلت الخطط الأولى.

---

[47] انظر كذلك الى: .... 1997. عدم التعاون الاجتماعي والسياسي.ترجمة نضال خوري.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

[48] أنظر كذلك الى: .... 1997.عدم التعاون الاقتصادي.ترجمة جورج مدبك.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

[49] أنظر كذلك الى:

.... 1997.أعمال الاحتجاج والإقناع.ترجمة سمية عبود.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

.... 1996.العصيان المدني.ترجمة وليد صليبي.ط1. بيروت.مركز اللاعنف وحقوق الإنسان: شركة دار الجديد.

.... 2003. من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، إطار تصوري للتحرر. ترجمة خالد عمر. بوسطن.مؤسسة البرت اينشتاين.

[50] موللر،جان ماري. 1999.إستراتيجية العمل اللاعنفي. ترجمة ماري طوق.ط1.بيروت: حركة حقوق الناس، ص 141-204.

وكذلك فإن تحليل الوضع يجب أن يشمل الحركة اللاعنفية نفسها بما هي قادرة على فعله، وما تملكه من نقاط قوة ونقاط ضعف ومصادر، لأن الخصم أيضاً قد يستخدم نفس هذه الإستراتيجية ضد التحرك اللاعنفي، أو ما أسماه جين شارب بالجودو السياسي، فينقلب السحر على الساحر. وكذلك فإن جين شارب وجان ماري تصورا دائماً أن الخصم سيستخدم القمع والعنف لوقف التحرك اللاعنفي، بينما قد تستخدم الأنظمة وحركات الاستعمار نفس الأدوات اللاعنفية في القمع لأن هذه الأنظمة تعلمت كيف تحمي نفسها. لذا، يرى الباحث أن المراحل التي أوردها جان ماري موللر يجب أن تكون بالترتيب التالي.

1. **تحليل الوضع:** ويشمل دراسة الخصم والمجتمع نفسه بالتوازي، بحيث يكون هناك معرفة لنقاط القوة والضعف لكلا الطرفين، والمصادر التي يعتمد عليها كل طرف، ودراسة نظام العقوبات ومعرفة مدى تعامل الناس والجماهير معه وما يؤثر بها أكثر. وكذلك ثمة ضرورة للتعرف على الحلفاء الداخليين والخارجيين والعوامل التي تتحكم بهم، بحيث لا ينقلبوا في خضم التحرك؛ وضرورة وجود تصور حول الأساليب المستخدمة، ومدى استدامتها، والمرونة في تطوير هذه الأساليب، وتصور عن شكل الدولة بعد التحرر من حيث الديمقراطية وغيرها؛ وعمل دراسة عن الطبقات والشرائح التي يتكون منها المجتمع والعوامل التي تؤثر فيها على نحو يشبه العمل الاستخباري، ولكن بشكل لاعتفي.

2. **اختيار الهدف:** يجب اختيار الهدف المنشود بناءً على تحليل الوضع. ويشكّل اختيار الهدف عاملاً أساسياً في التحرّك؛ فالنجاح أو الفشل رهن به وحده. وفي هذا الصدد، تُعتبر ضرورةً إستراتيجية أن يكون الهدف واضحاً ومحدّداً ومحدوداً وقابلاً للتحقيق(SMART). وينبغي لهذا الغرض التمييز بين ما هو واقعي وما هو خيالي/ فاختيار هدف خيالي وغير متناسب مع القوى الموجودة على الأرض من شأنه الحكم على هذا التحرّك بالفشل.

3. **خيار اللاعنف:** "إنّ خيار اللاّعنف خيار استراتيجي يقتضي أن تكون كل الأعمال التي يتم اللجوء إليها لا عنفيّة. فالإستراتيجية في العمل اللاعنفي لها فعاليّتها الخاصة ولا يمكن لأي عمل عنفي إلاّ

أن يعارضها ويؤدّي في نهاية المطاف إلى إفشالها. فعندما يتواجد العنف واللاعنف في فسحة نضال واحدة، تكون الغلبة للعنف الذي يفرض منطقه. إذ لا يُعتبر النضال القائم على 90% من الأعمال اللاعنفيّة و10% من الأعمال العنفيّة نضالاً لا عنفياً ينطوي على 10% من الأعمال العنفيّة، بل يُعتبر نضالاً عنفياً ينطوي على 90% من الأعمال اللاعنفيّة."[51]وهنا يقول بول ريكور "إن الشرط الأول الذي ينبغي أن تستوفيه عقيدة اللاعنف هو أن تكون قد اجتازت عالم العنف بكل عمقه." [52]

4. **خيار التنظيم:** العمل اللاعنفي يعتمد بشكل أساسي على التنظيم، وهناك مسؤولية كبيرة على الأفراد والجماعات المشاركة في النشاط، وهذه المسؤولية تقع على عاتق القادة الميدانيين، أي عليه أن يسمح للجميع بالمشاركة فعلاً في تحمّل المسؤوليات واتّخاذ القرارات. وفي نفس الوقت فإن النتيجة مرتبطة بمدى التخطيط الجيد للتحرك الذي قد يسمح أو لا يسمح بحدوث تجاوزات هنا وهناك. وكذلك، فهناك ضرورة لوجود حس أمني لدى هذه الحركات خصوصاً وأن الخصم سيلجأ إلى عدة محاولات للاقتحام عبر عدة عملاء له متخفيين سيحاولون إفشال المخطط والتحرك اللاعنفي عبر ممارسة أشكال متنوعة من العنف. ولذا، فإن التنظيم يجب أن يكون محكماً في هذه القضايا.

5. **المفاوضات الأولى:** يجب الدخول في أسرع وقت ممكن في علاقة مباشرة مع الخصم قبل نقل الخلاف إلى الساحة العامة، وذلك بغية اقتراح حلٍ تفاوضي للنزاع معه بدلاً من اللجوء إلى عرض القوة. فالتحرّك اللاعنفي يفضّل دائماً الحوار ويهدف إلى خلق ظروف مناسبة له. ويتعيّن علينا خلال المفاوضات الأولى أن نفسّر لممثّلي الفريق الخصم الاستنتاجات التي أوصلنا إليها تحليل الوضع وأن نعرض مطالبنا محدّدين الهدف المنشود. ويمكن، وحتى يكون مرجحاً، أن يرفض الخصم من البداية أي تفاوض. وحتى لو وافق على مقابلتنا، من النادر أن يتم التوصّل إلى اتفاق فوراً. غير أنّ هذه المفاوضات الأولى تسمح باختبار نوايا محاورينا. وإن كان من المهم تفادي أي موقف من شأنه

---

[51] نفس المرجع السابق، ص148.

[52] موللر، جان ماري. 2005. مراحل العمل اللاعنفي.بيت لحم مؤتمر هولي لاند ترست حول المقاومة اللاعنفية. بتاريخ 27-12-2005 .

زيادة حدّة الصراع وتعزيز العقبات الموجودة، ما يزيد من صعوبة التوصّل إلى حلٍ، غير أنّه يبقى مهماً أيضاً إظهار حزم وتصميم كبيرين.

6. **الاستعانة بالرأي العام:** "عند فشل المفاوضات الأولى، يجب العمل بجهد على فضح الظلم للرأي العام بواسطة كل وسائل الاتّصالات والإعلام والتوعية التي يمكن الاستعانة بها. إذ ينبغي تأمين الحد الأعلى من "الدعاية" بالمعنى التقني للكلمة، أي الوصول إلى أكبر جمهور بغية إطلاعه على أسباب التحرك وأهدافه. تقوم تركيبة إستراتيجية العمل اللاعنفي على "مثلّث للصراع". أي أنّ الصراع لا يقتصر على لاعبين أساسيّين بل على ثلاثة: فمن جهة أولى لدينا المقاومون، ومن جهة ثانية لدينا الخصوم الذي أسمّيهم "المقرّرين"، أي أولئك الذين يملكون سلطة القرار للاستجابة إلى مطالب المقاومين. لكن يبقى لاعب ثالث وهو الرأي العام (قد يكون الرأي العام المحلي، الرأي العام الوطني و/أو الرأي العام الدولي حسب طبيعة الصراع. بالنسبة إلى خصومنا، ينبغي أن نقنعهم إن أمكننا ذلك وأن نرغمهم إن تعيّن علينا ذلك. أمّا الرأي العام فهو يحتل موقع الطرف الثالث في الصراع، الطرف الثالث الذي يُطلب منه تأدية دور الحكم. ويتعيّن على المقاومين في إطار مثلّث الصراع هذا إقناع الرأي العام بشرعيّة قضيّتهم وأحقيّة مطالبهم. ويجب بالتالي إعلام الرأي العام ومناشدته وتوعيته وتعبئته حتى يقف إلى جانب المقاومين ويدعمهم. والهدف المنشود من خلال ذلك هو الضغط الذي يمارسه الرأي العام على المقرّرين حتى يعترفوا بحقوق المقاومين. أمّا المقرّرون من جهتهم، فسيحاولون أيضاً استمالة الرأي العام. وسيحصل المنتصرون في "معركة الرأي العام" على كلّ الفرص الممكنة لكي ترجح كفّة ميزان القوى لصالحهم. وهذه التحركات تعتمد على وسائل الإعلام، وعلى التدخل المباشر بما يحتويه من عناصر"[53]

وهنا لا يمكن التقليل من قيمة الرأي العام وأهميته، ولكن ليس إلى درجة الاعتماد عليه خصوصاً عندما يكون الخصم قوى استعمارية كبرى، حيث إن الرأي العام من السهل التلاعب به، وفي نفس الوقت فإنه غير موضوعي في الغالب، إذ تتحكم به وسائل الإعلام التي تتحكم بها رؤوس الأموال،

[53] نفس المرجع السابق، ص147.

حيث قد تغطي هذه الوسائل بعض الأخبار، أو تمارس عقوبات مثل معاداة السامية وغيرها على الصحفيين في حال نشروها. وكما هو الحال مع سيكولوجيا الجماهير، فإن الرأي العام تحكمه مجموعة من العوامل التي قد يتأثر بها، ما يجعل من الاعتماد والتعويل عليه خطورة في بعض الأحيان. وكذلك الأمر بالنسبة للأمم المتحدة من حيث ازدواجيتها، وعدم تطبيق قراراتها، أو تسييس قضايا حقوق الإنسان والديمقراطية لغرض تغلغل بعض القوى الكبرى في دول ومناطق معينة.

7. **توجيه إنذار نهائي:** بعد المواجهة مع الخصم الذي قد يكون سلطة دكتاتورية أو قوة استعمارية، تأتي مرحلة توجيه مهلة وإنذار نهائي، تبدأ من بعدها الجماهير في الانتقال إلى التحرّك المباشر. فبعد فشل وسائل إقناع الخصم بأنّ عليه القبول بالمطالب التي رفعت إليه، يجب اللجوء إلى وسائل الضغط التي تهدف إلى إرغامه. ويعتبر الإنذار النهائي المحاولة الأخيرة للتفاوض بغية التوصّل إلى اتّفاق وبداية عرض القوة. ومن المرجّح أن يرفض الخصم الاستسلام أمام ما يجب تسميته التهديد وما سيعتبره ابتزازاً غير مقبول. ولذا، سيرفض الإنذار مؤكّداً أنّه لا يخشى عرض القوة. وينبغي في هذا الإطار الاستفادة من المهلة التي يعطيها الإنذار لتسريع التحضيرات الضرورية للتحرّك. كما ويشكّل الإنذار أيضاً بالنسبة إلى الرأي العام إشارةً لبدء التحرّك.

8. **التحركات المباشرة:** وتشمل عدم التعاون بكافة عناصره وأدواته، والعصيان المدني، والمقاطعات وغيرها من الأساليب التي سبقت الإشارة إليها وصولاً الى حالة الجودو السياسية بعد أن تكون الثورة قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة.[54]

---

[54] انظر أيضاً إلى شارب،جين. 1986.المقاومة اللاعنفية. ترجمة مبارك عوض.القدس : جمعية الدراسات العربية.

كذلك إلى .... 1997.أعمال الاحتجاج والإقناع.ترجمة سمية عبود.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

.... 1996.العصيان المدني.ترجمة وليد صليبي.ط1. بيروت.مركز اللاعنف وحقوق الإنسان: شركة دار الجديد.

9. **البرنامج البنّاء:** ويتمثل بالقيام بإنشاء بعض المؤسسات الرديفة والبديلة للتي يشكلها النظام أو السلطة الاستعمارية.[55]

10. **القمع:** إذ من الطبيعي أن ترد قوى الخصم على التحركات اللاعنفية بالقمع الشديد، لذا فمن المنطقي أن تدافع هذه السلطة عن نفسها بوسائلها الخاصة، أي وسائل القمع. لكن خلافاً لما قد يظنّه البعض، "فإنّ التحرّك اللاعنفي أفضل تسلّحاً من التحرّك العنفي لمواجهة وسائل السلطة هذه. إذا لجأت إلى العنف فأنا لن أخلق جدلاً في الرأي العام حول الظلم الذي أحاربه بل حول العنف الذي أرتكبه. ولن تتكلّم وسائل الإعلام عن الحوافز السياسيّة التي ألهمت عملي بل عن الأساليب التي لجأت إليها للتصرّف. وسأكون المكسّر في نظر الرأي العام الذي لن يقبل فحسب، بل سيطالب بأن أسدّد ثمن ما ارتكبت، لذا ستتمكّن السلطة من استعمال كلّ الوسائل المتاحة لها بحقي. فأنا أقدّم للسلطة القائمة من خلال لجوئي إلى العنف كلّ الحجج التي هي بحاجة إليها من أجل تبرير العنف الذي تلجأ إليه بوجهي. بينما أقوم بقلب الأدوار من خلال التزامي بأساليب العمل اللاعنفي: لو لجأت إلى العنف، لحشرت نفسي في موقع دفاعي إذ يتعيّن علي أن أبرّر نفسي أمام الرأي العام الذي يتّهمني. بينما لو لجأت إلى اللاعنف، فسأحشر السلطة القائمة في موقع دفاعي إذ سيتعيّن عليها في هذه الحال أن تبرّر العنف الذي ترتكبه أمام الرأي العام." [56]ولذا، فإنّ القمع الممارس ضد أشخاص لاعنفيّين يدافعون عن قضية عادلة من خلال وسائل عادلة يبقى غير مبرّر وغاية في الوحشيّة، وهو يشوّه سمعة المسؤولين عنه ويقوّي الجمهور الداعم للتحرّك اللاعنفي، لا سيّما وأنّ الجدل العلني المتأتّي عن تحرّك لاعنفي يطال مباشرةً القضية المدافع عنها التي تظهر محقّة جداً.

11. **المفاوضات الأخيرة:** "تشكّل المفاوضات عرض قوّة وليس حواراً يجري في ظل الثقة المتبادلة، وذلك حتى عندما نتأمّل بشكل معقول أن تفضي هذه المفاوضات إلى اتّفاق. لذا، من المهم "البقاء

---

[55] ....(د.ت.ن.) البدائل الحقيقية الموجودة.ترجمة مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف: مؤسسة ألبرت اينشتين.

[56] موللر، جان ماري.2005. مراحل العمل اللاعنفي.بيت لحم مؤتمر هولي لاند ترست حول المقاومة اللاعنفي بتاريخ 27-12-2005

متأهّبين" وعدم وقف التحرّك وعدم قول أو فعل أي شيء من شأنه إنهاء تعبئة المناضلين والرأي العام، إذ ستكون إعادة تعبئته لاحقاً غاية في الصعوبة. ولا شكّ في أنّ "إعلان الانتصار" قبل الأوان هو أسوأ ما قد يحصل. فقد يكون عرض المفاوضة فخاً يُنصب للمناضلين بهدف تشتيت تصميمهم. ومن هنا، ينبغي توخّي أقصى درجات الحيطة. وقد ينبغي قبول تسوية ما تسمح للخصم "بحفظ ماء الوجه." لكن يجب عدم التخلّي عن أي نقطة أساسيّة بذريعة التوصّل إلى تسوية مماثلة. إذ إنّ تلك التسوية ستساوي بين ضحايا الظلم وبين المسؤولين عن ارتكابه. لذا من المهم أن يكون الانتصار ملموساً. فيمكن البدء بالاحتفال حينئذ."[57]

12. **استلام السلطة من القاعدة:** وهي من المراحل المهمة حيث عندما يرضخ النظام السابق ويحل نفسه أو يخضع لمطالب الجماهير، إذ يصبح هناك تساؤل حول الخطوة التالية واستيعاب النصر بالمصطلحات العسكرية. لذا، فإن الأهداف الموضوعة في الخطة الإستراتيجية العامة تكون من الأمور المهمة في هذا السياق حيث تتوقع الخطة هكذا إجراء وتتنبئ به. ولكن هناك محاذير في هذا السياق حيث أن بعض القضايا أو الصراعات قد تنفجر بحيث لا تكون مأخوذة بالحسبان، مثل الصراع على السلطة بين رفاق الدرب أو الصراعات الطائفية والمحاصصات وغيرها. ولمن هذه لها بعض الإيجابية كذلك، إذ من خلالها سيختبرون إدارة شؤونهم الخاصة وسيتعلّمون الإدارة الذاتية.

13. **التنظيم السياسي:** ويتمثل هذا بخطر عودة الديكتاتورية، وفي نفس الوقت ثمة ضرورة لتأسيس نظام ديمقراطي لأن عدم القيام بذلك من شأنه العودة بالأمور إلى مربعها الأول، وبالتالي إستبدال الفرعون الخارجي بآخر محلي، أو دولة ما بعد استعمارية، كما تحدث وحذر فانون في نموذجه، حيث قال بأن جميع الصراعات الدفينة ستعاود للظهور في حالة الدولة. ومن هنا تأتي ضرورة إرساء دعائم لنظام ديمقراطي على أساس علماني، تكون السيادة فيه للقانون وليس على أساس عشائري أو طائفي.

---

[57] نفس المرجع السابق.

14. **استلام السلطة:** وهي من المراحل المهمة التي ينبغي أن يتم فيها الانتقال بطرق ديمقراطية بحيث تكون الانتخابات الإجراء الأول الذي تقوم به هذه الحركات بعد رحيل الأجنبي أو الدكتاتور، وذلك لأن عدم القيام بذلك معناه الفوضى وعودة الأحزاب القديمة أو الموالية للغرب، بينما إقامة انتخابات وإعادة هيكلية لأجهزة الدولة الجديدة من شانها إنتاج العكس.

15. **الثورة المستمرة:** لا تنتهي الثورة مع استلام السلطة السياسيّة، فليس استلام هذه السلطة سوى لحظة في ثورة لن تنتهي يوماً لأنّ الثورة يجب أن تكون دائمة على نحو يضمن أن لا تكون الديمقراطية المخترعة شكلية أو القيام بلعبة الانتخابات.[58]وهذه الصيرورة من الثورة المستمر والتجديد من الضمانات المهمة في عدم عودة الدكتاتوريات أو الأنظمة الاستعمارية.

4.7 خلاصة

النموذج اللاعنفي "غاندي" هو النموذج النقيض للنموذج العنفي "فانون." إن مدارس هذا النموذج، المتمثل في غاندي، وأدواته وأخلاقياته ترتكز على ترابط الغاية والوسيلة، وإلغاء الظلم لا الظالم، والحفاظ على إنسانية الإنسان. ولعل تجربة غاندي في جنوب أفريقيا من أهم التجارب اللاعنفية التي تطورت فيما بعد لتتخذ شكل النموذج اللاعنفي بالأدوات والأخلاقيات والحجج المستخدمة. فالقصد من الاستشهاد بتجربة غاندي في جنوب أفريقيا كان للدلالة على وجود هذا النموذج، وبالتالي مقارنته من حيث الأدوات المستخدمة والمؤسسات التي تم بناؤها والاستراتيجيات المستخدمة في التحركات التي تكون مجدية في الحركات الاجتماعية المطالبة بالتغيير، وكذلك في حركات التحرر من الاستعمار.

وقد تم الحديث عن أبرز المراحل والأحداث في جنوب أفريقيا للدلالة على هذا النموذج. وفي غضون ذلك أثبتت الدراسة وجود خلاف حول مفهوم اللاعنف نفسه مثل مفهوم العنف، وذلك بسبب عدم وجود

---

[58] جقمان، جورج . 1993. الديمقراطية في القرن العشرين:نحو خارطة فكرية.رام الله: مواطن– المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

تعريف موحد لما يعنيه اللاعنف، وصعوبة وجود معايير موحدة لما هو عنف ولما هو لا عنف. فاللاعنف هو منظومة نضالية وأخلاقية ومدرسه فكرية ترتكز على عدة بنى مختلقة مثل النموذج العنفي، وهذه يتخللها تقسيم عمل وتبدل في الأدوار، وتختزل كل منها العديد من أساليب النضال وعدم التعاون والعصيان والتدخل اللاعنيف. وفي النضال اللاعنيف، تتحرك هذه المؤسسات كبنية واحدة وتتفاعل فيما بينها، على عكس النضال العنفي، بحيث إذا ما ضرب الرأس أدى ذلك إلى إنهيار الهرم كله.

كما إن لهذا النموذج مراحل عديدة، تتمثل في: عمل تحليل للوضع، ومن ثم اختيار للهدف، وهنا ثمة ضرورة لاختيار اللاعنف كإستراتيجية أساسية في التحرك وإعلانه كخيار وحيد للتحرر، ثم التنظيم، ثم المفاوضات الأولى والاستعانة بالرأي العام، وتوجيه إنذار نهائي، ومن بعد ذلك تأتي التحركات المباشرة مثل عدم التعاون وتبديل الطاعة، والمؤسسات البديلة. وعليه، يمكن القول إن النموذج اللاعنفي يؤدي بالعادة إلى ديمقراطيات وإلى الالتزام بحقوق الإنسان بسبب الأدوات المستخدمة في النضال، وذلك على عكس النموذج العنفي. كذلك يؤدي هذا النموذج إلى تغيرات جذرية في شكل الدولة بعد التحرر، وهو من الأساليب الفعالة في مواجهة القوى بحيث يجفف مصادر قوتها ويحرمها من استخدام كافة ترسانتها الثقيلة، ويفرض قواعد اللعب وساحة المعركة بحيث يكون له الامتياز.كما يوجد لهذا النموذج نقاط ضعف تتمثل في انخراط بعض العناصر العميلة بالتحرك، وخطر إستخدام العنف الأمر الذي قد يفشل التحرك، وخطورة رجوع الدكتاتوريات والنظم الاستعمارية إلى الحكم مستفيدة من الأخطاء السابقة.

الفصل الخامس

نموذج إدوارد سعيد: التحرر من خلال طرائق العمل العنفي واللاعنفي في آن

5.1 .تمهيد

سيتحدث هذا الفصل عن ثالث النماذج التحررية وهو نموذج مفترض[1]، وهو النموذج التحرري الخليط الذي يجمع ما بين الدعوة إلى المقاومة المسلحة والمقاومة اللاعنفية كحقين معترف بهما يمكن للشعوب الواقعة تحت الاحتلال استخدامهما حتى التحرير، وهو النموذج الذي أسماه عبد الرحيم الشيخ "نموذج فاندي"، من دمج فانون وغاندي. وسيتم التدليل على وجود هذا النموذج من خلال الاستشهاد بنموذج النضال الفلسطيني كحالة دراسية، واعتبار إدوارد سعيد منظراً أساسياً له، حيث عبّر في كثير من الكتابات عن هذه الثنائية الكفاحية، وبررها من خلال الاستناد إلى القانون الدولي الذي يعطي للشعوب الواقعة تحت الاحتلال الحق بالمقاومة بكافة الوسائل. فليس المقصود هنا الحديث عن فكر إدوارد سعيد وحسب، بل التركيز على النموذج الكفاحي الذي دافع عنه إدوارد سعيد، وسيتم الحديث في هذا الفصل عن أهم سمات هذه النموذج، وأدواته وأخلاقياته، ودورة الحياة التي يمر بها، بالإضافة إلى المبررات التي يستخدمها هذا النموذج، والنتائج التي يمكن أن يؤدي إليها من خلال الحديث عن خصوصية النموذج التحرري والشرط والاستعماري الفلسطيني.

5.2 مبررات هذا النموذج

يمكن التبرير لاستخدام هذا النموذج من خلال الحديث عن أهمية أطروحات سعيد حول مسألة التحرر، فإدوارد سعيد يطرح للقارئ نموذجاً كفاحياً لا يقل في أهميته عن أطروحات فانون أو غاندي، اللذين تناولا البنية التحتية للحالة الاستعمارية، بينما ذهب إدوارد سعيد بعيداً في تحليله للبنية الفوقية المشكِّلة للحالة الاستعمارية نفسها؛ وذلك من خلال نقد الخطاب والنصوص والعلوم الغربية التي مهدت لهذا الشرخ بين الغرب والشرق، وأدى إلى الاستعمار. وكذلك من خلال نقد الآليات التي تصنع بها المعرفة في الغرب، واليات صناعة الآخر؛ وتفكيكه لطبيعة الحركات الاستعمارية والنصوص التي ساقها من خلال الاستشراق

---

[1] اقترح د. عبد الرحيم الشيخ في العام 2006 فكرة هذا النموذج ، واستخدام ادوارد سعيد كمنظر أساسي. ولمزيد من التفصيلات، أنظر: عبد الرحيم الشيخ. "إدوارد سعيد: مقولات نقدية على (مابعد) الحداثة،" فلسطينيات، العدد 5، 2008، ص 125-133.
وانظر كذلك: Al-Shaikh, Abdul-Rahim, ‘QUI A TUÉ LE SERPENT?: MÉMOIRES PALESTINIENNES, SOUVENIRS JUIFS,’ in A. Hanieh (ed.) *Palestine: Rien ne nous manque ici*. Brussels: Revue Ah!-Université Libre de Belgique, 2008, 91-114.

والتحليل النقدي للنصوص. وعليه، فليس صدفة أن يعتبر ادوارد سعيد موجداً لدراسات ما بعد الاستعمار. ومن ناحية أخرى، فإن دور إدوارد سعيد البارز في الدفاع عن القضية الفلسطينية، ليس لكونه فلسطينياً أو قومياً، بل لتحيزه الدائم لقضايا الحرية. ونتيجة لهذه المبررات تم الاستناد إلى إدوارد سعيد كمفكر ممثل لهذا النموذج الذي يستند في أخلاقياته ووسائله إلى القانون الدولي وإلى آراء فانون وغاندي معاً بتناسب قد يشبه التناقض في بعض الأحيان: فهو يبرر أعمال العنف من قبل الواقعين تحت الاحتلال، ويضعها في سياقها التاريخ، ولكنه يشترطها وفق آليات وأخلاقيات محددة بحيث لا تتجاوز قواعد الاشتباك؛ وفي نفس الوقت يؤيد المقاومة السلمية ولكن يضعها وفق آليات وأخلاقيات محددة، ليشكل نموذجاً خليطاً، وليعبر عن ثنائية كفاحية بحد ذاتها لها مبرراتها التي سيتم الحديث عنها من خلال خصوصية النموذج الكفاحي الفلسطيني، وخصوصية النموذج الاستعماري الإسرائيلي. فإدوارد سعيد يتكلم عن منطقين وعن حقين قد يبدوان متناقضين، منطق وحق المقاومة بكل الوسائل، ومنطق الحفاظ على حقوق الإنسان والقانون الدولي المفترض انطباقه على كل ضحية كل جلاد بغض النظر عن هويته الدينية أو العرقية.

5.3 **فلسطين كحالة ونموذج**

لقد سبق الحديث في الفصل الأول عن أهم الحقب التاريخية التي مرت بها فلسطين التاريخية، والتغيرات المفصلية التى حدثت للمجتمع الفلسطيني، وكيف كانت بدايات التغلغل والمشاريع الصهيونية والاستيطان وصولاً إلى العام 1948، حيث أقيمت إسرائيل على أنقاض فلسطين: جغرافياً، وديمغرافياً، وثقافياً، بينما خضع قطاع غزة للسيطرة المصرية، والضفة الغربية والقدس الشرقية للسيطرة الأردنية،[2]وصولاً إلى العام 1967 حيث ضمت إسرائيل لها ما تبقى من فلسطين التاريخية تحت اسم دولة إسرائيل، إلى أن جاءت السلطة الفلسطينية في العام 1994 لتشكِّل سلطة وكيلة عما سبقها من سلطات دون أن تتحرر فلسطين ودون أن ينتهي الاحتلال.

---

[2] كشفت الوثائق الصهيونية مؤخراً عن وجود اتفاقات واتصالات سرية بين الملك عبد الله وغولدا مائير تم التفاهم من خلالها على حصول الأردن على الضفة الغربية والقدس مقابل الحياد، ويدلل ذلك تسليم الملك عبد الله لمنطقة المثلث بعد اتفاقات الهدنة في العام 1949 كونه من نصيب الدولة العبرية. أورد واكد هذه المعلومات إيضاً إيلان بابيه من كتابه التطهير العرقي، من هنا يأتي مصطلح السيادة الذي يقرب من مصطلح "الاحتلال الأردني."

ومن ناحية أخرى، فقد أدت هذه الأوضاع من خسارة الحرب، والنكبة، وبروز قضية اللاجئين، إلى بلورة ملامح واضحة للهوية الفلسطينية، خصوصاً في الشتات كردة فعل على الهجمة الشرسة التي تعرض لها الفلسطينيون من اقتلاع ووطن جديد ومنفى. وفي رحم هذه الظروف ولدت حركة التحرر الوطني الفلسطيني، وكرست المشروع التحرري الرافض للصهيونية الذي بدأ منذ أن تم صهينة الهجرة اليهودية إلى فلسطين في العام 1905، وبرز أثناء وقبل ثورة العام 1936، وقد تحدث عن مراحله فيصل حوراني في كتابه ***جذور الرفض الفلسطيني***. ومع ذلك، فقد بدأ الكفاح الفلسطيني المسلح بصورة منظمة على شكل "الثورة الفلسطينية" منذ العام 1964، ممثلة بفصائل المقاومة المتعددة بين علمانية وقومية وماركسية، التي استخدمت عدة أساليب في مقاومة الشرط الاستعماري الإسرائيلي.

ومن ناحية أخرى، فقد ساعد على بروز هذا التوجه رغبة الدول العربية في التخلص من بعض المسؤولية عن القضية الفلسطينية وتحميلها للفلسطينيين أنفسهم، ولتستخدم القضية الفلسطينية كورقة في الخلافات السياسية، وفي قمع الشعوب العربية، وفي الحفاظ على الأنظمة الدكتاتورية التي أعاقت التحول والتقدم في هذه البلدان، وأدت إلى إفقارها واستنزاف مواردها تحت حجة الدفاع عن القضية الفلسطينية. وقد واكب ذلك تحولات مفصلية في تاريخ الحركة الوطنية وتنقلات من الأردن إلى لبنان فتونس، وصولاً إلى العام 1987 واندلاع الانتفاضة الأولى، وبروز نخب فلسطينية جديدة منافسة في "الداخل الفلسطيني." وقد عملت قيادة منظمة التحرير على "استثمار" الانتفاضة ولربما الاستثمار فيها لأجل أن تبقى مسيطرة على القرار الفلسطيني، ولكي تتفاوض بشكل أكثر سلاسة مع إسرائيل، ولتقام من بعدها السلطة الفلسطينية عبر اتفاقات أوسلو السرية التي عبرت عن مصالح منظمة التحرير، وليس بالضرورة عن مصالح الشعب الفلسطيني وطموحات تحرره، بحيث أرادت المنظمة الحفاظ على وجودها على حساب القضية نفسها وليس لأجل التحرر.[3]

أما عن أبرز أساليب المقاومة التي عرفتها حركات المقاومة الفلسطينية، فقد انقسمت تبعاً للمراحل والأمكنة

---

[3] Massad,P109

والشخوص، ولم تكن موحدة، إذ قامت حركات في داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة وأخرى خارجها، ومنها من استخدم العنف المسلح، ومنها من لجأ إلى اللاعنف خصوصاً في داخل الأراضي المحتلة. وقد تزعمت حركات المقاومة الفلسطينية الأحزاب والفصائل خصوصاً فصائل منظمة التحرير، والنخب المتنوعة التي برزت في الداخل والخارج، إلا إن هذه النخب والزعامات بقيت محافظة ولم تتداول، وتأثرت بفعل الظروف الإقليمية والدولية، بل حتى أنها كانت من ضمن أدوات الحرب الباردة، إضافة إلى تورطها بالحرب الأهلية اللبنانية.

وبالتوازي مع ذلك النوع من المقاومة، الإشكالية في غالبها، برزت أنماط متعددة ومبتكرة من المقاومة خصوصاً المقاومة اللاعنفية، ومنها تجربة الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال التي ضربت مثالاً رائعاً للنضال اللاعنفي وفاعليته، وتجربة لجان المقاومة الشعبية في المدن والقرى والمخيمات في مقاطعة المنتجات الإسرائيلية، وتجربة الحركة الطلابية في الجامعات الفلسطينية، وبعض التجارب الفردية المهمة مثل تجربة عبد الجواد صالح، وإبراهيم الدقاق، وبسام الشكعة، ومحرم البرغوثي ومبارك عوض؛[4]وبعض التجارب الجماعية مثل تجربة قرية بيت ساحور في أواخر العام 1989 حيث شنت حملة عصيان مدني شاملة.[5]ومن التجارب المهمة أيضاً، تجربة الجامعات الفلسطينية في المقاطعة الأكاديمية لإسرائيل التي تحتاج الى دراسة منفصلة، حيث لعبت دوراً مهماً في التمسك بالهوية الوطنية الفلسطينية ومحاسبة الاحتلال الإسرائيلي وكل من يقيم علاقة معه أو يرضى باستمرار إنكاره لحقوق الشعب الفلسطيني؛ والوقوف ضد الهجمة الشرسة التي تعرضت لها المناهج والمؤسسات التربوية الفلسطينية من رياض الأطفال حتى الجامعات، وهذه الحملة التي ما تزال مستمرة حتى اليوم،[6]حيث تقاطع الكثير من الجامعات الفلسطينية[7] والغربية الجامعات الإسرائيلية بسبب سياسات إسرائيل العنصرية تجاه الفلسطينيين.

---

[4] أنظر الى التميمي، باسم. 2007. المقاومة اللاعنفية في فلسطين:فلسفتها أدواتها، أثرها "1967–1993". بيرزيت:جامعة بيرزيت

[5] انظر كذلك الى الشوملي، جبرائيل. 1991. التجربة العصيانية في بيت ساحور: دراسة مقارنة: العصيان الوطني ، العصيان المدني. القدس: مركز الزهراء

[6] 2009

[7] بعض الجامعات الفلسطينية تقيم علاقات تعاون وتبادل مع الجامعات الإسرائيلية في مجال الأبحاث والنشاطات المشتركة.

ومن التجارب المميزة جداً في هذا المجال تجربة إدوارد سعيد نفسه، موضوع هذا الفصل، في الدفاع عن القضية الفلسطينية من خلال العديد من المواقف والمحاضرات والمؤلفات التي أصدرها حول الموضوع والتي ربما أبرزها كتاب *القضية الفلسطينية* والذي يعتبر من أهم ما كتب عن القضية الفلسطينية والدفاع عنها وربط المشروع الاستعماري الغربي بالمشروع الاستعماري الصهيوني من خلال اشتراكهما في البنية الاستشراقية للمعرفة التي مهدت للغزو وشرعنة الاحتلال ودافعت عنه. وكذلك، فإن تجربة فلسطينيي فلسطين المحتلة في العام 1948، وبخاصة تجربة التجمع الوطني الديمقراطي بقادة المفكر عزمي بشارة الداعي إلى أن تكون إسرائيل "دولة كل مواطنيها"، تعتبر من أنجح التجارب في تحصيل الحقوق المدنية والسياسية، والتي تحتاج إلى دراسة منفصلة، حيث تعتبر هذه التجربة من التجارب النادرة، حيث يكون السكان الأصليون نواباً في الدولة الاستيطانية وتكون أجندتهم وطنية، وليست أجندة استعمارية كما تحدث فانون عندما أطلق مصطلح "ثنائية الحرمان". وكذلك دور بعض الشخصيات الوطنية والشعراء من أمثال الراحل توفيق زيّاد وسميح القاسم ومحمود درويش وغيرهم ممن قاموا المشروع الاستعماري الإسرائيلي على طريقتهم.

5.4 **خصوصية الحركة الصهيونية الاستعمارية: الرايخ المقدس**

يمكن إيجاز خصوصية الحركة الصهيونية بفكرة تشابهها مع النازية من الناحية النظرية، ومع المشروع الاستعماري الغربي من الناحية التطبيقية، ولكنه من الضروري الفصل ما بين الحركة الصهيونية كحركة إسرائيل كدولة، حيث إن إسرائيل هي التجلي للفكرة ووليدة الحركة الصهيونية، وبالتالي تأخذ خصوصيتها من خصوصية الحركة الصهيونية. فالحالة هنا هي حالة استعمار إحلالي وتمييز عنصري مع وجود نمط من الاستعمار التقليدي في نفس الوقت، ذلك أن الدولة قامت على أساس أن الدين هو القومية في نفس الوقت، يمارسه مجتمع من المستوطنين الذين لا يوحدهم سوى إدعاء الدين المشترك، وليست القومية العلمانية كباقي دول العالم. هذا بالإضافة إلى طبيعة هذه الدولة التي ليس لها أي ماضي استعماري سوى في فلسطين بحيث تعتبر نفسها حركة تحرر وانعتاق قومي وليست استعماراً.

ومن هذه المعطيات، نستنتج طبيعة هذا النموذج الفريد، إذ يوجد نمط من النفي ونفي المنفى، حيث تم نفـــي فئات كبيرة من المجتمع الفلسطيني وسلخها عن تطورها الطبيعي والتاريخي، في حين تم جلب مستوطنين من المركز الاستعماري الأوروبي ومن أربع رياح الأرض بناءً على دينهم اليهودي، أو تهودهم، وهـــو الـــسمة الوحيدة التي جمعت هؤلاء. ومن ثم تم خلق ارتباطات أخرى ليكوّنوا مجتمعاً من المهاجرين المـــستعمرين ، أي من المهاجرين المتجانسين لغوياً وحضارياً في بوتقة الصهر الصهيونية التي أحلتهم مكان شـــعب عـــاش طويلاً في هذا المكان، وعلمت على سلخ هؤلاء عن مجتمعاتهم وتواصلهم الطبيعي مع المجتمعات التي عاشوا فيها لتحويلهم من أقليات إلى مستوطنون، وهذا هو المقصود بفكرة "نفي المنفى" و"نفي وعي المنفى."

هذا، ولم يتم الاكتفاء بذلك بل تعداه إلى الرواية التاريخية، حيث ينفي النموذج الاستعماري الصهيوني التاريخ الفلسطيني وأي تاريخ قبل التاريخ الصهيوني، الأمر الذي لم يتواجد في العـــادة فـــي النمـــاذج الاســـتعمارية الأخرى، اللهم في النموذج الأوروبي حين احتل أمريكا، بحيث أصبح الدارس لهذا الإقلـــيم وكأنـــه يـــدرس تاريخين مختلفين لبلد ومكان واحد. حتى أن الأمر وصل إلى تزوير الكتابات الموجودة على بعض الآثار، أي رواية وتاريخ بدل رواية وتاريخ، وشعب بدل شعب، وثقافة بدل ثقافة.[8] وكذلك، فقد تم تحويل الأرض إلـــى فضاء استعماري، بعد تحويل سكانها إلى لاجئين وتغيير معالمها، ليس من الكم الديمغرافي فحسب، بل بتغيير أسماء الأماكن واستبدالها بأسماء توراتية[9] وصهيونية.

وكذلك فقد تم تغيير طبيعة المكان ليبدو كإحدى الدول الأوروبية من خلال زراعة أشجار حرجيـــة ومنـــاطق محمية قام بزراعتها الصندوق القومي اليهودي،[10] لتستبدل الأمكنة التي كانت توجد بها القـــرى الفلـــسطينية والمدمرة، وكنوع من التغطية على ما قامت به الصهيونية من نزع وتطهير عرقي للسكان، وكمحاولة لإقناع الدارسين والزوار بأن هذه الأشجار تعود إلى زمن قديم؛ وتغيير شكل الأماكن التاريخية القديمة خصوصاً في

---

[8] Massad,P38. وانظر كذلك، أعمال منير العكش حول: "فكرة أمريكا، وفكرة إسرائيل."

Munir Akash: *The Right to Sacrifice the Other: The American Genocides*. Beirut: Riad El-Rayyes Books, 2002. (Arabic); and *The Talmud According to Uncle Sam: On the Founding Hebrew Myths of America*. Beirut: Riad El-Rayyes Books, 2004. (Arabic)

[9] بابيه، مصدر سبق ذكره،ص253.

[10] بابيه، مصدر سبق ذكره، ص255

مدينة القدس، من حيث تحويل المقابر إلى ساحات عامة، والمعالم الدينية إلى حانات، لتبدو مشوهة وبعيدة عن تواصلها التاريخي العربي.

ثمة خصوصية أخرى تكمن في طبيعة المجتمع الإسرائيلي نفسه الذي هو خليط من شعوب مختلفة جمعها شيء واحد هو الدين اليهودي واللغة العبرية التي تعتبر لغة هجينة من عدة لغات؛ والمعاناة الكبيرة التي واجهها جزء من هذا "المجتمع" قبل أن تكون دولة. وهنا ثمة مفارقة كبرى، حيث لم يمض على بعض الناجين أكثر من ثلاث سنوات على إغلاق اوشفيتز حتى كان هؤلاء الناجون يدمرون ويقتلون ويهجرون الفلسطينيين، ليصبح الفلسطينيون ضحية الضحية عبر إسقاطات تاريخية ونفسية قام فيها الإسرائيليون بالتماهي النفسي مع المعتدي، فأصبحت الضحية جلاداً يقلد جلاده النازي في أعماله من مجازر وقتل وتعذيب، وصولاً إلى ترقيم الفلسطينيين بالوشم على أيديهم،[11] وشيطنة للفلسطينيين، ونفي الصفة الإنسانية عنهم، ووصفهم كما فعل بيني موريس بالبرابرة وغيرها من الصفات المقذعة والفاشية.[12]

أما فكرة الحدود، فتضاف إلى قائمة الخصوصيات التي تتمتع بها دولة الاحتلال الإسرائيلي، حيث ما زالت إسرائيل حتى اللحظة بلا حدود نهائية لها، وقد ترك ذلك المجال مفتوحاً أمام التوسع حسب "حذاء الجندي الإسرائيلي" كما قال موشيه ديان مرة. ولهذه الخصوصية تضاف طبيعة هذا المجتمع العسكرية، فالدولة وجميع مؤسساتها تصب في خانة مساعدة المجهود الحربي، والتأهيل للحياة العسكرية، بدئاً بالمدارس إلى الجامعات إلى الأندية، ومن ثم طبيعة المباني في المراكز الحضارية التي يشترط في الحصول على ترخيص لها أن تحتوي على ملجأ محصن، هذا بالإضافة إلى الطرق التي تخصص محطات خاصة لنقل الجنود،[13] والمستوطنات المبنية على أساس دفاعي عسكري وفي مواقع إستراتيجية مرتفعة.

---

[11] مسعد، جوزف. 2002.عن الصهيونية و نزعة التفوق العرقي اليهودي.بيروت.دار الآداب: 19- 30.(نسخة الكترونية).

[12] جمعت هذه الصفات من أحدى المقابلات التي أجريت من بيني موريس مؤخراُ، والتي ترجمها أنطوان شلحت من خلال مؤسسة مدار. رام الله. التاريخ؟

[13] انظر: الناشف، إسماعيل. 2005. فك الصهيونية:الفضاء والايدولوجيا في المدينة الصهيونية.بيرزيت: معهد ابو لغد للدراسات الدولية جامعة بيرزيت.

ومن ناحية أخرى، فقد تم تسييج الفلسطينيين وإحتوائهم وممارسة التطهير العرقي بحقهم والتمييز العنصري ضدهم، كما يحدث الآن في مدينتي الخليل والقدس على وجه الخصوص، وفي كافة أنحاء فلسطين التاريخية عموماً، وذلك من خلال وسائل مبدأ العمل العبري والسوسيوسايد[14]، والاغتيال، ومصادرة الأراضي، والسياسات الهادفة إلى الترحيل، وبناء المستوطنات، وشق الطرق، وبناء الجسور للمستوطنين، بينما تقوم في نفس الوقت ببناء الجدران العازلة، ومصادرة الأراضي الفلسطينية، وهدم بيوتهم، وتضييق الخناق عليهم، وتدمير حياتهم، على الرغم من أن 1.4 مليون من هؤلاء هم مواطنون أو مقيمون في هذه الدولة، ويدفعون الضرائب لها.

5.5 إدوارد سعيد " فاندي": ومسألة التحرر

لقد سبق الحديث عن أخلاقيات ومبررات كل من فانون وغاندي، وليس هنا من مجال لتكرارها، إذ يستخدم هذا النموذج ذات المبررات، إلا إن المميز في نموذج "فاندي" السعيدي هو أنه يجمع بين هذه المبررات على الرغم من تناقضها، حيث استطاع إدوارد سعيد أن يوجد حلاً وسطاً بينها من خلال الرجوع والاستناد إلى القانون الدولي أحياناً وإلى منظومة معرفية وأخلاقية تكاد تكون منقطة النظير، في أحيان أخرى. إن الذي يحل هذه المعضلة هو بنود الحق في المقاومة الواردة في القانون الدولي واتفاقيات جنيف الرابعة،[15] بالتالي هو الذي يحدد ما هو شرعي وما هو القانون الدولي، وهو ما اعتمد عليه إدوارد سعيد وعبر عنه في عدة مداخلات: "بالفعل جعلنا أمورنا تسوء أكثر، بالسماح لعرفات العديم الكفاءة بأن يفعل ما يشاء في ما يتعلق بمسألة العنف، فكل وثيقة أعدت عن حقوق الإنسان تعطي أي شعب حق المقاومة ضد الاحتلال العسكري، وهدم المنازل والممتلكات ومصادرة الأرض لغرض إقامة مستوطنات. ويبدو أن عرفات ومستشاريه لم يدركوا أنهم عندما دخلوا لفظياً على نحو أعمى المنطق الإسرائيلي الأحادي الجانب عن العنف والإرهاب،

---

[14] السوسيوسايد هو مصطلح إستخدمه صالح عبد الجواد لوصف السياسات الترحيلية الإسرائيلية و يعني باختصار التدمير الاجتماعي والسياسة والثقافي الشامل للمجتمع الفلسطيني من أجل دفعه للرحيل عن وطنه وتفريغ الأرض وتهويدها وطمس هويتها العربية لصالح المستوطنين اليهود.

[15] جاء في الفصل السابع المادة 51 من ميثاق الأمم، كذلك أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرار رقم 3246 في تاريخ 14-12-1974 على شرعية حق الشعوب في الكفاح المسلح في سبيل تحررها من الاحتلال.

تخلو في الجوهر عن حقهم في المقاومة، وبدلاً من التشديد على أن أي تخل عن المقاومة يجب أن يقترن بانسحاب إسرائيل أو التخلي على نحو مواز عن احتلالها، جعلت السلطة الفلسطينية الشعب الفلسطيني عرضة للاتهام بالإرهاب والعنف."[16]

ولعل أكثر ما عبر عن هذا الموقف بعد إتهام ادوارد سعيد بمعاداة السامية والدعوة إلى العنف هو حادثة بوابة فاطمة الحدودية في جنوب لبنان في العام 2000، عندما برر فعلته بالمشاركة في رمي الحجارة على الجنود الإسرائيليين بأنها حق شرعي حتى لو كان ذلك عنفاً، فالاحتلال أساس كل عنف، حسب فانون، لذا فإن قتل الجندي أمر مبرر ومسموح به حسب القوانين الدولية، إذ هو في حالة اشتباك دائم وتنطبق عليه بنود إتفاقيات جنيف. ولكن من ناحية أخرى، فقد عبر إدوارد سعيد في أكثر من مرة بأنه ليس من دعاة اللاعنفية "لأن هناك أناس ذوي عقليات متشابهة في كلا العالمين والذين يرغبون بالتعايش ويؤمنون بالنقاش العقلاني، والذين يؤمنون بالسياسة العلمانية أكثر من الدينية، والذين يعتقدون بأن القوة والعسكرة والإخضاع هي في منتهى العقم، بحيث يجب أن يتم تحاشيها وتجنبها بأي ثمن، رغم أنني لست من دعاة اللاعنفية، فإنني راغب في تزكية اللاعنفية لأنه قريباً ربما سيتهاوى الكثير. الجيوش بلا جدوى، وعندما تصبح مفيدة كما هو حالة إسرائيل والولايات المتحدة، فإنها تخلق المزيد من الدمار وتزرع بذور المزيد من الخصام بين الأجيال القادمة..."[17]

وكذلك، فإن ثمة دعوة بشكل غير مباشر إلى المقاومة السلمية، حيث انتقد بصراحة أعمال العنف الفلسطيني وأعتبرها خاطئة وتعطي نتائج معاكسة كإستراتيجية للتحرير.[18] ولعل هذا العرض من قبل إدوارد سعيد يدلل على أسلوب مغاير في التعامل مع الشرط الاستعماري الإسرائيلي، كما يطرح معضلة ونموذجاً خليطاً في حد ذاته، أي "فاندي"، نموذج قوامه فانون وغاندي في آن معاً، بحيث يجمع ما بين العنف الناجم عن شرعنة وتبرير استخدام العنف المسلح في المقاومة الفلسطينية، وإسناد ذلك إلى القانون الدولي ومعاهدة جنيف الرابعة،

---

[16] سعيد، إدوارد .2004. إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة. ط1.بيروت: دار الآداب، ص 75

[17] سعيد، نفس المصدر السابق، ص138.

[18] سعيد، القلم والسيف، مصدر سبق ذكره، ص14.

والمقاومة السلمية، وهو على كل حال سمة النضال الفلسطيني بشكل عام الذي جمع منذ بداياته ما بين المقاومة السلمية والكفاح المسلح، مثل ثورة 1936 وانتفاضة العام 1987 وانتفاضة الأقصى 2000.

هنا، يطرح نموذج إدوارد سعيد في الوقت نفسه جدلاً حول مسألة "الأخلاقية" التي تصف العنف بأنه غير أخلاقي، خصوصاً لدى حركات اللاعنف، بينما تراه حركات العنف مبرراً وضرورة أخلاقية. ولكن، ما الذي يجعل الأفعال أخلاقية أو لا-أخلاقية؟ إن كون مفهوم الأخلاق تشكله المجتمعات والأنظمة المعرفية يجعل منه موضوعاً مرتبطاً بطرق السيطرة التي توظف فيها المعرفة والاستعلاء الأخلاقي ضد الآخرين. وقد ظهر ذلك في تحليل فوكو للسلطة، وسعيد لبنية المعرفة الاستشراقية التي تستخدمها السلطة الاستعمارية خصوصاً في كتابي ***الاستشراق*** و***الثقافة والمقاومة***. حيث "إن خطاب فوكو خطاب غربي استطاع إدوارد سعيد بثقافته الغربية الواسعة وفهمه لطرق استخدام الخطاب عند فوكو، الذي يعترف بفضله في موقع آخر من الاستشراق، أن يلج إلى أعماق الاستشراق ويرى كيف استشرق الغرب الشرق من خلال ما يسميه فوكو "التوظيف الميكانيكي للقوة" ويسميه في أحيان أخرى "الإخضاع الحقيقي" الذي تولده بطريقة ميكانيكية علاقة وهمية."[19]

ولذا، فإن هذه الأخلاقية تبقى نسبية أيضاً و"مرتحلة" حسب الظروف، بالتالي لا يمكن قياسها على نموذج "فاندي"، حيث إن العنف في بعض الأحيان يكون عملاً أخلاقياً، بينما يكون في أحيان أخرى غير أخلاقي البتة. ولعل هذا ما لمّح إليه غاندي أيضاً عندما قال "إذا لم يكن هناك خيار إلا بين العنف والقبر، فإنني أنصح بالعنف"[20]ويبرر ذلك في مكان آخر حيث يقول: "إنني أومن بأنه إن كان هناك خيار بين الجبن والعنف، فاني عندئذ أنصح بالعنف... وعندي أن أرى الهند وقد عمدت إلى السلاح، تحمله وتتأهب به للذود عن شرفها، أحب إلي من أن تقف وهي ترى انتهاك حرماتها وجرح كرامتها وهي صامتة."[21]وفي نفس الوقت يطرح نموذج "فاندي" ضرورة إيجاد صيغ أخلاقية للتحرر، من حيث عدم التعرض للمدنيين، وعدم قتل الأطفال وعدم اللجوء إلى العنف إلا للضرورة، لأن القضية ليست ثأراً ولن يقتل أكثر، بل إن ذلك قد يضر بالقضية

---

[19] شاهين،محمد.2005. إدوارد سعيد:رواية للاجيال.ط1. بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ص 83-84.

[20] غاندي، موهنداس.1964. قصة تجاربي مع الحقيقة:سيرة غاندي.ترجمة منير البعلبكي.بيروت: دار العلم للملايين.ص81

[21]أكناث، مصدر سبق ذكره، ص252.

كما أورد سابقاً "لأن هناك أناس ذوي عقليات متشابهة في كلا العالمين والذين يرغبون بالتعايش ويؤمنون بالنقاش العقلاني، والذين يؤمنون بالسياسة العلمانية أكثر من الدينية، والذين يعتقدون بأن القوة والعسكرة والإخضاع هي في منتهى العقم، بحيث يجب أن يتم تحاشيها وتجنبها بأي ثمن."[22]

ولكن إدوارد سعيد يبرر استخدام العنف في المقاومة كونه حق شرعي في مقارعة الاحتلال، وفي نفس الوقت يجب التفكير في أداء حركات التحرر وقياداتها ومحاسبتها ونقدها في هذا الصدد، إذ يقول إدوارد سعيد مقتبساً عن فانون: "لا يكفي الانسياق وراء الجوقة التي تعلن رضاها عن الوطنية المعادية للاستعمار، ممثلة في الحزب والقيادة، فمسألة الهدف تبرز دائما حتى في خضم المعمعة وتقضي بتحليل الخيارات المتاحة، فهل ترانا نحارب من أجل تحرير أنفسنا من الاستعمار، وهو هدف لازم أم ترانا نفكر أيضا فيما عسانا نفعله بعد أن يرحل عن أرضنا آخر شرطي أبيض؟"[23]

5.6 الأدوات التي يستخدمها نموذج إدوارد سعيد (فاندي)

يستخدم هذا النموذج الكفاحي الأدوات العنفية والأدوات اللاعنفية معاً في التحرر من الشرط الاستعماري، وهي الأدوات التي سبق الحديث عنها في الفصول السابقة؛ ليشكل لنا نموذجاً بحد ذاته. وهذه الأدوات تشكل البنية الفوقية لهذا النموذج، بينما يوجد لهذا النموذج بنية تحتية لهذا المشروع عبر عنها إدوارد سعيد من خلال مجموعة من الطروحات التي قد لا تشكل منظومة متكاملة، لكنه يمكن أشكلتها لتصير كذلك.

تفكيك البنى المختلقة

يرتكز نموذج إدوارد سعيد بخصوص تفكيك البنى المختلقة على مستويين من النقاش: الأول، فكري متمثل بنقد الأساطير المؤسسة للحبكة الصهيونية، إذ إن "كل الحركات القومية تنشر أساطير حول نفسها، وتتميز الصهيونية أيضاً باختلاق أساطير كثيرة عن فلسطين والفلسطينيين: كانت فلسطين أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض، صحراء جعلها الرواد الصهاينة تزدهر بجهدهم... لتتحول إلى جنة، أرض يهودية منذ غابر الزمان

---

[22] سعيد، الثقافة والمقاومة، مصدر سبق ذكره، ص138.

[23] سعيد، المثقف والسلطة، مصدر سبق ذكره، ص 84.

وهكذا دواليك."[24]والآخر، نقد حالات المحو والاختلاق والتزوير والتاريخ المفبرك، بالإضافة إلى تحليل البنى المؤسسة للنظام الاستعماري، مثل النصوص الاستشراقية وأدوات صناعة الآخر وشيطنته. إلا إن الرافعة الأساسية لهذا النموذج هي نقد النصوص والخطاب الاستعماري المتشكل بسبب الحالة الاستعمارية، وذلك من خلال نقد النصوص والعلوم كعلم الآثار والتاريخ والأساطير المشكلة لهذا الوعي، فليس المهم ما يقال بل المهم كيف يقال وكيف يترجم وكيف يستخدم. وهنا، يرجع إدوارد سعيد إلى فوكو في تحليله للبنى المختلقة والمبنية في الذاكرة، تماماً مثل ما فعل في الاستشراق، حيث "تتلخص أطروحة سعيد الرئيسية في الكتاب في قوله بأن معظم ما كتبه الغرب عن الشرق لا يعدو كونه في غالبيته صورة وهمية أبتدعها الكتاب الغربيون. وهي بهذا تعكس الشرق مصادفة أو عرضاً لا أكثر وتتكون هذه الصورة من مجموعة من التصنيفات والتنميطات التي تظهر صورة الشرق من زاوية فهم غربية، وهي صورة افترضت أن الشرق مختزل في كونه شيئاً غير أوروبي وهي إلى ذلك صورة جامدة".[25]

إعادة كتابة التاريخ

يستند هذا النموذج كثيراً على فكرة إعادة كتابة التاريخ، خصوصاً تاريخ المضطهدين، دون أن يكون هناك تأثيرات استعمارية على هذا التاريخ، بكلمات أخرى، يطالب إدوارد سعيد بعملية "إخراج" للتاريخ بحيث يكون أكثر تعبيراً وأقل انحيازاً لرواية المستعمِر، ودون التشويه الكبير الذي وقع عليه بسبب الإرث الاستعماري. وهنا، يكمن بيت القصيد، إذ يقول سعيد: "أعتقد أن أهم الأمور المتعلقة بالتاريخ لن تكون نبشه بل تقديمه، النطق به، تركه دون هجوم مستمر على التكلم بذلك التاريخ وعلى مصداقية الرسول. أعتقد أن الاستعارة هي الإخراج بالمعنى الدرامي."[26]

قول الحقيقة

---

[24] سعيد، ادوارد.1999. القلم والسيف حوارات مع ديفيد بارسميان.ترجمة توفيق الاسدي. ط2.دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.ص 14

[25]شاهين، مصدر سبق ذكره،ص74.

[26] سعيد، نفس المصدر السابق، ص 41.

يتحدث إدوارد سعيد عن فكرة قول الحقيقة على صعيدين: الأول، يتوجه به إلى حركات التحرر والمثقفين. وهنا، يبدو سعيد متأثراً بفكرة فانون عندما تحدث عن قول الحقيقة كأساس للإنعتاق مؤكداً أنه "وجدت الهوية القومية التي تناضل للتحرر من سيطرة الامبريالية نفسها مودعة منغرسة في الدولة القومية المستقلة حديثاً، ومحققة لذاتها فيها أيضاً فيما يبدو، ونتج عن ذلك جيوش ورايات ومجالس تشريعية وخطط للتعليم القومي وأحزاب سياسية طاغية إن لم تكن وحيدة، وقد تم ذلك عادة بطرق منحت النخب القومية المكانة التي كان يحتلها البريطانيون أو الفرنسيون من قبل ويبرز تمييز بايزل ديفيدسون الهام بين استنفار الجماهير (Mobilization) "كالجموع الهندية الهائلة التي تظاهرت في شوارع كلكتا مثلاً"، والمشاركة الجماهيرية (Participation)، التمايز بين النخبة القومية والجماهير الريفية والحضرية التي كانت لزمن وجيز جزءاً عضوياً من المشروع القومي."[27]أما على الصعيد الآخر، فيتوجه به سعيد من خلال مخاطبة الآخر أو المستعمر نفسه، وفي انتقاده وانتقاد روايته، بل تجريد رواية المستعمر إلى درجة النفي "لأن الكثير من تاريخنا تم طمسه، إننا أناس غير مرئيين، وتعود قوة وهيمنة الرواية الإسرائيلية إلى كونها تعتمد كلياً تقريباً على نوع من الرؤية البطولية للرواد الذين قدموا من الصحراء... لأنك كائن عظيم بطولي هارب من الهولوكوست، ولكن جزءاً كبيراً من وجودك هناك قائم على حساب شخص آخر حللت محله أو قتلته أو أقصيته."[28]

المقاومة

ويتجلى هذا الجانب في تبرير المستوى الثاني من النموذج وهو "البنية الفوقية للمشروع" والمتمثلة بوسائل المقاومة المستخدمة من قبل الفصائل الفلسطينية خصوصاً المسلحة، وبالتالي تبرير أعمالها وخطابها المقاوم لا الإيديولوجي، في الرد على الحالة الاستعمارية. ويعتمد سعيد في ذلك على القانون الدولي الذي أعطاه هذا الحق، من ناحية، ويبدو التناقض الشكلي في تبرير العنف من جهة، والدعوة إلى الفاعلية والأخلاقية الكفاحية. وقد يدلل ذلك على توازن في الرؤى التحررية التي تستخدم ما هو متاح قانونياً. ولكن ثمة مجموعة من

[27] سعيد، أدوارد .1997. الثقافة والامبريالية.ترجمة كمال ابو ديب. بيروت: دار الآداب، ص320

[28] ....2006.الثقافة والمقاومة: حوار مع ديفيد بارساميان .ترجمة علاء الدين ابو زينة.بيروت: دار الآداب.ص32-33.

التساؤلات: لماذا هذه التبعية للقانون الدولي كمعيار لما هو أخلاقي، بينما لا تلتزم الكثير من الدول الكبرى في هذا المعيار؟ ولماذا الرضوخ لابتزاز "الرأي العام الدولي" الذي يطلب دائماً من الضحية بأن تكون أخلاقية ومسالمة وغير عنيفة؟ ولماذا لم يتخذ إدوارد سعيد مفهوماً ثورياً للمقاومة أو للنظام الأخلاقي من خلال نسف المفاهيم الأخلاقية الموضوعة أو المتعارف عليها دولياً والتي هي بالأساس مختلقة؟ وفي هذا الطرح نقد لإدوارد سعيد. من جهة أخرى، ثمة ازدواجية المعايير التي لا تخدم مفهوم الأخلاقية الذي تبناه سعيد، فإما أن تقتل وتلغي الظالم، أو أن تتبنى وسائل أخرى غير إلغاء الظالم، إذ لا يمكن قبول فكرة "القتل الموجه،" لدى المدرسة اللاعنفية على الأقل، من باب ترابط الغايات بالوسائل. ولعل هذه هي إشكالية سعيد الكبرى، لأنه إنما في العنف يوجد إلغاء لعلاقة ما ليس بالضرورة أن تكون إلغاء للظلم، بل قد يكون العكس في الغالب الأعم. فــ"حين تتأسس الدولة القومية الجديدة، كما يحتج بارثا تشارجي، فإنها لا تحكم من قبل الأنبياء والمتمردين الرومانتيكيين، بل في حالة الهند من قبل نهرو وهو باني دولة وبراغماتي وواع للذات، وفي عرف نهرو أن الفلاحين وفقراء المدن تتحكم بهم العواطف المشبوهة لا العقل، ويمكن أن يستفزهم شعراء مثل طاغور وحضور الشخصيات الجذابة الساحرة مثل غاندي، ولكن بعد الاستقلال ينبغي أن يتم تمثل هذا العدد الضخم من الناس واستيعابه في الدولة، وأن يوظفوا لخدمة تطورها."[29]

وسائل الإعلام

كثيراً ما ينتقده إدوارد سعيد ووسائل الإعلام الغربية، والجمهور الغربي بوصفه غير موضوعي ومثقل بالمحرقة، ومعبأ من قبل وسائل الإعلام المتحيزة الموالية لإسرائيل. بل إنه يعتبر وسائل الإعلام جزءاً من المنظومة الاستشراقية التي تؤسس لمعرفة غير موضوعية، وهي تعبير عن خطاب استعماري أو إمبريالي في كثير من المواقف، وتشكل رافعة للهجوم لا لنقل "الحقيقة"، خصوصاً في مرحلة ما يسمى "الحرب على الإرهاب" التي عبر عنها في كتاب ***تغطية الإسلام***.[30] ومن ناحية آخرى، فقد دعا سعيد إلى إعلام يكون أكثر

---

[29] نفس المرجع السابق، ص 321.

[30] أنظر الى سعيد، إدوارد. 2005.تغطية الإسلام . ترجمة محمد عناني. ط1.القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع.

كذلك في .... 2002. نهاية عملية السلام، أوسلو وما بعدها. ط1. بيروت: دار الآداب.

.... وأخرون. 2004. الحرب من أجل فلسطين.أعادة كتابة التاريخ.ترجمة أسعد كامل الياس.الرياض: مكتبة العبيكان.

حيادية في نقل المشاهدات، بعيداً عن الفضاء الاستشراقي، كما هو الحال بالنسبة لإعادة كتابة التاريخ، خصوصاً وأن هناك الكثير من المحاولات لإعادة كتابة التاريخ بطريقة شفوية من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.[31]

الهوية

يطرح إدوارد سعيد مسألة تشكل الهويات القومية، وضرورة الالتفات إلى الكيفية التي تصنع بها هذه الهويات ونقدها، "أما فيما يتعلق باتفاق الآراء حول هوية الجماعة أو الهوية القومية، فمهمة المثقف إيضاح أن الجماعة ليست كياناً طبيعياً أو هبة من الله للإنسان، بل هي كيان مبنى مصنوع، بل مخترع في بعض الحالات، ومن ورائه تاريخ أو فتوحات وإن تمثيله مهم في بعض الأحيان."[32]

القيادة

لقد سعيد ركز كثيراً على دور القيادة في مرحلة التحرر وما بعدها، ودعا إلى ضرورة وجود محاسبة لها، إضافة إلى أهمية تداول السلطة، حيث دعا الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات في أكثر من مناسبة للاستقالة من منصبه وقال بأن عليه الرحيل. ولربما كان هذا هو أحد أسباب استقالة سعيد من المجلس الوطني، إضافة إلى نقده الشديد اللهجة في كثير من الأحيان للقيادة الفلسطينية ومحاسبتها على الأخطاء التي ارتكبتها في أوسلو وما بعدها، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى منع بعض مؤلفاته من التوزيع في الأراضي المحتلة. يقول: "ما نحتاج إليه هو قيادة موحدة من أشخاص موجودين على الأرض يشاركون فعلاً في المقاومة، ويقفون حقاً مع شعبهم، وليس أولئك البيروقراطيين السمان الذين يمضغون السيجار ويريدون الحفاظ على صفقاتهم التجارية وتجديد إجازات المرور الخاصة بالشخصيات المهمة جداً، قيادة موحدة تتخذ مواقف وتخطط تحركات جماهيرية ليست مصممة للعودة إلى أوسلو. هل يمكن أن تتصوروا مدى حماقة هذه الفكرة؟

---

[31] هناك الكثير من المحاولات لكتابة تاريخ جديد من خلال التاريخ الشفوي عبر البرامج الحوارية ، إضافة إلى بعض الأفلام الوثائقية التاريخية. مثلاً برنامج "شاهد على العصر" والذي تقدمه قناة الجزيرة، كذلك قناة " هيستوري شانيل" وغيرها.

[32] سعيد، إدوارد. (2006). المثقف والسلطة. ترجمة محمد عناني .ط1.القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع، ص73 .

بل المضي قدماً بالمقاومة والتحرير، بدلاً من تشويش الناس بالتحدث عن المفاوضات وخطة ميتشيل الغبية."[33]

وفي هذا السياق، يعوّل سعيد كثيراً على دور القيادة في التحرر تماماً مثلما فعل فانون، **إذ إن** "فلسطين ليست قضية العرب والمسلمين وحدهم، بل تهم عوالم كثيرة... ونحتاج لهذا الغرض إلى قيادة يقظة راقية وعالية الثقافة، وإلى دعم ديمقراطي لها...مثلما أصر مانديلا دوماً في ما يخص كفاحه في جنوب أفريقيا. إن فلسطين من القضايا الأخلاقية الكبرى في عصرنا."[34]

المثقفون

تستند المنظومة الكفاحية التي أخرجها سعيد إلى الوجود على دور كبير للمثقفين، وهذا تفسير نخبوي كما وضح عادل سمارة في *نقد الثقافوية البرجوازية في أطروحات إدوارد سعيد*، حيث يلقي إدوارد سعيد بالدور الكبير على المثقفين في مرحلة التحرر وما يليها، من خلال الحراك الدائم للمثقف،[35]إذ يقول: "وهكذا، فإن تأكيدي لدور اللا منتمي الذي يلعبه المثقف أو المفكر قد نشأ من إدراكي لمدى العجز الذي كثيراً ما يشعر به المرء إزاء شبكة قوية غلابة من السلطات الاجتماعية مثل أجهزة الإعلام والحكومة والشركات وهلم جرا. وهي التي تسد المنافذ أمام تحقيق أي تغيير مباشر. بل قد يكون ذلك مع الأسف في الأوقات التي تقضي على المثقف أو المفكر بالانزواء للقيام بدور الشاهد الذي يشهد بوقوع إحدى الفظائع التي لولا شهادته ما سجلها أحد."[36]من هنا، يمكن أن يتلمس القارئ الدور الحيوي الذي يلعبه المثقفون في المجتمع، ولكن في نفس الوقت الصعوبات والمسؤولية الملقاة على عاتق هذه الطبقة. وهنا، يقول سعيد "ليس على المثقف أو المفكر أن يكون شكّاء بكاءّ لا يعرف الابتسام...وليست مشاهدة حالة مؤسفة حين لا يكون المرء في موقع السلطة تجربة رتيبة

---

[33].......... 2004. إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة. ط1.بيروت: دار الآداب، ص82.

[34] سعيد، اسرائيل العرق، الولايات المتحدة، مصدر سيق ذكره، ص 160.

[35]سعيد، ادوارد. 2006. المثقف والسلطة.ترجمة محمد عناني. ط1.القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

أنظر كذلك الى ....(د،ت،ن). الدور العام للكتاب والمثقفين. مجلة الكرمل.ع68 : ص7–24.

انظر كذلك الى .... (د،ت،ن). المثقفون الخبثاء.كنعان.ع105:ص57–48

[36] سعيد، المثقف والسلطة، مصدر سبق ذكره، ص27.

وذات لون واحد، بل إنها نشاط يتضمن ما وصفه فوكو "التبحر في العلم دون هوادة." فهو يتضمن فحص وتمحيص المصادر البديلة، ونبش واستخراج الوثائق الدفينة، وإحياء الروايات التاريخية المنسية أو المهجورة. وهو نشاط يتضمن الإحساس بالصراع وبالتمرد وباستغلال قدرة المرء على الكلام إلى أقصى حد فيما يتاح له من فرص نادرة، ولفت أنظار الجمهور، والتفوق على الخصم واللماحية والمناظرة... وهم أقرب إلى التعبير المباشر منهم إلى التردد والتلعثم في الكلام، ولكن لا مفر من مواجهة الحقيقة المحتومة، وهي أن أمثال هذه الاحتجاجات من جانب المثقفين أو المفكرين، لن تأتي لهم بأصدقاء في أعلى المناصب، ولن تتيح لهم أن يحظوا بآيات التكريم الرسمي، والمثقف أو المفكر الذي يجد نفسه إذن في عزلة. ولكن هذه العزلة خير من الصحبة التي تعني قبول الأوضاع الراهنة على ما هي عليه."[37]

الثورة المستمرة

يدعو سعيد من خلال النموذج التحرري الذي طرحه إلى فكرة الحراك الدائم للمثقفين، أو ما يمكن تسميته بالثورة المستمرة، حيث عبر عن ذلك من خلال كتابه ***المثقف والسلطة***. ومن ناحية أخرى، لم يوحد سعيد بين هذه النخب المثقفة، بل فصل فيما بينها بحيث سمى بعضها "المغتربون والهامشيون،" وسمى البعض الآخر "محترفون وهواة"، لأن هناك عدة أنواع من المثقفين: فهناك التراجيدي، وهناك المقاوم، وهناك السلطوي وهناك المثقف الملحمي.[38] أما النموذج الذي يطرحه سعيد هو تعبير عن المثقف التراجيدي الملحمي والمقاوم معاً، على الرغم من صعوبة الدمج بينها، وهذه ثلاثية مقاومة تميز النموذج "الفاندي،" وفي هذا السياق، يؤكد سعيد: "يضيف شيلز أن المثقفين يمثلون طرفين متباعدين: فإما أنهم يعارضون المعايير والأعراف السائدة، أو أنهم يتخذون موقف الذي يسمح بالتكيف والتوافق، إذ ينحصر همهم في توفير النظام والاستمرار في الحياة العامة. وأنا أرى الإمكانية الأولى فقط من هاتين هي التي تصدق على دور المثقف الحديث أي مهمة الطعن في المعايير والأعراف السائدة. والسبب على وجه الدقة هو أن المعايير والأعراف السائدة ترتبط اليوم ارتباطاً وثيقاً بالأمة،لأن الأمة هي التي تأمر بها على أعلى المستويات، والأمة دائما ما تؤمن بمذهب النصر

---

[37] نفس المصدر السابق، ص 29.

[38] انظر أيضا الى لبيب، الطاهر. قناة العربية، مقابلة مع احمد علي الزين، 9-12-2007

والغلبة، وهي دائما تشغل مواقع السلطة، كما إنها دائما ما تفرض الولاء والخضوع، لا ذلك الضرب من البحث والاستقصاء الفكري الذي يتحدث عنه كل من فيرجينيا وفالتر بنيامين."[39]

الوعي

يطرح إدوارد سعيد فكرة الوعي تماماً كما فعل كل من فانون وغاندي كخطوة أولى نحو التحرير، وفي نفس الوقت يحذر من خطورة الانجراف نحو مشاريع قد لا تخدم الهدف التحرري، إذ الوعي لدى سعيد هو ضمانة وصمام أمان حيث إن "فرانتز فانون توقع مسار الأحداث هذا، في الفصل الذي عقده لمزالق الوعي من كتابه ***معذبو الأرض***. لقد اعتبر أنه ما لم يتحول الوعي الوطني لحظة نجاحه إلى وعي اجتماعي بطريقة أو بأخرى، فإن المستقبل لن يحمل التحرير بل تمديد الامبريالية."[40]وقد يتجسد الشق الآخر من عملية الوعي بما أسماه سعيد "التخلص من الثنائية الثقافية،" وكأنه يريد من هذه النخب أن تتوجه نحو القالب الوطني والقومي، الذي يعبر هو الآخر عن اشكالية، وهنا يؤكد سعيد " ولكن المثقف تحاصره دائماً وتتحداه بلا هوادة، مشكلة الولاء، فكل منا وبلا استثناء ينتمي إلى لون ما من الجماعات القومية أوالعرقية أو الدينية، ومن المحال على أحد مهما يبلغ حجم احتجاجاته أو إنكاره أن يقول إنه قد ارتفع فوق الروابط الحيوية العضوية التي تربط الفرد بالأسرة وبالمجتمع وبطبيعة الحال بالقومية كذلك... فإن الإحساس بأن شعبك يتهدده الفناء أو الانقراض السياسي بل والمادي فعلاً يلزمك بالدفاع عنه، وبأن تفعل كل ما في طاقتك لحمايته أو للقتال ضد أعداء الأمة، هذه وطنية دفاعية بطبيعة الحال ومع ذلك فعلى نحو ما قاله فرانتز فانون في تحليله للموقف في إبان ثورة التحرير الجزائرية (1954-1962) ضد فرنسا، لا يكفي الانسياق وراء الجوقة التي تعلن رضاها عن الوطنية المعادية للاستعمار ممثلة في الحزب والقيادة، فمسألة الهدف تبرز دائماً حتى في خضم المعمعة وتقضي بتحليل الخيارات المتاحة، ترانا نحارب من أجل تحرير أنفسنا من الاستعمار فحسب، وهو هدف لازم، أم ترانا نفكر أيضا فيما عسانا نفعله بعد أن يرحل عن أرضنا آخر شرطي أبيض."[41]

---

[39] سعيد، مصدر سبق ذكره،ص78.

[40] نفس المرجع السابق، ص323.

[41] نفس المصدر السابق، ص83-84.

ومن هنا تأتي إشكالية الجدل حول فكرة التحرر نفسها، فهل هو تحرر من الاستعمار؟ أم تحرر من قيود المجتمع؟ ولذا، تبقى مسألة التحرر مسألة نسبية، إذ لا يمكن إختزال النخب بالمثقفين، بل هناك دور طليعي مهم للفئات الأخرى خصوصاً الفلاحين والعمال الذين تحكم توجهاتهم مصالح معينة بعيداً عن شطحات المثقفين وجدلهم غير المنتهي. فسعيد لم يشمل هذه الفئات في الوعي، بل جعل الحديث منصباً على المثقفين والنخب السياسية، وكأن التغيير يأتي دائماً من فوق. "أما في النقلة الثانية شبه الهيغيلية فيظهر نقيض مانوي هو ابن البلد الثائر، المرهق من منطق يختزله وجغرافيا تفصله وانطولوجيا تنزع عنه إنسانيته وإبستومولوجيا تجرده وتهبط به إلى جوهر راكد غير متجدد. "عنف النظام الاستعماري والعنف المضاد الصادر عن ابن البلد يوازن أحدهما الآخر ويستجيب له بتجانس تبادلي غير عادي،" ويتوجب الارتقاء بالنضال إلى مستوى جديد من التصارع، وإلى صيغة تركيبية تمثلها حرب التحرير وتقتضيها ولادة ثقافة نظرية ما بعد قومية جديدة تماماً."[42]

5.7 مراحل نموذج إدوارد سعيد-"فاندي"

لا يمكن الحديث عن مراحل هذا النموذج بنفس الطريقة التي تم فيها الحديث عن النماذج العنفية واللاعنفية، كونه توليد هذا النموذج هو واحد من فروض الدراسة الأساسية، فالبعض لا يعترف بوجود هكذا نموذج، بل يعتبره من نوع النموذج الفانوني، بحيث أنه لا يوجد شيء إسمه عنف ولاعنف معاً، وهذا ما يدلل عليه جان ماري موللر بالقول إن ″إستراتيجيّة العمل اللاّعنفي لها ديناميتها الخاصة وفعاليّتها الخاصة ولا يمكن لأي عمل عنفي إلاّ أن يعارضها ويؤدّي في نهاية المطاف إلى إفشالها. فعندما يتواجد العنف واللاعنف في فسحة نضال واحدة، تكون الغلبة للعنف الذي يفرض منطقه. إذ لا يُعتبر النضال القائم على 90% من الأعمال اللاعنفيّة، و10% من الأعمال العنفيّة نضالاً لا عنفياً ينطوي على 10% من الأعمال العنفيّة، بل يُعتبر

[42] سعيد، إدوارد. 1997.الثقافة والامبريالية.ترجمة كمال ابو ديب.ط1.بيروت:دار الاداب،ص322.

نضالاً عنفياً ينطوي على 90% من الأعمال اللاعنفية."[43]هذا بالإضافة إلى خصوصية هذا النموذج، حيث إن الحالة التي يمثلها ما زالت تحت شرط استعماري، وليست في وضع الاستقلال. وبالتالي، فإن من الصعب الحديث عن مراحل هذا النموذج الذي هو في صيرورة وتغير مستمر.

ولكن من ناحية أخرى، يمكن الحديث عن بعض السمات العامة لهذا النموذج التي هي محاكاة للعناصر الموجودة في النموذجين الغاندي والفانوني. وبالتالي يمكن استخدامها في وصف هذا النموذج، من حيث: الهدف، والاستعداد، وكسب العقول والقلوب، والوعي، وقول الحقيقة، والقيادة، والمفاوضات، وإستلام السلطة أو الحل السيمفوني.

وإذا ما تم أخذ الموقف السعيدي من الهدف والمفاوضات، على سبيل التمثيل عل ى عناصر هذا النموذج، فإن سعيد يؤكد أن "الخطوة الأولى لتحرير الأراضي المحتلة هي أن نقرر فكرياً أنها ستتحرر."**[44]**فالتحرير هو الهدف.، ورسم الطريق الفكري للتحرير، أي تحديد الفكرة الفلسطينية التي نقاوم بها الفكرة الصهيونية، هو أحد أهم عناصر تحقيق الهدف. أما في المرحلة الثانية وهي كسب العقول والقلوب، فيقول سعيد "لأن هناك أناس ذوي عقليات متشابهة في كلا العالمين والذين يرغبون بالتعايش ويؤمنون بالنقاش العقلاني،والذين يؤمنون بالسياسة العلمانية أكثر من الدينية، والذين يعتقدون بأن القوة والعسكرة والإخضاع هي في منتهى العقم، بحيث يجب أن يتم تحاشيها وتجنبها بأي ثمن. وأنا أقف الآن على نقطة حيث، رغم أنني لست من دعاة اللاعنفية، فإنني راغب في تزكية اللاعنفية لأنه قريباً ربما سيتهاوى الكثير. الجيوش بلا جدوى، وعندما تصبح مفيدة كما هو حالة إسرائيل والولايات المتحدة، فإنها تخلق المزيد من الدمار وتزرع بذور المزيد من الخصام بين الأجيال القادمة."[45] وبالنسبة للمرحلة الثالثة وهي الوعي فيقول سعيد مقتبساً عن فانون "لا يكفي الانسياق وراء الجوقة التي تعلن رضاها عن الوطنية المعادية للاستعمار، ممثلة في الحزب والقيادة، فمسألة الهدف تبرز دائما حتى في خضم المعمعة وتقضي بتحليل الخيارات المتاحة ، فهل ترانا نحارب من أجل

---

[43] موللر،إستراتيجية العمل اللاعنفي، مصدر سبق ذكره، ص148.
[44] سعيد، إدوارد .2002. نهاية عملية السلام. ط1. بيروت: دار الآداب، ص 9
[45]…………، الثقافة والمقاومة، مصدر سبق ذكره: ص138-137.

تحرير أنفسنا من الاستعمار، وهو هدف لازم أم ترانا نفكر أيضا فيما عسانا نفعله بعد أن يرحل عن أرضنا آخر شرطي أبيض."[46]

أما بالنسبة للمراحل الأخرى، فيقول "إن المضي في أسلوب التفاوض الحالي الذي يتسم بسوء التنظيم والافتقار إلى خبراء حقيقيين ومعلومات دقيقة ومن ضمن ذلك خرائط موثوق بها وإحصاءات ومعرفة دقيقة بالتغيرات التي قامت بها إسرائيل على أراضي 1948 و1967، يعني أننا سنظل نكرر نفس الأخطاء نفسها. هذا أقل ما يمكن أن توصف به."[47]كذلك يدعو سعيد في نموذجه إلى قول الحقيقة كمهمة دائمة للمثقف "تفكك عملية أوسلو للسلام والانقشاع المتواصل المحتوم لغلافها البراق إستغراقا أربع سنوات، وها هي الآن تكشف حقيقتها، لم يكن هناك اتفاق سلام ، بل اتفاق على إدامة الهيمنة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية من خلال معسول الكلام من جهة، والقوة العسكرية من الجهة الثانية. يعود هذا في أكثره كما أقول منذ زمن إلى الفشل الفلسطيني المؤسف في استقراء نيات الإسرائيليين خصوصاً حزب العمل عندما كان في الحكم."[48] وفي الشق الثاني لقول الحقيقة، الذي يتمثل بمواجهة الخصم ونقد روايته، يقول سعيد "إن علينا أن نركز من دون كلل على الحقائق نفسها في ما أحاق بنا كشعب، وأن لا ننجز إلى مناقشات حول السياسة المطلوبة أو إستراتيجيات التفاوض مع الإسرائيليين والولايات المتحدة فننسى الهدف الأخلاقي السياسي المتمثل في عزل الاحتلال الإسرائيلي والفضح الكامل للالاشرعية وذلك من خلال حركة شعبية واسعة متينة التنظيم في أوروبا وشمال أمريكا والعالم العربي ومناطق العالم الأخرى... لا أقول إطلاقاً إنه ينبغي أن ندعو إلى تدمير إسرائيل أو طرد الإسرائيليين، فحركتنا تكتسب مكانتها الأخلاقية من أبعادها الإنسانية واستعدادها الصادق للتعايش وإيمانها الراسخ باحترام حقوق الآخرين، ما أتحدث عنه هو مبادرة سلام جديدة تهدف عبر فترة زمنية طويلة إلى تحقيق التكافؤ بيننا وبين الإسرائيليين الذين غلبونا حتى الآن، ليصبح البعد الأخلاقي الميدان الوحيد لصراعنا."[49]

---

[46] ....،المثقف والسلطة،ص84.

[47] سعيد، نهاية عملية السلام، مصدر سبق ذكره، ص24.

[48] نفس المصدر السابق، ص151.

[49] نفس المصدر السابق، ص162.

في مرحلة متأخرة من حياته، بدأ سعيد يطرح حلاً للقضية الفلسطينية متمثلاً بربط حل القضية الفلسطينية بحل المسألة اليهودية نفسها، وللخروج من تلك المعضلة، إقترح سعيد حل الدولة الواحدة أو الحل السيمفوني التراجيدي.[50] وفي هذا السياق، يقول سعيد: "إنه صراع مذهل. لقد كنت أقول لدانيال في ليلة ماضية، تأمل هذه السلسلة من الأحداث: العداء للسامية، الحاجةُ إلى إيجاد وطن لليهود، فكرة هرتزل الأصلية، التي كانت فكرة كولونيالية بالتأكيد، ومن ثم تحوُّل ذلك إلى أفكار اشتراكية حول اليشوف والكيبوتس، وبعدها المحنة إبان هتلر، ووجود أناس مثل إسحق شامير كانوا معنيين حقاً بالتعاون مع هتلر (يقصد لعقد معاهدات الهعفراه لتهجير اليهود إلى فلسطين)، وإثرها الإبادة الجماعية التي حصلت لليهود في أوروبا، ومن ثم الأفعال التي تم اقترافها ضد الفلسطينيين في فلسطين. عندما تفكر في ذلك، وعندما تتأمل في اليهودي والفلسطيني، لا على نحو منفصل، بل مجتمعين كسيمفونية، تجد شيئاً مذهلاً مفروضاً هنا. تجد تاريخاً غنياً للغاية، تراجيدياً للغاية، وفي نواحٍ كثيرة، تجدُ تاريخاً بائساً للنقائض، أو المتناقضات بالمعنى اليهغيلي، التي لا تزال تبحث عمن ينصفُهَا. ولذا، فإن ما تواجهه هنا هو هالة مذهلة لسلسة من المآسي، والخسائر، والتضحيات، والألم الذي قد يحتاج دماغَ باخ ليفهمه. أو قد يتطلب مخيال واحدٍ كـــ إدموند بورك ليسبره."[51]

ربما يمثل هذا الطرح متاهة أخرى تضاف إلى المشهد، لأن أساس أي حل ومصالحة حسب الباحث يكمن أولاً بالاعتراف ومن ثم القبول ومن ثم التعويض والمحاسبة، لا "الترقيع" والحلول الفانتازية التي قد لا تحدث، لأن التعايش الضمني الموجود بين العرب والإسرائيليين "مزيف" تربطه العلاقات الزبائنية والعلاقات الوظيفية، ليس بالضرورة أن ينتهي بانتهاء هذه العلاقات. ومن ناحية أخرى، لا يمكن أن يكون هناك تعايش مع نظام استعماري عنصري، وبين سكان أصليين لهم امتدادات إقليمية ودينية بالمحيط، إذ سرعان ما ستطفو الصراعات الأخرى بتبدل الظروف الإقليمية. ومع ازدياد وتيرة القمع التي تحدث عنها فانون وسماها المرحلة الأولى من الانعتاق تظهر في المرحلة الثانية على شكل دموي أكثر، حتى لو كان هناك احتواء للفلسطينيين من خلال سياسات العزل والتقفيص، إلا إن الانفجار ربما يكون حتمياً إذا ما استمر النظام الاستعماري بنفس

---

[50] انظر للمزيد الى سعيد، ادوارد. 2006.الثقافة والمقاومة: حوار مع ديفيد بارساميان .ترجمة علاء الدين ابو زينة.بيروت: دار الآداب.ص17-41.

[51] Edward W. Said. “My Right of Return,” Interview with Ari Shavit, *Ha’aretz Magazine*, August 18, 2000, Tel Aviv, Israel. Published in: *Power, Politics, and Culture: Interviews with Edward W. Said*, ed. (Gauri Viswanthan). New York: Pantheon Books, 2001, p. 447.

هذه الوتيرة. ربما الهوية ما وراء القومية التي تحدث عنها هبرماس قد تكون المخرج للمسألة اليهودية والفلسطينية، ولكن دولة القوميات المتنافرة من الصعب أن تتعايش معاً.

وعليه، يمكن تلخيص هذا النموذج بنقطتين أساسيتين: الأولى، إبرار حركات المقاومة الفلسطينية المختلفة سواء أكانت عنفية أو لاعنفية؛ والأخرى، تفكيك أسس المشروع الاستعماري من خلال تحليل وفك البنى المشكلة لهذه البنى، من خلال إعادة كتابة التاريخ، ونقد الخطاب والأساطير والبنى والروايات المختلقة، ومن ثم طرح وجهات نظر وروايات مقابلة لها بحيث تأخذ رواية المستَعمر بعين الاعتبار بحيث يجب على كل فلسطيني أن يروي قصته.

المشكلة في الأدوات التي يستخدمها نموذج فاندي، في أنه ركز على النخب والمثقفين كفاعلين أساسيين في عملية التحرر على نحو يذكر بمشكلة فانون، حيث ركز هو الآخر على أن التغيير يجب أن يأتي من "فوق"، وهذه مشكلة أخرى تضاف لسعيد، بينما في النموذج اللاعنفي فإن الثورة والتغيير يأتي من "تحت" ويشمل جميع الفئات الشعبية بعكس هذه النماذج. ولعل هذه هي واحدة من أهم الاختلافات الجوهرية بين النماذج الثلاثة، فبينما نلاحظ أن إدوارد سعيد قد حلل بعمق البنى المكونة للحالة الاستعمارية، وبالتالي تعامل مع البنية التحتية للمشروع الاستعماري، وعلى عكس كل من غاندي وفانون اللذين تعاملا مع البنية الفوقية أو السطحية للمشروع الاستعماري، وهذا الطرح يبرز تميز نموذج فاندي عن النموذجين الآخرين.

5.8 خصوصية الحالة الفلسطينية عن باقي الشروط الاستعمارية

تكمن خصوصية الحالة الفلسطينية،[52]أولاً بمواجهتها لمرحلة ما يسمى بما بعد الصهيونية التي سيتم الحديث عنها في الفصل السادس، وكذلك من خلال خصوصية النموذج الاستعماري الإسرائيلي نفسها المختلفة عن

[52] انظر ايضاً الى .... 1999. القلم والسيف حوارات مع ديفيد بارسميان.ترجمة توفيق الاسدي. ط2.دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.ص 47-48.

باقي النماذج الاستعمارية التي عرفها التاريخ، حيث أن هذه الحالة هي حالة استعمار إحلالي،[53] وحيث أن هذه المجموعات "الناجية والغير مرغوبة في أوروبا" جمعتها الحركة الصهيونية على الرغم من اختلافاتها وتنوعها، وأزالت صفة العروبة عن اليهود الشرقيين من أصول عربية، وجلبتها إلى فلسطين التاريخية في ثلاث موجات، وأسست فيها مستعمرات، ثم أقامت دولة بعد ذلك على حساب السكان الأصليين، مستغلة الانتداب الاستعماري الانجليزي لصالحها. وقد زاد من تعقيد هذا الشرط أن الحركة الصهيونية الاستعمارية تعتبر نفسها حركة تحرر، وأنها لم تحتل أراضي الفلسطينيين بل استعادت ما فقدته قبل ألفي عام بناءً على فكرة الحق التاريخي المزعوم، وعززت ذلك بأساطير توراتية لتأسيس هذا "الحق التاريخي."

أما الخصوصية الثالثة، فتتجلى في فكرة تحول منطق الخطاب التحرري الفلسطيني من الثورية في أيامه الأولى والمتمثل بحالات الرفض ومقاومة المشروع الصهيوني وصولاً إلى البكائية واستجداء الأرض والموارد، في أوسلو وما بعدها، على عكس الحركة الصهيونية التي بدأت تحركاتها ببكائية وانتهت بثورية. وإلى هذه الخصوصية، تضاف فكرة الأصول الغربية للمشروع الصهيوني وتلاقي المصالح بين الدول الغربية والصهيونية والرؤى الاستشراقية التي أسست له، وأنتجت الاستعمار الصهيوني كحل لمشاكل أوروبا، حيث تم حل المسألة اليهودية بالتلاقي مع الاستعمار، والاستبدال القسري للسكان، سواء العرب الفلسطينيين أو العرب اليهود في الدول العربية، وتحويل المجتمع الفلسطيني وتفتيته وشرذمته بحيث طرد الفلاحون من أراضيهم ليصبحوا لاجئين ونازحين ومهجرين يعانون العزلة والمهانة والهامشية الاقتصادية والتفكك الأسري والاضطهاد السياسي وأزمة الهوية[54]، التي أوجدتها التبعية القانونية لمصر والأردن بعد عام 1948، ومن ثم التبعية الاقتصادية[55]للكيان الإسرائيلي خصوصاً بعد العام 1967.[56]

---

[53] المسيري،الصهيونية والعنف، مصدر سبق ذكره، ص219.

[54] صايغ، مصدر سبق ذكره، ص121-176.

[55] أنظر كذلك إلى – المالكي، مجدي وآخرون. 2004. المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال.ط1.رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

[56] تماري، سليم وآخرون. 1994. المجتمع الفلسطيني في غزة والضفة والقدس العربية.ط1.بيروت.مؤسسة الدراسات الفلسطينية: ص17-30

وقد أدت هذه الوضعية إلى وجود نسبة كبيرة من الشعب الفلسطيني في المنفى الإجباري أو لاجئين بحيث لا يقتصر التمثيل السياسي على من بقي داخل فلسطين الانتدابية، ومحاولات تناسي هؤلاء من قبل بعض السياسيين الفلسطينيين؛ وتضارب الوسائل في التحرر، من كفاح مسلح ووسائل أحرى لا عنفية، أي التناقض بين دولة وثورة في سابقة تاريخية من نوعها، إذ هناك مجلس تشريعي ونواب ووزارات، وفي نفس الوقت يحتاج الرئيس والوزراء إلى تصاريح للمرور أو للسفر من الاحتلال الإسرائيلي، إضافة إلى وجود أزمة في التمثيل، وحقائق على الأرض مثل المستوطنات والجدار، وما إلى ذلك من تناقضات بين الفكرة الفلسطينية عن التحرر وواقع الاحتلال القاتم الذي لم يتغير بل ازداد سوءاً.[57]

ولعل ما يزيد من تكريس هذا التناقض كيفية التعامل مع مجموعة من الشعب الفلسطيني تحمل جنسية البلد المستعمر نفسه في فلسطين المحتلة في العام 1948، وتعيش كأقلية تعاني من القوانين العنصرية من مصادرة للأراضي ومحو للهوية رغم وجود تمثيل سياسي لها في البرلمان الإسرائيلي.[58]ومن هذه الخصوصية المزدوجة للحالة الفلسطينية والشرط الاستعماري المميز عن غيره نستطيع أن نستنتج بروز الازدواجية الكفاحية في أساليب التحرر.

5.9. خلاصة

تشكل إسرائيل حالة استعمارية فريدة من نوعها، أدت بالمحصلة إلى بروز نمط من الثنائية الكفاحية لدى الجانب الفلسطيني.بينما حسب المدرسة اللاعنفية لا يمكن الدمج بين العنف واللاعنف لأن الدمج يعني 90% لا عنف، و10% عنف الأمر الذي يضر بالكفاح بناءً على فكرة تلازم الغايات والوسائل. ولعل هذا الأمر يدلل على الازدواجية الأخلاقية عند إدوارد سعيد، بل تناقضه في بعض الأحيان من خلال تبرير المقاومة المسلحة، ونبذ العنف في مكان آخر. ولكن نموذج فاندي يركز على البنية التحتية للمشروع الاستعماري على

---

[57] لمزيد من التفصيلات بخصوص حالة الاستشراق الثقافي المحلي الذي برر لتحوُّل المشروع الوطني الفلسطيني، وفكرة الفلسطنة نفسها، أنظر:
Al-Shaikh, Abdul-Rahim, "Palästina: Leben im Tunnel", in: Catherine David, Georges Khalil and Bernd M. Scherer (eds.), *Di/Visions - Kultur und Politik des Nahen Ostens*, Wallstein Verlag, Goettingen 2009, pp. 191-214.

[58] زريق،ايليا. 1997.أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل، دليل إسرائيل العام. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية: ص315–348

عكس النماذج الأخرى التي تركز على البنى الفوقية له. وعليه، يستنتج سعيد بأنه لا يمكن حل القضية الفلسطينية دون حل المسألة اليهودية والتعامل مع خطيئة أوروبا الكبرى، فكلاهما مرتبطة بالأخرى، ولا يمكن حلهما إلا على نحو سيمفوني.

الفصل السادس

ملاحظات نقدية

6.1 تمهيد

يتحدث هذا الفصل عن القضايا الخلافية التي برزت في الدراسة مثل الخلاف حول مفهوم التحرر؛ ونتائج النماذج التحررية التي تم إستعراضها؛ والمقارنة فيما بينها من خلال النتائج التي تحققها على مستوى الفعالية الكفاحية؛ وتأثير النموذج المستخدم على مستوى شكل الدولة المستقبلي في مرحلة التحرر من حيث التأسيس لديمقراطيات أو لدكتاتوريات يكون قناعها ديمقراطيات شكلية؛ وتأثير النموذج المستخدم في التحرر على على مستوى حقوق الإنسان؛ إضافة إلى مأزق الحالة الفلسطينية وآفاق التحرر.

6.2 الخلاف على المفاهيم

لقد تناولت أكثر الأدبيات نماذج تحرر تم ربطها بعملية التحرر ذاتها من الشرط الاستعماري الموجود، إلا إن هذا المفهوم يحتاج إلى إعادة نظر من باب أن مصطلح "تحرر" يحتوي على الكثير من المفاهيم المركبة ذات الهالة الأخلاقية. ومن ناحية أخرى، فإن ثمة الكثير من الغموض الذي يلف هذا المفهوم، فهل يعني التحرر من الاستعمار أي القطيعة والخلاص من المستعمر؟ أم يعني تبدل المستعمر؟ وما هي شروط أو معايير التحرر إذا ما وجدت؟ ومتى يصبح التحرر تحرراً؟ حسب فانون، ثمة معايير لعملية التحرر، وقد عبر عنها بمصطلح الانعتاق، حيث تحدث عن ثلاث مستويات يمكن أن يتحقق من خلالها الانعتاق، وهي: الانفصال عن الغرب، وقول الحقيقة، ووجود رؤية وأهداف واضحة. ولو تمت مقارنة المعايير التي وضعها فانون للتحرر وواقع الدول التي "تحررت" لتبين أن أكثر هذه الدول قد انتقل إلى الحالة ما بعد إستعمارية وليس إلى مرحلة التحرر.

ومن هنا، يفترض الباحث عدم وجود تحرر في الدول ما بعد الاستعمارية، لأن طرح مصطلح تحرر من الشرط الاستعماري يعطي معنى بالقطيعة، ولكن هذه القطيعة المفترضة مع الشرط الاستعماري لم تحدث حتى

الآن، وبخاصة في الحالة الفلسطينية. ففي حالة ما يسمى بالدولة ما بعد استعمارية، حافظت السلطة الناشئة على نفس الأزمات المحلية المتمثلة بالصراع الطبقي والإثني، بل وعززت منها حتى أن هذه النخب الوطنية تحولت إلى "نخب كومبرادورية."[1]ولعل جل ما قامت به هو أنها غيرت من بعض الشكليات كالعَلم، وبعض المناهج الدراسية لتخدم أجندتها، واستمرت بخصخصة ونهب خيرات البلد، وهذا ما حذر منه فانون مراراً، عندما قسم مراحل الانعتاق أو التحرر إلى مرحلتين: الأولى مرحلة القومية؛[2]والأخرى، المرحلة الاجتماعية، حيث اشترط إكمال المرحلة الأولى قبل الدخول في المرحلة الثانية، لأن عدم حل الصراعات الطبقية والإثنية والقبلية في المرحلة الأولى من التحرر سيؤدي إلى معاودتها وظهورها من جديد في مرحلة الدولة بعد أن يتم التخلص من المستعمر، ما سيعقد من الأمور أكثر.

6.3 النموذج العنفي في الميزان: مقاربة نقدية

في البداية لا بد من التذكير أنه يوجد خلاف حول مصطلح العنف، فإلى هذه اللحظة لا يوجد تعريف محدد لما يعنيه العنف، وما الفرق بينه وبين اللاعنف؟ أو متى تصبح بعض الأعمال عنفاً؟ ومن يحدد أن عملاً ما هو في خانة العنف، بينما أعمال أخرى قد تكون في خانة اللاعنف؟ لذا يشكل الحديث عن العنف، كظاهرة وكحالة دراسية هنا، مشكلة دراسية بحتة من الصعب الإجابة عليها وتحديدها كونها تختزل الكثير من المفاهيم المركبة كالقوة والتغيير، والتي هي الأخرى بحاجة إلى تحديد مفاهيمي. ولذا، فقد كان المقصود بمصطلح العنف، وسائل الكفاح المسلح العنيف الذي يبغي إلى تحقيق أهداف سياسية وإجتماعية وإقتصادية وعسكرية وفي طرد الاستعمار وتحقيق الاستقلال. وعليه، يمكن القول إن النموذج العنفي كان الأكثر إنتشارا واستخداماً من قبل حركات التحرر المختلفة، وإنه قد أدى إلى التحرر أو الانتقال إلى حالة الدولة ما بعد الإستعمارية، ولكن لا يكمن الحديث عن نتائج النموذج العنفي إلا بتكثيف نتائجه من حيث مستوى الجدوى والفاعلية في التحرر، وحقوق الإنسان، وشكل الدولة الناشئة من حيث كونها دولة ديمقراطية أو دكتاتورية، ومستوى التحرر وهل أدى إلى تحرر من الجلاد أم إلى تحول إلى جلاد جديد؟

---

[1] Massad,P107

[2] Samman, 2006, p17

أ. الجدوى والفاعلية في التحرر

لقد كان استخدام النموذج العنفي في التحرر فعّالاً ومفيداً، وقد أثبتت التجارب التاريخية فعالية هذا النموذج، إلا إن هذا يعتمد على عدة عوامل ليس بالضرورة أن تكون دائماً موجودة، مثل: الدعم الخارجي والدولي؛ وطبيعة البلاد كأن تكون جبلية، أو سهلية، أو غابات؛ ومساحتها بحيث تسمح بممارسة حرب العصابات والاستنزاف الطويل المدى؛ ومدى الاستعداد العسكري من حيث طرق التموين، نوع الأسلحة، والتكلفة في شراء السلاح؛ وقوة الدولة الاستعمارية وطبيعتها، أي هل تملك التكنولوجيا، وهل لديها جماعات ضغط خارجية، وما هو عدد السكان فيها وعدد المستوطنين، وما هو نوع السلاح المستخدم، وما هي طبيعة الطرق ومدى حمايتها؟ ومن ناحية أخرى، فإن تكلفة هذا النموذج عالية جداً، من حيث الخسائر في الأرواح والمعدات والبنى السكانية والعمرانية، بحيث أدت حروب التحرير إلى استنزاف قدرات وموارد بلادها، وخسرت بعضاً من خيرة أبنائها وثرواتها وعقولها. كما تركت الحرب ندوباً تعاني منها هذه الدول والشعوب حتى اللحظة، فمثلاً كلفت الحرب الجزائر أكثر من مليون شهيد، وفيتنام مئات الألوف ودمرت البنى التحتية والاقتصادية، وأدخلت البلاد في ديون ونزيف مالي مستمر.

وفي الوقت نفسه، فقد خلق تراث العنف مشاكل بعد التحرر، حيث أصبحت بعض الجماعات ممن لها مصالح تستخدم العنف في التعبير عن مواقفها بدل اللجوء إلى الوسائل السياسية الأخرى. وكذلك، فإن تعدد السلطات على الأرض وغوغائية السلاح تضعف من قوة وهيبة الدولة. غير أن الجانب الذي يمكن نقده في هذا النموذج، وغيره للمفارقة، أن الدول الجديدة قد حققت استقلالاً شكلياً بعد أن تبدلت النظم الموجودة من نظم استعمارية غربية إلى نظم شمولية دكتاتورية تحكمها الزمر العسكرية. كما أن استخدام العنف في التحرر لم يحرر البلاد من التبعية الأجنبية، ولم يحل الصراعات الداخلية، ولم يوحد الطبقات حسبما اعتقد فانون، ولم يؤد إلى تحول ديمقراطي، بل إلى حكم العسكر والانقلابات. هذا، وقد يتحول العنف إلى نوع من العبث حين يؤدي إلى تدمير الأجيال من خلال انتشار الجهل والأمية بسبب انعدام الاستقرار وتدمير المدارس والمرافق أو

تحويلها إلى معسكرات تدريب، حيث يؤدي إستخدام العنف إلى حسم كثير من الصراعات الداخلية بقوة السلاح، ما يمهد لحرب أهلية، حيث يتحول المناضل عن قضيته الأساسية، فتصبح الحرب عبثية من أجل اكتساب مواقع عسكرية أو لاستعادة مواقع خسرتها طمعاً في السلطة.

ب. **حقوق الإنسان**

لقد وضّحت قوانين حقوق الإنسان المتعارف عليها الحقوق والواجبات الموجب على القوى المتحاربة إتباعها أثناء النزاعات الدولية، أو في النزاعات التي لا تحمل صفة الدولية،[3]خصوصاً القانون الدولي الإنساني، واتفاقية جنيف الرابعة، والبروتوكول الأول والثاني الإضافيين. وقد ركزت هذه مجتمعة على حماية المدنيين، وعدم التعرض لهم، وعدم القيام بالأعمال المنافية للأعراف والقوانين الدولية مثل التهجير القسري، والإبادة، والمجازر والاغتصاب، وقتل المدنيين والتعامل مع الأسرى. وهنا، يقول ريتشارد فالك وهو من الخبراء في القانون الدولي "فالقانون الدولي فيما يتعلق بالحرب والمقاومة لا يسمح أبداً بإستهداف المدنيين عن سابق تصور وتصميم، ومثل هذا القيد ينطبق على الحكومات وحركات التحرر سواءً بسواء. ومع ذلك، فإن قانون الحرب واضح في هذه الأمور حيث إن المنظورات الأخلاقية والسياسية أكثر غموضاً وغالباً ما تنخرط في تصرف غير قانوني من أجل تحقيق العدالة عبر الثأر. تتبنى نظرة تقول بالضرورة العسكرية التي تبرر سياسياً استهداف المدنيين."[4] وعليه، فإن النموذج العنفي كثيراً ما يتعرض للمدنيين، ويرتكب في بعض الأحيان فظائع تحت شعار التحرر، أو عذر "الأضرار الجانبية" التي ترافق أية عملية مسلحة مثل قتل أطفال أو شرائح أخرى من المدنيين.

ج. **شكل الدولة من حيث الديمقراطية أو الدكتاتورية**

لعله يمكن ملاحظة شكل الدولة من خلال مراقبة السلطة التنفيذية والتشريعية، واستقلال القضاء والاعتقال، والانتخابات، ودور الأحزاب، وفاعلية المجتمع المدني وحرية التنظيم، وحقوق المرأة والمهمشين، واستقلال

---

[3] للمزيد أنظر الى اتفاقيات جنيف الأربعة والبروتوكولين الإضافيين.

[4] فالك، ريتشارد. 2002. "**المقاومة الفلسطينية، أسئلة البعد القانوني**". مجلة دار الآداب:24. (نسخة الكترونية إستعيدت بتاريخ 2007-1-29) .

الإعلام وحرية التعبير، والحرية الدينية. ولعل هذه عناصر تختلف بين دولة وأخرى، ولا يمكن تعميمها لأن كل دولة تشكل حالة دراسية بحد ذاتها.[5]وفي حالة الجزائر، مرت البلاد بتغيرات كبيرة، ولكن بشكل عام بقيت إمتيازت السلطة التنفيذية بيد الجيش والنخب العسكرية. ولعل آخر الأمثلة، أنه تم إلغاء نتائج الانتخابات التي أدت إلى وصول الإسلاميين إلى الحكم. أما بالنسبة لاستقلال القضاء، فيوجد فصل شكلي بين السلطات، بينما السلطة الحقيقية بيد رئيس الجمهورية والجيش، والقضاة مرهون اختيارهم بولائهم للسلطة الحاكمة، وليس على بناءً على الكفاءة. وأما البرلمان، فدوره محدود كما هو الحال في أكثر دول العالم الثالث حيت تعمل البرلمانات على نحو تجميلي للنظام. وأما الإعلام، فمركزي وحكومي لخدمة النظام الحاكم، وكذلك حرية التنظيم المقتصرة على الأحزاب الحاكمة.

د. ما بعد التحرر: تحرر من الجلاد أم إلى تحول جلاد؟

لقد أدى النموذج العنفي في العادة الى إستبدال الجلاد بجلاد آخر في أكثر الدول التي تحررت، فيما يعرف بالدولة ما بعد الستعمارية، لأن من يصل بالعنف يحكم بالعنف،[6]فلم تحدث تغيرات فعلية في بنية النظام السياسي. وهنا، يمكن القول إن التلازم بين الغاية والوسائل حسب المدرسة اللاعنفية لم يكن واضحاً، إذ إن استخدام العنف يحيد بالعادة عن الأهداف الكبرى، فتصبح النزاعات على السلطة، وتولي الحكم أهم من قضايا التنمية والاستقلال. كما إن البنية الدكتاتورية والنخب العسكرية التي تصل إلى الحكم تحاول أن تقمع كل حركة معارضة لها، وفي نفس الوقت تلجأ إلى إستخدام نفس الأساليب الاستعمارية والسجون ورموز القهر للتحول إلى جلاد محلي. ومن ناحية أخرى، يصبح هناك تمييز بين المواطنين بين الذين شاركوا في النضال وبين من لم يشاركوا، بحيث يؤدي هذا إلى نوع من التراتب بين المواطنين حسب الأقدمية الحزبية، أو النضالية، وتبرز ظاهرة أغنياء الحروب، والمشاكل الاجتماعية من عنف داخلي وطائفي وإثني، حيث إن حرب التحرير تؤجل هذه الصراعات لتظهر فيما بعد في إطار الدولة، كذلك ظاهرة الفساد الاجتماعي والسياسي، مثل إنتشار بعض الاوبئة الاجتماعية الناتجة عن عدم التكيف مع الظروف الجديدة، وخصوصاً بين المقاتلين الذين أرهقتهم مشاهد الموت والدمار بل جعلت بعضهم

[5] أنظر كذلك الى عاصي، جوني.2006. **نظريات الانتقال الى الديمقراطية**، إعادة نظر حول برادغم التحول.رام الله: مواطن

[6] صحيفة النهار بتاريخ 16-1-2006

ساديين. ولعل من أدل الأمثلة على ذلك ما حدث للجنود الأمريكيين العائدين من فيتنام، ومن حرب الخليج، وغزو العراق الأخير. وعليه، يمكن القول إن هذه الدول انتقلت من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة ما بعد الإستعمار، وليس إلى مرحلة الاستقلال، وهو التعبير الأدق إستخدامه لأن التحرر يجب أن يشمل نقلة نوعية في مختلف مجالات الحياة، حيث في تجربة هذه الحركات انسحب المستعمر مخلفاً وراءه سلطة مشابهة، بينما بقيت البنى القمعية محافظة ولكن بأيد محلية حسبما يؤكد إدوارد سعيد؟[7]وهذا هو واقع أكثر هذه الدول، وبخاصة في الحالة الدراسية حول الجزائر.[8]

ومن هنا، يكون النموذج العنفي مكلفاً بكل معنى الكلمة، وعواقبه أكثر من فوائده الأمر، الذي يجعل منه عائقاً أمام تطور حقوق الإنسان، وتسهيل عملية التحول الديمقراطي، بل إنه يعيقها بسبب أعمال العنف والزمر العسكرية والتمييز بين المواطنيين، وكذلك بالنسبة للفاعلية وشكل الدولة بعد التحرر.

6.4 النموذج اللاعنفي في الميزان: مقاربة نقدية

كما تمت الإشارة سابقاً إلى وجود خلافية في التعريف لمفهوم العنف، فإن الحالة ذاتها تنطبق على مفهوم اللاعنف كذلك. أما المفهوم كما حددته الدراسة هنا، فاللاعنف هو الذي يستخدم فقط في النضال من أجل التغيير أو من قبل حركات اجتماعية أو حركات التحرر، أو ما يسميها بالبعض بالمقاومة "السلبية" التي تبغي تحقيق أهداف سياسية واجتماعية واقتصادية، وفي طرد المستعمر من خلال هذا الأسلوب، وهو ما يهم الدراسة هنا. فالبعض قد يعتبر أن إغلاق الطريق بإطارات مشتعلة وضرب حجارة عنفاً، بينما يراه آخرون في صميم المقاومة السلمية. وكذلك بالنسبة لبعض الوسائل المتبعة والتي تم الاتفاق على أنها لاعنف، مثل: الحرمان الاجتماعي الذي تفرضه بعض المؤسسات الدينية على أفرادها، بينما يراه الباحث بأنه في صميم العنف الاجتماعي أو الديني، كون مفاهيم العنف أو اللاعنف

---

[7] حيث كانت القوة الكولونيالية في حال لم تستطع ان تحكم قبيلة ما أو ان تتواصل معها، تكلف احد شيوخ وزعماء هذه القبائل وتعينه مسؤولاً عنها، و لأن يحكم بالنيابة عنها

[8]انظر الى الفصل الثاني والثالث والخامس والسابع من براهيمي، عبد الحميد. 2001. **في أصل الازمة الجزائرية**.ط1.بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

تختزل الكثير من العناصر المركبة التي تحتاج إلى تفكيك. ولكن من الضروري التعرف على الكيفية التي عرف بها بعض رواد المدرسة اللاعنفية اللاعنف، ولعل أبرز هذه التعريفات التعريف الذي قدمه جين شارب[9] حيث عرف اللاعنف بأنه تقنيات عامة للتعبير عن الاحتجاج والمقاطعة، والمقاومة لوقائع أو قوانين والتدخل فيها يكون بدون عنف جسدي، وتكون هذه التكتيكات مستندة على عناصر عدة هي الاحتجاج اللاعنفي والإقناع واللاتعاون والتدخل اللاعنفي. بينما يشدد جان ماري موللر بأنه ينبغي إجراء تمييز بين فرضية اللاعنف الفلسفية وبين إستراتيجية العمل اللاعنفي فهذه وتلك تتموضعان على صعيدين مختلفين يجدر التمييز بينهما، بل لتفادي الخلط فاللاعنف كمبدأ فلسفي هو طلب المعنى، أما كمنهاج عمل فهو البحث عن الفاعلية.[10]

وعليه، فإننا نرى أن أهم فاصل بين العنف واللاعنف هو عدم وجود عنف جسدي أثناء التدخل من قبل النشطاء اللاعنفين، وإلا أصبح التدخل عنيفاً. وكذلك، فإن المرتكزات الأساسية للعمل اللاعنيف وهي حجج الإقناع، وعدم التعاون والتدخل اللاعنيف، بينما يعرف جين شارب القوة مؤكداً أنها "تستخدم للإشارة إلى كل مظاهر النفوذ ووسائل الضغط، بما في ذلك العقوبات المتاحة لجماعة أو مجتمع معين والتي يستخدمها للدفاع عن نفسه ولتطبيق سياساته ولإدارة الصراعات الداخلية والدولية، ويمكن قياس القوة بالقدرة النسبية على السيطرة على موقف معين وعلى الشعب والمؤسسات، أو بالقدرة على تعبئة الشعب والمؤسسات للقيام بنشاط معين، وتستخدم هذه القوة لتمكين الجماعة من تحقيق هدف معين مثل تطبيق أو تغيير سياسات، أو إقناع الآخرين بالتصرف على النحو الذي يريده مالكو القوة، مثل إقناعهم بالمشاركة في المعارضة، أو بدعم النظام القائم وسياساته وعلاقاته أو لتغيير وتدمير نمط توزيع القوة القائم، وقد تستخدم القوة لتحقيق خليط من هذه الأهداف."[11]

---

[9] *Sharp,Gene.200,P547*

[10] موللر،2008،ص237

[11] شارب، جين.1988.المقاومة المدنية في النضال السياسي. سعد الدين إبراهيم (تحرير).ط1.عمان:منتدى الفكر العربي،ص10

هذا، وقد يعرف البعض القوة من منظور آخر مرتبط باستخدام العنف سواء من قبل سلطة سياسية أم غيره، والمقصود بالعنف هو استخدام وسائل ضغط على الأفراد والجماعات من خلال عدة ممارسات جسدية وإجتماعية وإقتصادية الهدف منها إنزال عقوبات تجاه المخالفين، والسيطرة على النظام القائم من خلال هذه المنظومة، حيث يوجد عدة أنماط من العنف منها الجسدي كالضرب والقتل، ومنها النفسي كالإرهاق في التحقيق والحرمان من النوم، وقد يكون عنفاً إجتماعياً كالحرمان والنبذ، وقد يكون إقتصادياً من خلال الحصار والمقاطعة والاستيلاء والمصادرة وتجفيف الموارد المالية. ومن هذا التعريف يأتي التداخل بين تعريفات العنف واللاعنف، وعن مدى الحدود الفاصلة بين الأسلوبين.

أ. الجدوى والفاعلية في مسألة التحرر

إن إستخدام اللاعنف في التحرر فعّال في مواجهة قوى الخصم سواء كانت قوى استعمارية أم دكتاتوريات، مع ضرورة التمييز بين الحالتين، حيث تعتمد الأخيرة في العادة على ترسانتها القمعية، وبالتالي تفرض أجندتها وقواعدها في اللعب، وبالتالي تحول أضخم الجيوش بكافة ترسانتها إلى عناصر يحملون العصي والهراوات لتفريق المتظاهرين. ولذا، فإن تجفيف مصادر قوة الخصم وحرمانه من أدوات القمع هذه من الأمور الفعالة جداً وذات الجدوى. وكذلك، فإن هذه المقاومة تجند كافة عناصر المجتمع وتختزل جميع قواته وإمكاناته، على عكس الحركات العنفية التي قد تنتهي بتجفيف مصادر التمويل أو السلاح. ولذا، فإن القوة الكامنة في المجتمعات وتجييشها في خدمة التحرر من العوامل المهمة والفعالة.

ومن ناحية أخرى، فإن اختيار ساحة المعركة وأدواتها وقوانينها تضع الخصم الاستعماري في حيرة وإرباك، فهو مستعد لمواجهة جيوش لا مدنيين في الشوارع، على الرغم من تطويره لإمكانات القمع، كقنابل الغاز وإستخدام الماء الملون والخراطيم في قمع التظاهرات، إلا إنها تبقى محدودة وغير فعالة في مواجهة الجماهير الكبيرة التي سرعان ما تعاود الكرة من جديد، حتى لو امتلأت السجون ، فالحركات اللاعنفية تستخدم وسائل الخصم ضده مثل رياضة الأوكيدو تعتمد على قوة الخصم لتردها

إليه. كما يمكن الحديث عن استخدام اللاعنف لتفكيك النظام وتحليله، بحيث لا يصبح السجن سجناً ولا الشرطي شرطياً، فمثلاً لو هدد الخصم بسجن المعتصمين في سجون فإن هؤلاء يتابعون احتجاجهم من داخل هذه السجون والزنازين. ولذا، فإن اللاعنف من الأدوات الخطيرة والفعالة التي تستطيع خلع وتبديل أنظمة، والدليل على ذلك نجاح أكثر الحركات اللاعنفية على عكس الحركات العنفية التي كثيراً ما فشلت، فاللاعنف أخلاقية وفاعلية في نفس الوقت، بالإضافة إلى التكلفة المنخفضة في الأرواح والمعدات وغيرها.

ب. على مستوى حقوق الإنسان

لا تستخدم المقاومة اللاعنفية القتل ولا الأعمال الحربية العنفية للتحرر، الأمر الذي يجعلها حافظة وضامنة لحقوق الإنسان، وقد تحدث مجازر في خضم العمل اللاعنفي، كما حدث في مجزرة "امريتسار" في الهند إبان التحرر، ولكن المسؤولية عنها تقع على عاتق القوة القامعة على الأرض وليس على المتظاهرين وناشدي التحرر.

ج. شكل الدولة: الديمقراطية أم الدكتاتورية؟

الحركات اللاعنفية بسبب تركيباتها وبنيتها والوسائل التي تستخدمها تهيئ الأجواء لقيام نظام يقبل التعددية الحزبية والحوار والمشاركة والرقابة، لأن القيادات لا تكون عسكرية ولا يوجد تمييز بين المواطنين بسبب ماضيهم العسكري أو النضالي الموجود في الحركات اللاعنفية. وكذلك، فإن القيادة تكون مشتركة موزعة على عدة مناطق على عكس البيروقراطية الموجودة في الحركات العنفية والتي تسمح تركيبتها بخلق دكتاتوريات. كذلك فإن عامل الثورة المستمرة من قبل الشعب يجعل عامل الرقابة مستمر في حركات المقاومة اللاعنفية. وبما أن هناك احترام لحقوق الإنسان، ومشاركة ورقابة واختيار على أساس الكفاءة، وانتخابات غير شكلية، وتبديل وثورة مستمران، وإيمان حقيقي بالهدف، فإن هذه العوامل تهيئ لبيئة تحمل السمة

الديمقراطية.[12] وعليه، يمكن الاستنتاج أن استخدام اللاعنف في التحرر يهيئ الدولة إلى نظام ديمقراطي لأن الوسائل المتبعة في التحرر كانت إلى حد بعيد وسائل ديمقراطية مثل: الانتخابات، والمشاركة، والتمثيل، والأحزاب، والتعددية، والرقابة، والمحاسبية. وهذه من أدوات اللاعنف كذلك.

د. ما بعد التحرر: تحرر من الجلاد أم إلى تحول جلاد؟

لقد أدت المقاومة اللاعنفية في العادة إلى تغيرات جذرية شملت وضع الطبقات والنظام السياسي، وإستبدال المؤسسات القديمة بمؤسسات وطنية بديلة. إن هذه المؤسسات والبنى هي نتاج العمل اللاعنفي، على عكس الحركات العنفية التي تغير قمة الهرم دون أن تحدث تغيرات جذرية في البنى الاقتصادية أو الاجتماعية، ما أدى إلى تبديل الفرعون الأوروبي بفرعون محلي في حالة الجزائر. أما بالنسبة للهند، فقد حدث انقسام بين أفراد الشعب وتبعته حرب أهلية بين الهند وباكستان، ولكن أسباباً أخرى أسهمت في ذلك كالصراع بين الهندوس والمسلمين، والدور الاستعماري، والحرب الباردة. ولكن في جنوب أفريقيا أدى هذا النموذج إلى نوع من المصالحة بين البيض والسود، على الرغم من عدم وجود محاسبية إلى الآن على جرائم البيض. ومن هنا، يبرز دور النموذج اللاعنفي في خلق بنى تساعد على تطبيق حقوق الإنسان، وتعزز من مشاركة الجماهير وفي إعطائها دوراً رقابياً، وفي تعزيز دور مؤسسات المجتمع المدني، وفي فاعليته بأقل عدد من الخسائر، الأمر الذي يجعل هذا النموذج أكثر قبولاً وبراغماتية وقرباً للأشكال الديمقراطية، على الرغم من مثاليته التي تؤخذ عليه في بعض الأحيان.

6.5 النموذج الفاندي في الميزان: مقاربة نقدية

أ.على المستوى الجدوى والفاعلية في التحرر

نظراً لكون هذا النموذج لا يزال في صيرورة مستمرة، فإن من الصعب الحكم على مدى فاعليته دون وجود نتائج، ولكن بالتأكيد إن إستخدام هذه أدوات كنقد الأساطير والروايات الاستعمارية وأعمال

---

[12] كذلك انظر إلى الدجاني، أحمد صدقي.1987..تطور مفاهيم الديمقراطية في الفكر العربي الحديث.في:إبراهيم،سعد الدين (محرر).*أزمة الديمقراطية في الوطن العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

المقاومة جنباً إلى جنب من شأنها أن تؤثر في الخصم. ولكن مثل هذه الأدوات أدت إلى إفراز مؤرخين تصحيحيين، على الصعيد الإسرائيلي، ما يدلل على صعوبة هذا الاستعمار المتطور دائماً في أساليبه والمنظومة المعرفية التي يستخدمها في السيطرة على ضحاياه. وكذلك، فإن إستخدام أكثر من أسلوب في التحرر قد يؤثر في الجانب الآخر للصراع، فيكفي أن تعرض الوسائل الصهيونية منظراً لطفل إسرائيلي مقتول في عملية تفجيرية على شاشات التلفزة لتقوم في العالم كله صورة "وحشية الكفاح الفلسطيني،" الأمر الذي يدفع بالمثقفين وغيرهم إلى تبرير ذلك والدفاع عن المقاومة في المحافل الدولية، أو تحقيق نتيجة معاكسة عند بعض المثقفين المستعمَرين في أذهانهم. وهنا، نعود مرة أخرى إلى فكرة الغاية والوسيلة التي تحدث عنها غاندي، بحيث إنها تكون فعالة أكثر في حال كان الأسلوب واحداً، فإما العنف أو اللاعنف: العنف معروفة نتائجه من دمار قتل وغيره وتهمة جاهزة بالإرهاب؛ بينما الوسائل اللاعنفية قد تعطي نفس نتائج التحرير وتوازن القوى على الأرض ولكن بخسائر أقل وفاعلية أكثر.

ب.على مستوى حقوق الإنسان

المقاومة اللاعنفية لا تستخدم القتل ولا العنف بالتحرر، الأمر الذي يجعلها بكل تميز حافظة وضامنة لحقوق الإنسان وقيمها، على عكس المقاومة العنفية المسلحة التي قد تؤدي إلى استهداف بعض المدنيين، ما قد يعتبر من جرائم الحرب حسب القانون الدولي. ومن هنا، توجد محاذير كثيرة لهذه الازدواجية حين يستخدم البعض السلاح في المقاومة الأمر الذي يعرض الكثيرين إلى الخطر، في حين يضطر المثقفون إلى تبرير ذلك استناداً إلى الشرعية الدولية، ورغبة في "توضيح السياق التاريخي للعنف"، كما درج إدوارد سعيد على القول.

ج. شكل الدولة: الديمقراطية أم الدكتاتورية؟

من الممكن القول إن النموذج الفاندي يؤسس لنظام من التعايش المشترك وذلك من خلال طرح حل الدولة الثنائية القومية، إلا إن ذلك فيه مخاطرة كبيرة خصوصاً وأن العالم تحكمه القطبية الواحدة، وتحيز الأمم المتحدة، وتضارب المصالح بين الدول الذي قد يجعل من هذا الحل ضرباً من الفانتازيا أو الخيال، هذا إن تم إغفال الرفض القاطع الذي تبديه إسرائيل وقوى التيار اليميني المركزي فيها لمثل هذا الطرح. ولكنه طرح

ممكن في المدى البعيد إذا ما تمت المصالحة والسلام على أساس إلغاء النظام الاستعماري الإسرائيلي الموجود، وقيام دولة جديدة تضم كافة قطاعات الشعب الفلسطيني وقد يكون النشيج اليهودي، الأشكينازي والشرقي ضمنها، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، والتعويض، ومحاسبة من قام بالجرائم على أن تعترف إسرائيل، كدولة، والصهيونية، كحركة، بالمسؤولية الكاملة عن الظلم التاريخي الذي لحق بالفلسطينيين، والتعهد بتصحيح نتائج ذلك الظلم حسب مبادئ الشرعية الدولية.

د. ما بعد التحرر: التحرر من الجلاد أم إلى التحول الجلاد؟

لعل من الصعب الحديث عن نتائج هذا النموذج لأن الحالة الاستعمارية ما زالت موجودة، بل وتتطور بشكل مستمر على نحو يجعلها حالة تاريخية نادرة. ومن هنا تأتي صعوبة وجود تصور أو نتائج لهذا النموذج الذي يتعامل مع حالة استعمارية ليست كالحالات الأخرى. وقد يكون السبب المباشر في ذلك أن هذه الحالة يمارسها مجتمع بكامله بشكل مباشر له مؤسساته وليس مجرد جيش أو مستوطنين. وعليه، قد تمنح هذه الخاصية الخطرة إشارة بطبيعة الحل، وهو حل جزئي ولكن ليس جذرياً، إنه الحل الذي طرحه سعيد في هذا النموذج، والذي يقتضي المسألة اليهودية لأجل حل المسألة اليهودية.

6.6 تعقيب: مأزق الحالة الفلسطينية وآفاق التحرر

مما سبق يمكن استقراء طبيعة الحركة الصهيونية والأدوات التي استخدمتها في إخراج النموذج الاستعماري الإسرائيلي، وأوجه التشابه الكبيرة ما بين الحركة الصهيونية والحركات الاستعمارية من حيث الوسائل المستخدمة من حيث الاستشراق، والاختلاق التاريخي وآليات صناعة الآخر وشيطنته. ومن ناحية أخرى، فقد برز هناك تشابه ما بين الحركة الصهيونية والحركات التحررية من حيث بروز مفهوم القومية واختلاقه كرد فعل لموجات الاضطهاد والمحو، حيث برزت هذه الآلية في حالة حركات التحرر بحيث ساعدت الهجمة الاستعمارية في بروز توجهات معرفية مضادة ومقومة تجسدت في خلق حبكة وطنية في حالة حركات التحرر، بينما اتخذت شكل الحبكة الاستعمارية في حالة الصهيونية.

وبما أن النموذج الاستعماري الإسرائيلي مميز عن باقي النماذج، إذ إنه أسس ليكون بشكل دائم، وإنه لا يستند على فكرة البلد الأم، بينما في الحالات الاستعمارية الأخرى كان المركز الاستعماري هو مصدر المستوطنين وهو الملاذ الأخير لهؤلاء في حال تقهقرهم كما حدث مع المستوطنين الفرنسيين في الجزائر. وعليه، فإن سبب تأبيد هذا المشروع يعود إلى تفسيرات توراتية تؤمن بقدوم المسيح، ونهاية التاريخ، وغيرها من التصورات المسيانية، إلا إنه مشروع مؤبد كذلك لارتباط مصالح المشروع الاستعماري الإسرائيلي بتلك الخاصة بالمشروع الاستعماري الأورو–أمريكي الأم في المنطقة.

أما بالنسبة للفلسطينيين، فقد انعكس مفهوم الشتات الذي عرفه اليهود على واقع الشعب الفلسطيني، فهناك أكثر من مجتمع فلسطيني يمكن الحديث عنه في فلسطين المحتلة في العام 1948، وفي الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، وفي الشتات. وعلى الرغم من هذا التشرذم، ولربما بسببه جزئياً، استطاع الاستعمار الإسرائيلي أن يخدع جزءاَ من الفلسطينيين عبر اتفاقية أوسلو التي كانت وصفة هزيمة متقنة كما عبر عن ذلك إدرواد سعيد حين وصفها بأنها "فرساي فلسطينية" بكل ما يحمل المجاز من معنى يؤبد حالة الهزيمة، ويضمن شروط تفوق النموذج الاستعماري بدلاً من تحوُّل الحالة الفلسطينية من حالة استعمارية إلى حالة استقلال وتحرر وطني.

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه تم تحديد خمسة حقول أساسية لهذا الإخفاق للمشروع الوطني، أو بالأحرى، للنخبة الوطنية التي تحولت في حقبة "الاستعمار الجديد" إلى مجموعة من "الوسطاء، وصفها عبد الرحيم الشيخ بحالة النفق. إذ: "أدت عملية تجريد الفكرة الفلسطينية من ذاتها، ومن فحواها، على امتداد عقدين (1974–1994)، إلى خمسة تداعيات كارثية على المسألة الفلسطينية، أدت إلى ما أسميه هنا، في غير مكان: "حالة النفق" كمصير للوجود، وحالة "الاستشراق الفلسطيني" كمصير لـــ"الفكرة الفلسطينية" وهذه التداعيات، هي: (1) تحويل الحركة الوطنية الفلسطينية من حركة مقاومة وتحرر شمولية (شمولية هنا بمعنى احتوائية تشمل الفلسطينيين وغير الفلسطينيين، عرباً ويهوداً ومسيحيين)، إلى "حركة وطنية منحرفة،" حركة حازت على كل شرور ومثالب الوطنيات ما بعد الاستعمارية دون أن تنجح في تحويل القضية التي ناضلت من أجلها حتى إلى

شرط ما بعد استعماري تقليدي؛ (2) تعديل روح الجماعة الفلسطينية المتخيلة، وفكرتها عن ذاتها، ليس فقط من خلال استثناء العرب واليهود العرب، وغيرهم من اليهود المناصرين للقضية الفلسطينية (الذين غالباً ما يتم استعمالهم واستغلالهم من قبل الحركة الصهيونية من أجل منح إسرائيل طابعها اليهودي"، بل واستثناء جزئين صميميين من تكوينة الشعب الفلسطيني، هما: فلسطيني فلسطين المحتلة في العام 1948 الذين يشكلون 1.3 مليون نسمة ويعيشون في إسرائيل كمواطنين من الدرجة الثالثة، وفلسطينيو الشتات الذين يجاوزون ستة ملايين لاجئ كانوا قد أجبروا على الرحيل إثناء عملية التطهر العرقي لفلسطين من سكانها الأصليين في غمار حرب العام 1948، وما تلاها من أحداث دون أن ينعموا بتطبيق حق العودة المنصوص عليه في القرار 194؛ (3) تحويل المجتمع المدني الفلسطيني الفتي (الغض)، و"فضاء الحراك السياسي" و"ثقافة المعارضة،" من كونها جزءاً من الحركة الوطنية المقاوِمة للاستعمار إلى حركة تعمل على التعايش مع الاستعمار والتخفيف من آثاره Decolonization Movement، وإلى جماعات من "الوسطاء" بين الشعب المقهور من جهة، والسلطة الجديدة في المناطق الفلسطينية التي يديرها جزء من القيادة التاريخية للفلسطينيين حسب اتفاقيات أوسلو مع المستعمرين الإسرائيليين وسندهم الأمريكي؛ (4) تشريع الأبواب أمام المبادرات السياسية والثقافية المتنوعة لحل المسألة الفلسطينية مبتعدة عن حل الدولة العلمانية الديمقراطية الذي ابتدأت حركة التحرر الوطني الفلسطيني بطرحه منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. ولعل أكثر هذه المبادرات لفتاً للنظر المبادرات التي خرجت من فلسطين المحتلة في العام 1948 منادية بـــ"دولة كل المواطنين" ويعد فضلها إلى المفكر الفلسطيني المنفي عزمي بشارة، ومبادرة "حل الدولة الواحدة" التي يعتبر جوزيف مسعد من فلسطينيي الشتات من أبرز منظريها. هذا، بطبيعة الحال، إضافة إلى تنظيرات الدولة ثنائية القومية التي أنهى إدوارد سعيد حياته السياسية منظراً؛ و (5) تغيير موضع الاهتمام، على الصعيد الثقافي، من سياسات بناء الذاكرة الجماعية الفلسطينية إلى سياسات طمسها عبر تكريس سياسات النسيان الجماعي."[13]

---

[13] عبد الرحيم الشيخ."تاريخ فلسطين الثقافي: السياسات والجماليات،" قدمت في المؤتمر الرابع عشر لمواطن–المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، بعنوان: قِرَاءاتٌ نَقْدِيَّةٌ في المَسيرَةِ الوَطنيَّةِ الفِلَسطِينيَّة، (رام الله)، 28 – 29 تشرين الثاني، 2009. وأنظر كذلك:

Al-Shaikh, Abdul-Rahim, "Palästina: Leben im Tunnel", in: Catherine David, Georges Khalil and Bernd M. Scherer (eds.), *Di/Visions - Kultur und Politik des Nahen Ostens*, Wallstein Verlag, Goettingen 2009, pp. 191-214.

6.7 خلاصة

تشكل إسرائيل حالة استعمارية فريدة من نوعها، أدت في المحصلة إلى بروز نمط من الثنائية الكفاحية لدى حركة التحرر الوطني الفلسطينية. وبينما يشكل تيار ما بعد الصهيونية خطيئة جديدة تضاف إلى المشهد الإسرائيلي عبر كونه سنداً تجميلياً للرواية الصهيونية لتحريرها من عقدة ذنبها التي قد تظهر للوجود يوماً، فبدل أن تكون هذه الحركة تياراً للإعتراف بما جرى للسكان الفلسطنيين الأصليين، أصبحت جزءاً أساسياً من المنظومة الاستعمارية التي من دورها إضافة المزيد من المبررات والتجميلات على النظام الاستعماري، بل وحتى تغيير الوعي العام حوله واستبداله من خلال خلق وقائع ومعطيات جديدة، لتكمل الحركة الصهيونية ما بدأته في مشروعها ولكن بوسائل أكثر ذكاءً وحنكة. ومن هنا، فقد أصبحت خصوصية الشرط الفلسطيني مرتبطة بخصوصية النموذج الاستعماري الصهيوني. وعليه، يمكن الاستنتاج بأنه فيما تحولت الصهيونية من البكائية إلى الثورية في بداياتها، فقد إنتقلت تلك الصورة إلى الحركة الثورية الفلسطينية التي إنتقلت من طور الثورية إلى طور البكائية والاستجداء التي لن ينقذها إلا نموذج واحد: هو النموذج الفاندي الذي يكرس ثقافة اللاعنف، فيما لا يسقط حق الواقعين تحت الاستعمار في المقاومة العنفية التي ضمنتها لهم الشرعية الدولية.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربية



- إبراهيم، سعد الدين. 1987. المقاومة المدنية في النضال السياسي . عمان: منتدى الفكر العربي.

- .... 1987. *أزمة الديمقراطية في الوطن العربي* . بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- الأزعر، محمد خالد. 1996. النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين. رام الله: مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- ابن خلدون ، عبد الرحمن. 2004. المقدمة. تحقيق حامد احمد الطاهر.ط1 القاهرة: دار الفجر للتراث.

- بشارة، عزمي. 1995. ما معنى الحديث عن ديمقراطية فلسطينية؟. في البديري، موسى(محرر).*الديمقراطية الفلسطينية:أوراق نقدية*.رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- .... 1996. *مساهمة في نقد المجتمع المدني*. رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- .... 2002 . دوامة الدين والدولة في إسرائيل.الجامعة الاردنية: مركز الدراسات الاستراتيجية.

- .... 2005. من يهودية الدولة حتى شارون.رام الله: مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- .... 2002. الانتفاضة الفلسطينية والمجتمع الإسرائيلي: تحليل في خضم الإحداث. ط1.مركز دراسات الوحدة.

- بندلي،كوستي. 1988. نضال عنفي او لاعنفي .بيروت: منشورات النور.

- بينيت، براد. 1988. نماذج عالمية من حركات اللاعنف.المقاومة المدنية في النضال السياسي. سعد الدين إبراهيم (تحرير).ط1. عمان: منتدى الفكر العربي.

- براهيمي، عبد الحميد. 2001. في أصل الازمة الجزائرية .ط1.بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- باومغارتن، هلغا. 2006. من التحرير إلى الدولة، تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية 1948-1988.ط1.رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- البديري، موسى. 1995. *الديمقراطية الفلسطينية:أوراق نقدية (محرر)*. رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- بلقزيز، عبد الإله. 2000 . *العنف والديمقراطية*. بيروت: دار الكنوز الأدبية.

- تماري، سليم واخرون . 1994. المجتمع الفلسطيني في غزة والضفة والقدس العربية.ط1. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- .... 2004 . القدس 1948. رام الله: مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز بديل.

- جقمان، جورج. 1993 .الديمقراطية في القرن العشرين:نحو خارطة فكرية. رام الله: مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- جريس، صبري. 1987. تاريخ الصهيونية.القدس.

- الجرباوي، علي. 1999. البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين. ط1. رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- حوراني، فيصل.2003. جذور الرفض الفلسطيني1918 -1948.ط1. رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- حيدر، لطف الله. 2002. الصهيونية وفلسطين. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

- حربي، محمد وكميل داغر 1983. الجزائر 1954-1962، جبهة التحرير الوطني،الاسطورة والواقع.بيروت:مؤسسة الابحاث العربية.

- خولي، حسن صبري. 1970. سياسية الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الاول من القرن العشرين.القاهرة: دار المعارف.

- خريس، أحمد وآخرون. 2007. إدوارد سعيد وكتابة التاريخ.عمان. أزمنة.

- الدجاني، أحمد صدقي. 1987. تطور مفاهيم الديمقراطية في الفكر العربي الحديث.سعد الدين إبراهيم (تحرير).*أزمة الديمقراطية في الوطن العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- الزبيدي، باسم. 2003. *الثقافة السياسية الفلسطينية*. رام الله: مواطن–المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- زريق، إيليا. 1997. أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل، دليل إسرائيل العام. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- زريق، قسطنطين . 1990. العروبة وفلسطين حوار شامل مع قسطنطين زريق. ط1. بيروت.مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- سعد، فاروق. 1999. تراث الفكر السياسي قبل الامير وبعده.ط23. بيروت: دار الافاق الجديدة.

- الشيخ، سليمان. 2003. (محرر) الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين: دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

- الشوملي، جبرائيل. 1991. التجربة العصيانية في بيت ساحور: دراسة مقارنة: العصيان الوطني ، العصيان المدني. القدس: مركز الزهراء.

- الشويري، يوسف. 2002. القومية العربية، الأمة والدولة في الوطن العربي: نظرة تاريخية.ط1.بيروت. مركز دراسات الوحدة.

- صايغ، روزماري. 1980. الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع الى الثورة. بيروت: مؤسسة الابحاث.

- صايغ، يزيد. 2002. الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، 1993–1949. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- صايغ، يزيد. 1997. الفلسطينيون في الحرب الباردة. نابلس.مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، دائرة التحليل الاستراتيجي.

- صليبي، وليد. 2001.عقوبة الإعدام في التداول العام.ط1.بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 2006.نعم للمقاومة لا للعنف .ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 2002. الخيانة الاقتصادية تقرير عن صندوق النقد الدولي.ط1. بيروت:حركة حقوق الناس.

-............. 1996. مقاومة عنفية أولاعنفية..ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

-..............1994. اللاعنف اخلاقية وفعالية. بيروت: حركة حقوق الناس.

- صالح، فخري. 2004. النقد والمجتمع: حوارات مع رولان بارت وأخرون. دمشق. دار كنعان.

- طلاس، مصطفى 1984. الثورة الجزائرية. دمشق: طلاس للدراسات والترجمة.

- عاصي، جوني. 2006. نظريات الانتقال إلى الديمقراطية:إعادة نظر في برادغم التحول.ط1.رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- عويسي، عبد الفتاح. 1992. جذور القضية الفلسطينية 1799-1922. ط2.الخليل: دار الحسن للطباعة والنشر.

- العسلي، بسام . 1986. نهج الثورة الجزائرية.ط2.بيروت:دار النفائس.

- طرابلسي، فواز. 1996.*حوار من أجل الديمقراطية*. علي الكواري (تحرير). بيروت: دار الطليعة.

- كشطاني، خالد. 1986. نحو اللاعنف.القدس: المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف.

- كناعنة،شريف. 2000. الشتات الفلسطيني:هجرة أم تهجير.رام الله: مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني شمل.

- المالكي، مجدي وآخرون. 2004. المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال.ط1.رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

- المسيري، عبد الوهاب. 2003. البروتوكولات واليهودية والصهيونية .ط1. القاهرة: دار الشروق.

- .... 2001. الصهيونية والعنف.ط1.القاهرة: دار الشروق.

- .... 1988. الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية.ط1. تونس . دار النشر للمغرب العربي.

- مصالحة، نور الدين. 2003. إسرائيل وسياسة النفي:الصهيونية واللاجئون الفلسطينيون.رام الله: مدار.

- مالكي، محمد. 1993. الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- مجموعة مؤلفين. 1993. قراءات في الفكر القومي.الكتاب الأول.ط1. بيروت. مركز دراسات الوحدة.

- مجموعة مؤلفين. 1993. قراءات في الفكر القومي.الكتاب الثاني.ط1. بيروت. مركز دراسات الوحدة .

- نافع، بشير موسى. 1999. الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية. القاهرة: دار الشروق.

- الناشف، إسماعيل. 2005. فك الصهيونية:الفضاء والايدولوجيا في المدينة الصهيونية.بيرزيت: معهد ابو لغد للدراسات الدولية جامعة بيرزيت.

- يونان، اوغاريت. 1999. كيف نتربى على الطائفية.ط1.بيروت: حركة حقوق الناس.

- يحيى، جلال. 1959. السياسة الفرنسية في الجزائر من العام 1830-1959.القاهرة: دار المعرفة
-

الكتب المترجمة إلى العربية

- اسوران، أكناث. 1987.جندي اللاعنف في الإسلام رجل ولا كل الرجال.القدس: المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف.

- بابيه، إيلان. 2007. التطهير العرقي في فلسطين.ترجمة أحمد خليفة.ط1. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

- بريئر، ليني. 1990. حركة التصحيح الصهيونية.ترجمة دار الجليل.ط1.عمان: دار الجليل للنشر.

- بنفينسي، ميرون. 2001. المشهد المقدس، طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ 1948. ترجمة سامي مسلم. مدار. المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

- حوراني، ألبرت. 1997. تاريخ الشعوب العربية.ترجمة كمال خولي. ط1. بيروت: نوفل.

- داليا شحوري وآخرون. 2004. ما بعد الصهيونية بين الحياة والموت.ترجمة سعيد عياش. (محرر). رام الله: مدار.



- رابكن، ياكوف. 2006.المناهضة اليهودية للصهيونية.ط1. بيروت. مركز دراسات الوحدة

- سارتر، جان بول. 1964. الاستعمار الجديد. ترجمة عايدة ادريس. بيروت: دار الاداب.

- سعيد، ادوارد. 2006. المثقف والسلطة.ترجمة محمد عناني. ط1.القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

- .... 2004. إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة. ط1.بيروت: دار الآداب.

- .... 2005. الأنسنية والنقد الديمقراطي. ترجمة فواز طرابلسي. ط1.بيروت: دار الآداب.

- .... 2005. تغطية الاسلام . ترجمة محمد عناني. ط1.القاهرة : رؤية للنشر والتوزيع.

- .... 1995.الاستشراق.ترجمة كمال ابو ديب. ط4. بيروت: مؤسسة الابحاث العربية.

- .... 2002. نهاية عملية السلام، أوسلو وما بعدها. ط1. بيروت: دار الآداب.

- .... وأخرون.2004. الحرب من أجل فلسطين، إعادة كتابة التاريخ.ترجمة أسعد كامل الياس. (محرر). الرياض: مكتبة العبيكان.

- .... 2004. تأملات حول المنفى. ط1.بيروت : دار الآداب.

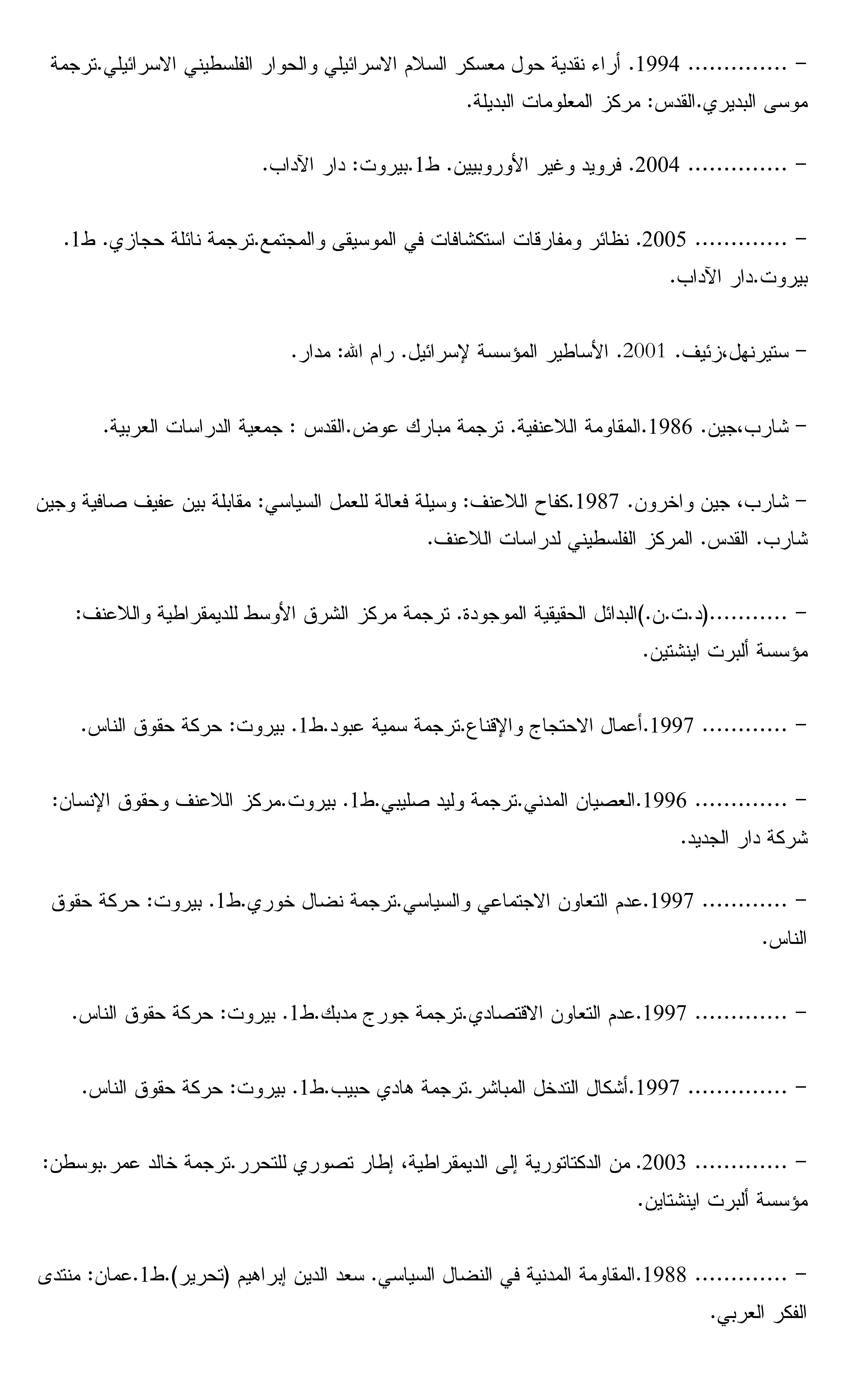
- .... 2004. ادوارد سعيد، مقالات وحوارات. محمد شاهين (تحرير). ط1.بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع.

- .... 1999. القلم والسيف حوارات مع ديفيد بارسميان.ترجمة توفيق الاسدي. ط2.دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.

- .... 1997.الثقافة والامبريالية.ترجمة كمال أبو ديب.بيروت: دار الاداب.

-.............2006.الثقافة والمقاومة: حوار مع ديفيد بارساميان .ترجمة علاء الدين ابو زينة.بيروت: دار الآداب.

-............. (د،ت،ن). الالهة التي تفشل دائماً. ترجمة حسام الدين خضور.القاهرة: دار الكتاب العربي.



- .... 1994. أراء نقدية حول معسكر السلام الاسرائيلي والحوار الفلسطيني الاسرائيلي.ترجمة موسى البديري.القدس: مركز المعلومات البديلة.

- .... 2004. فرويد وغير الأوروبيين. ط1.بيروت: دار الآداب.

- .... 2005. نظائر ومفارقات استكشافات في الموسيقى والمجتمع.ترجمة نائلة حجازي. ط1. بيروت.دار الآداب.

- ستيرنهل،زئيف. 2001. الأساطير المؤسسة لإسرائيل. رام الله: مدار.

- شارب،جين. 1986.المقاومة اللاعنفية. ترجمة مبارك عوض.القدس : جمعية الدراسات العربية.

- شارب، جين واخرون. 1987.كفاح اللاعنف: وسيلة فعالة للعمل السياسي: مقابلة بين عفيف صافية وجين شارب. القدس. المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف.

- ....(د.ت.ن.)البدائل الحقيقية الموجودة. ترجمة مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف: مؤسسة ألبرت اينشتين.

- .... 1997.أعمال الاحتجاج والإقناع.ترجمة سمية عبود.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 1996.العصيان المدني.ترجمة وليد صليبي.ط1. بيروت.مركز اللاعنف وحقوق الإنسان: شركة دار الجديد.

- .... 1997.عدم التعاون الاجتماعي والسياسي.ترجمة نضال خوري.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 1997.عدم التعاون الاقتصادي.ترجمة جورج مدبك.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 1997.أشكال التدخل المباشر.ترجمة هادي حبيب.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 2003. من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، إطار تصوري للتحرر.ترجمة خالد عمر.بوسطن: مؤسسة ألبرت اينشتاين.

- .... 1988.المقاومة المدنية في النضال السياسي. سعد الدين إبراهيم (تحرير).ط1.عمان: منتدى الفكر العربي.

- غاندي، موهنداس. 1997. كل البشر أخوة.ترجمة أنطوان أبو زيد.ط.1.بيروت: حركة حقوق الناس.

- .... 1964. قصة تجاربي مع الحقيقة:سيرة غاندي.ترجمة منير البعلبكي.بيروت: دار العلم للملايين.

- .... 1934. المهاتما غاندي. ترجمة مظهر إسماعيل.مصر: دار إحياء الكتب العربية.

- غارودي، روجيه. 1996. الأساطير المؤسسة لإسرائيل.ط1: دار الغد العربي.

- فريري، باولو. 2003. نظرات في تربية المعذبين في الأرض.ترجمة مازن الحسيني.ط1.رام الله: المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية ودار التنوير للنشر.

- فروم،اريك. 1998. جوهر الإنسان.ترجمة حبيب هادي.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- فيشر،لويس.(د.ت.ن).غاندي الثائر القديس.ترجمة صوفي عبدا لله.القاهرة: دار الهلال.

- .... 1966.لماذا نفذ صبرنا.ترجمة مياس عديلة. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

- فنكلشتاين، نورمان. 2000. صعود أفول فلسطين رواية شخصية لسنوات الانتفاضة. ترجمة أيمن حداد. دار كنعان.

- فانون، فرانز.2007 . لأجل الثورة الإفريقية.ترجمة ماريا طوق .ط1.بيروت: دار الفارابي

- كارتر، جيمي. 2007. فلسطين سلام لا تفرقة عنصرية. ترجمة عادل نجيب بشري.(د،م).(د،ن).

- كينج، مارتن لوثر. 1998. قوة المحبة.ترجمة أنطوان طوق.ط1. بيروت: حركة حقوق الناس.

- كوت،دافيد. 1972. فرانز فانون.ترجمة عدنان الكيالي. بيروت: المؤسسة العربية للنشر.

- لوبون، غوستاف. 1991. سيكولوجية الجماهير. ترجمة هاشم صالح. ط1. بيروت: دار الساقي.

- لازار، برنار. 2004. مناهضة السامية تاريخها وأسبابها.ترجمة ماري شهرستان. دمشق: دار الاوائل للنشر والتوزيع.

– مصلح،أديب. 1992.السياسي القديس: مهاتما غاندي. بيروت: المكتبة البوليسية.

– مافيجي، أرشي. 1992. منطق العمل الوطني: حركة التحرر الوطني الفلسطينية في دراسة مقارنة مع حركات التحرر الافريقية: من الكفاح المسلح الى الحلول التفاوضية.ترجمة أحمد يوسف أحمد.دمشق: دار كنعان.

– موللر،جان ماري. 1999.إستراتيجية العمل اللاعنفي. ترجمة ماري طوق.ط1.بيروت: حركة حقوق الناس.

–...............1995.معنى اللاعنف. ترجمة أنطوان طوق.ط1.بيروت: مركز اللاعنف وحقوق الإنسان.

– .... 2008. قاموس اللاعنف. ترجمة محمد عبد الجليل.دمشق. معابر للنشر والهيئة البنانية للحقوق المدنية.

– موريس، بيني. 2003. تصحيح خطأ .ترجمة أنطوان شلحت. رام الله: مدار.

– .... 1993. طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين.ط1. دار الجليل للنشر والأبحاث

– ويتمر، باربرا. 2007. الأنماط الثقافية للعنف.الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الكتب الانجليزية

- Ashcroft, Bill. 1999. Edward Said & the paradox of the identity .London. Routledge.

- Ansbro, John. 2000. Martin Luther King, Jr: nonviolent strategies & tactics for social change. Lanham. MD. Madison Books.

- Erikson, Erik H. 1969. Gandhi's truth: in the origins of militant non-violence. First edition. New York. : New York Norton non-violence.

- Fanon, Frantz. 1967. Toward the African Revolution; Political essays. New York: Grove press.

-Fanon, Frantz. 1967. A Dying colonialism. New York: Grove Press.

-Fanon, Frantz. 1963.The Wretched of the Earth. New York: Grove Press.

-Fanon, Frantz. 1967.Black Skin, White Masks. New York. : Grove Press.

-Gendzier, Iren l. 1973 .Frantz fanon: A critical biography. New York: Pantheon.

-Geismar, Peter. 1971. Fanon. New York: Dial press.

-Gorenberg, Gershom. 2007. Occupied Territories: The untold story of the Israel's settlements. New York: I.B. Tauris & Co Ltd.

-Hansn, Emmanuel. 1977. Frantz fanon: social and political thought: Columbus. Ohio State University Press.

-Kebede, Messay. 2004 Africa' s Quest for a Philosophy of Decolonization. Volume 153.Amsterdam: VIBS

-Massad, Joseph A. 2006. The Persistence of the Palestinian Question: Routledge. Great Britain.

- Morris, Benny. 2002. The road to Jerusalem: Glubb Pasha, Palestine & the Jews. London. I. B. Tauris.

-…………….. 2001. Righteous victims: A history of the Zionist-Arab conflict. New York: Vintage books.

- …………….. 1994. 1948 & after: Israel & the Palestinian. Oxford: Clarendon.

-Onwuanibe, Richard c. 1983. A Critique of Revolutionary Humanism: Frantz fanon: St Louis .Mo .USA .W. H .Green.

-Robert L. Holmes, Barry L. Gan, (N.D). Nonviolence in Theory and Practice .2Ed: Waveland Press.

- Said, Edward. 1990. A Profile of the Palestinian people. Chicago. Palestinian Human Rights Campaign.

-………….. . 1992. The Question of Palestine. VII. New York: Vintage.

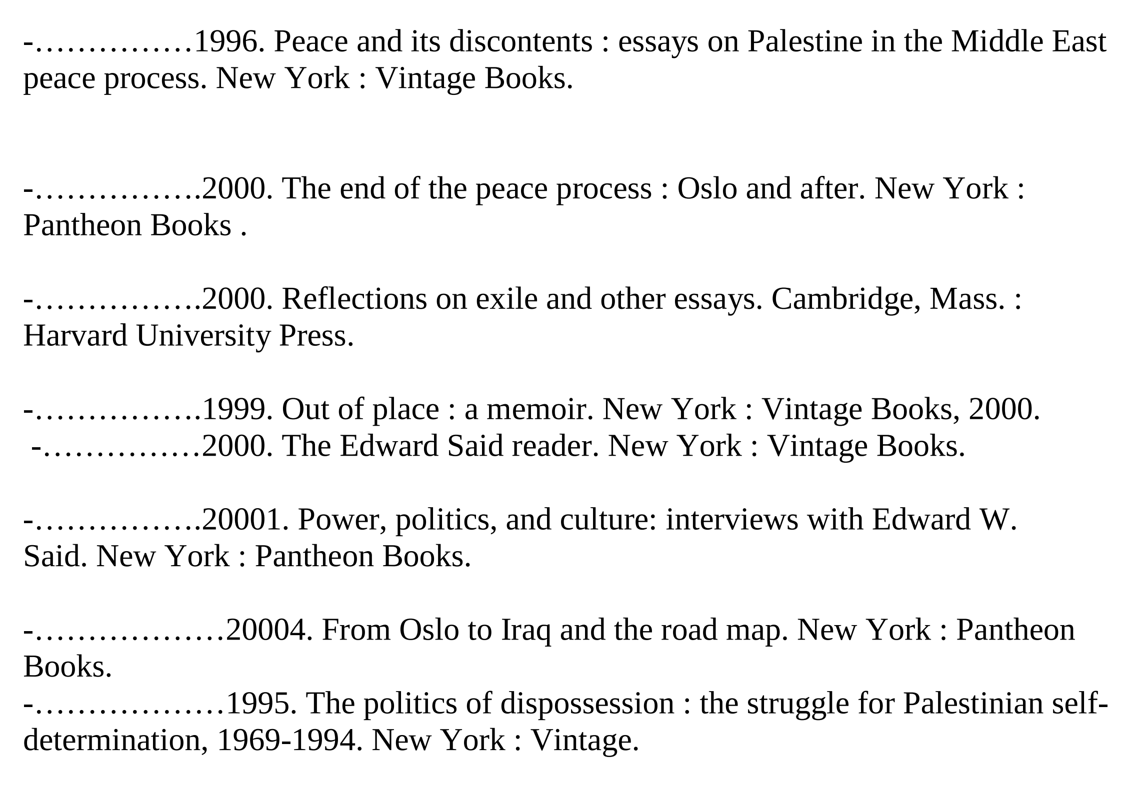
-……………1995. The politics of dispossession : the struggle for Palestinian self-determination, 1969-1994. New York : Vintage.

-…………….1979. The question of Palestine. New York : Times Books.

- …..............1986. After the last sky : Palestinian lives. New York : Pantheon Books.

-…………..1979. The Palestine question and the American context. Beirut : Institute for Palestine Studies.

-……………..1988. Blaming the victims : spurious scholarship and the Palestinian question. London ; New York : Verso.



-……………1996. Peace and its discontents : essays on Palestine in the Middle East peace process. New York : Vintage Books.

-…………….2000. The end of the peace process : Oslo and after. New York : Pantheon Books .

-…………….2000. Reflections on exile and other essays. Cambridge, Mass. : Harvard University Press.

-…………….1999. Out of place : a memoir. New York : Vintage Books, 2000.
-……………2000. The Edward Said reader. New York : Vintage Books.

-…………….20001. Power, politics, and culture: interviews with Edward W. Said. New York : Pantheon Books.

-………………20004. From Oslo to Iraq and the road map. New York : Pantheon Books.
-………………1995. The politics of dispossession : the struggle for Palestinian self-determination, 1969-1994. New York : Vintage.

-Samman, Ghada. 2006. Frantz Fanon: dualism and colonialism South Africa as a case study. Bir Zeit: Bir Zeit University.

- Steger, Manfred B. 2000. Gandhi Dilemma: nonviolent principles & the national power. New York. St Martin s Press.

-Sharp, Gene. 1996. Politics of the Nonviolent Action: Power and Struggle. First Edition. (S.N).

-Sharp, Gene. 2007. Waging the Non-violence Struggle .Boston. Extending Horizons Books: Porter Sargent Publisher In.

- Shir, Hever. 2006. The question of sanction & the boycott against Israel. Jerusalem: Alternative information center.

-Therese de, Coninck.(N.D). Essay on nonviolence. United state: the fellowship of reconciliation.

-William, J Thomson. (N.D). Essays on nonviolent resistant. Varp.

الدوريات

– أبراهيم، عبد الكريم. (د،ت،ن). "**تهويد أسماء الأماكن الفلسطينية: الايدولوجيا، التطبيقات ،المواجهة**". مجلة شؤون عربية.ع99: 92–109.

- أبو لغد، إبراهيم. (د،ت،ن). "**أسطورة إسرائيل الثامنة**". مجلة آفاق.أكاديمية المستقبل للتفكير الإبداعي.ع4: 153-172.

- أوري، رام. (د،ت،ن). "**الموقف من الكولونيالية في علم الاجتماع الإسرائيلي**". مجلة الكرمل. ع64: 241-260.

- أمين، جلال. (د،ت،ن). "**الاستعمار القديم والجديد**". مجلة الهلال.مج12: 29-31.

- أدلر، ديفيد. (د،ت،ن). "**ما بعد الصهيونية: بحثاُ عن تعريف مساعد**". مجلة صامد الاقتصادي.مج20.ع117.:264-257.

- الاسدي، عبده. (د،ت،ن). "**بحثاُ عن تحديد لما بعد الصهيونية إسرائيلياً**". مجلة صامد. مج 24. ع 129: 318-330.

- بشارة، عزمي. (د،ت،ن). **فلسطين إلى أين**.مجلة المستقبل العربي. مج 29.ع.329.ص:6-18.

- بوزوك، روس.(د.ت.ن)."**المشكلة في عيون هؤلاء دوبوا وفانون :الحياة المستحيلة للمثقف الأسود**".مجلة الثقافة العالمية.ع.86: 87-113.

- بتربرغ، غبريل. (د،ت،ن) "**نقد الصهيونية: حالات المحو**". مجلة الكرمل. ع69: 187-199.

- بابي،ايلان. **(د،ت،ن)**." **ما بعد الصهيونية:توجهات جديدة في الخطاب الأكاديمي**". مجلة الدراسات الفلسطينية.ع31: 77-95.

- بن يهودا، نحمان. 2001." **أسطورة المسادا**". مجلة الكرمل.ع67: 205-224

- جبّور، سمير. 1990."**تأثيرات الانتفاضة الفلسطينية في الاقتصاد الإسرائيلي**".مجلة الدراسات الفلسطينية.العدد 1: 225.

- جميل، أسماء. 2006. "**العنف في تراث علم الاجتماع**".مجلة النبأ.ع84. (نسخة الكترونية استرجعت بتاريخ 27-3-2008)

- حروب، خالد. (د،ت،ن)." **المؤرخون الجدد الفلسطينيون والإسرائيليون**".مجلة الدراسات الفلسطينية.ع48: 49-64.

- حنفي، حسن (د،ت،ن).**"ثقافة المقاومة"**. المستقبل العربي.مج 28.ع324: 88-108.

- حديدي، صبحي.(د.ت.ن).**"فرانز فانون نبي العنف ،مسيح الثقافات المقهورة،شاعر العالم"**.مجلة الكرمل.ع.50: 52-64.

- خوري، الياس. (د،ت،ن)." **سؤال النكبة: الصراع بين الحاضر والتأويل ادوارد سعيد ومسألة فلسطين**".مجلة الكرمل.ع78: 46-56.

- دراج، فيصل. (د،ت،ن)." **المثقف الفلسطيني وقراءة الصهيونية**". مجلة الكرمل.ع67: 108-126.

- دراج، فيصل. (د،ت،ن)." **المثقف الدنيوي والمثقف الرسولي عند إدوارد سعيد**.". المجلة الثقافية.ع71: 17-30.

- ريان، سعيد. (د.ت.ن)." **الارهاب الدولي وحركات التحرر**". مجلة الاسوار.ع.24: 46-55.

- زريق، رائف. (د،ت،ن). "**فلسطين وجنوب أفريقيا: الابرتهايد وخطاب الحقوق**". مجلة الدراسات الفلسطينية. ع62: 21-32.

- سماره، عادل. 1992."**هستيريا الديمقراطية الغربية:تستلب الوعي،تغتال الجزائر،وتتجاوز العالم الثالث**".*كنعان*.العدد :10: 22-29.

- سماره، عادل.(د،ت،ن).**"حفاظاً على صناعة اللاسامية"**.*كنعان*.العدد 121: ص 44-52.

- ....(د،ت، ن) "**عندما تحاصر اليهودية ذاتها والفلسطينيين**".مجلة قضايا اسرائيلية.مج7.ع99:25-108.

- ....(د،ت،ن). "**تأثير الانتفاضة على الاقتصاد الإسرائيلي**". مجلة الأسوار.ع4: 25-47.

- سعيد، إدوارد. (د،ت،ن). "**تمثيل التابع**". مجلة فصول.ع68: 221-234.

- ....(د،ت،ن). "**فلسطين 1948 شذرات أقتلاع معلن**".الكرمل.ع55: 201-215.

- ....(د،ت،ن).**"تمثيل المستعمر:محاور الانثروبيولوجيا"** .ترجمة صبحي الحديدي.الكرمل.مج14.ع44: 4-26.

- ....(د،ت،ن)."**صدام المفاهيم**" .الكرمل.ع53: 48-63.

- .... 2001. "**التلفيق الذاكرة المكان**" .ترجمة رشاد عبد القادر: الكرمل: 97

- شيف، زئيف. 1990." **الجيش الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة**".مجلة الدراسات الفلسطينية.العدد 1: ص2-219.

- شموئيل، أمير.(د،ت،ن) "**عن الايدولوجيا الصهيونية: بين الاستعمار الاوروبي وما بعد الصهيونية**". مجلة قضايا إسرائيلية. مج4. ع.13: 7-22.

- الصواف، محمد.(د.ت.ن)." **أثار الانتفاضة على الجيش الإسرائيلي**".الملف. مج 5. ع.60: 1089-1079.

- صباغ، زهير. 1989. "**الانتفاضة الفلسطينية والاقتصاد الإسرائيلي**". مجلة شؤون أكاديمية: ص109.

- صالحية،محمد عيسى (د،ت،ن). "**الصهيونية والمؤرخون الجدد وإعادة بناء الوقائع**". مجلة العربي.مج 75.ع517: 16-23.

- صايغ، يزيد. (د، ت، ن). **جيش التحرير الفلسطيني: تحديات مرحلة التكوين 1964-1967**.مجلة الدراسات الفلسطينية.ع35:ص23-48.

- صايغ، يزيد. (د، ت، ن).**الكفاح المسلح وتكوين الدولة الفلسطينية**. مجلة الدراسات الفلسطينية.ع32: ص10-19.
- صايغ، روز ماري. (د، ت، ن).**دراسات. الفلسطينيون في لبنان:** واقع مؤلم ومستقبل غامض.مجلة الدراسات الفلسطينية.ع13:ص12-28.

- عرباوي، ليلى (د،ت،ن) ." **إشكالية الثقافة الوطنية في الجزائر**". مجلة المستقبل العربي. مج24.ع275: 142-132.

- غنايم، محمد حمزة 2003. "**المؤرخون الجدد وأسئلة ما بعد الصهيونية**". مجلة الكرمل. ع58: 78-105.

- غانم،اسعد (د،ت،ن) ."**الصهيونية وما بعد الصهيونية وضد الصهيونية**".مجلة قضايا اسرائيلية.مج1.ع.4: 4-15.

- فضل الله، محمد حسين. 2002. "**المقاومة الفلسطينية المسلحة، أسئلة البعد الأخلاقي**". مجلة دار الاداب: 16-19(نسخة الكترونية استعيدت بتاريخ 29-1-2007)

- فالك، ريتشارد . 2002." **المقاومة الفلسطينية، أسئلة البعد القانوني**". مجلة دار الاداب :ص24 (نسخة الكترونية إستعيدت بتاريخ 29-1-2007)

- قاسم، عبد الستار.(د.ت.ن). "**العصيان المدني في الأراضي المحتلة**".مجلة قراءات سياسية.مج 3. ع1: 69-93.

- كابرال، أميلكار. (د،ت،ن). "**التحرر الوطني والثقافة**".شؤون تنموية.ع3: 44-45.

- كيالي، ماجد (د،ت،ن)." **الدولة اليهودي: مجتمع مهاجرين مستوطنين**". مجلة صامد الاقتصادي.ع 115-116: 213-226.

- المسيري، عبد الوهاب 1998. "**المفهوم الصهيوني الإسرائيلي للصراع وللسلام**" .مجلة أفاق.مج 2.ع6\7: 267-280.

- .... 1998." **الاصول الغربية للرؤية الصهيونية**" .مجلة شؤون عربية.ع115.:166-190.

- الموعد، حمد. 1999. "**الاستيطان والطرق الالتفافية يخلقان الابرتهايد في الاراضي المحتلة**". مجلة صامد الاقتصادي.مج 115-116: 301-313.

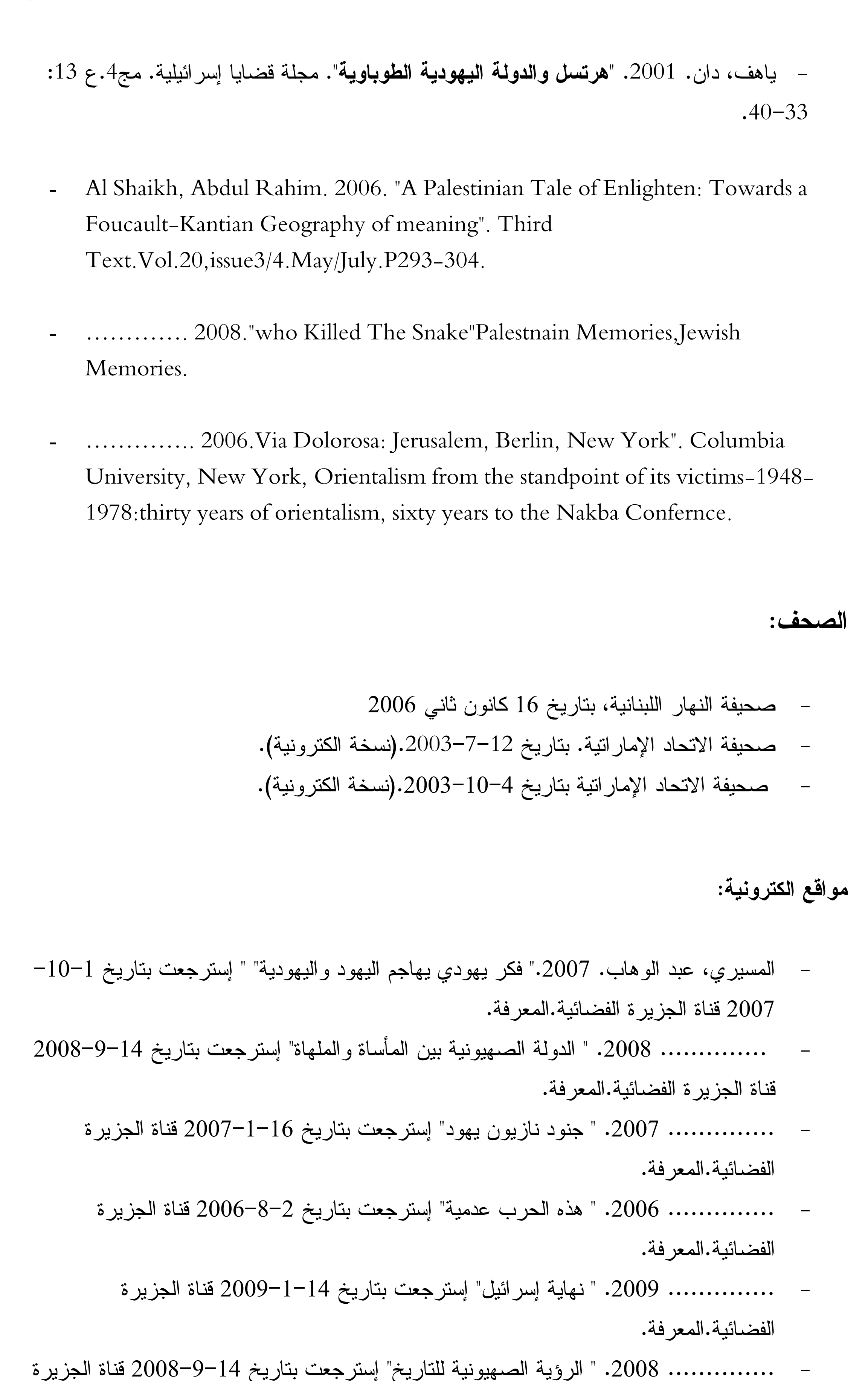
- موريس، بيني. (د،ت،ن)." **التأريخ الصهيوني وفكرة الترانسفير**". مجلة الكرمل. ع67: 191-204.

- مسعد ، جوزيف. 2001. "**تفكيك الوعي بالمحرقة**". مجلة الدراسات الفلسطينية. ع.53: 138-147.

- مسعد،جوزف 2002 **عن الصهيونية و نزعة التفوق العرقي اليهودي**. بيروت.دار الاداب نسخة الكترونية: ص 19-30.

- منصور، هالة (د،ت،ن). "**إستراتيجية الإرهاب : دور المجازر الصهيونية في النكبة وقيام الدولة العبرية**".مجلة صامد.مج20.ع113: 68-89.

- الياسيني، محمد. 2001. "**الأصل الغير يهودي للصهيونية**". مجلة كنعان.ع113:ص29-60.



- ياهف، دان. 2001. "**هرتسل والدولة اليهودية الطوباوية**". مجلة قضايا إسرائيلية. مج4.ع 13: 33-40.

- Al Shaikh, Abdul Rahim. 2006. "A Palestinian Tale of Enlighten: Towards a Foucault-Kantian Geography of meaning". Third Text.Vol.20,issue3/4.May/July.P293-304.

- ………… 2008."who Killed The Snake"Palestnain Memories,Jewish Memories.

- …………. 2006.Via Dolorosa: Jerusalem, Berlin, New York". Columbia University, New York, Orientalism from the standpoint of its victims-1948-1978:thirty years of orientalism, sixty years to the Nakba Confernce.

الصحف:

- صحيفة النهار اللبنانية، بتاريخ 16 كانون ثاني 2006
- صحيفة الاتحاد الإماراتية. بتاريخ 12-7-2003.(نسخة الكترونية).
- صحيفة الاتحاد الإماراتية بتاريخ 4-10-2003.(نسخة الكترونية).

مواقع الكترونية:

- المسيري، عبد الوهاب. 2007." فكر يهودي يهاجم اليهود واليهودية" " إسترجعت بتاريخ 1-10-2007 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- ………….. 2008. " الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- ………….. 2007. " جنود نازيون يهود" إسترجعت بتاريخ 16-1-2007 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- ………….. 2006. " هذه الحرب عدمية" إسترجعت بتاريخ 2-8-2006 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- ………….. 2009. " نهاية إسرائيل" إسترجعت بتاريخ 14-1-2009 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- ………….. 2008. " الرؤية الصهيونية للتاريخ" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.

- .... 2006. " في الدفاع عن الهوية" إسترجعت بتاريخ 14-9-2008 قناة الجزيرة الفضائية.المعرفة.
- قاسم،عبد الستار.(د،ت،ن). "الصهيونية".استرجعت بتاريخ 12-2-2008 .موقع البروفسور عبد الستار قاسم الالكتروني.
- الثورة الجزائرية. 2008.استرجعت بتاريخ 27-2-2008. ويبكيديا الموسوعة الحرة الالكترونية. www.wipkidia.com-
- www.aljazeera.net
- www.alquds.com

المقابلات التلفزيونية:

- لبيب، الطاهر. قناة العربية، مقابلة مع احمد علي الزين، 9-12-2007 .

الأفلام الوثائقية:

- حرب لبنان. عمر عيساوي. قناة الجزيرة وشركة الصباح للإعلام..2001
- حكاية ثورة، عمر العيساوي، قناة الجزيرة. 2008
- الصراع العربي الإسرائيلي خمسون عام من الحرب. تعليق جورج قرداحي. قناة 1995.MBC

وثائق غير منشورة

- عبد الجواد، صالح. (بحث غير منشور). "الصهيونية، مدارس ومفكرين ومشروع، مدخل عام".

- .... (بحث غير منشور). "حرب 1967 وسياسة السوسيوسايد 1967-2000"
- موللر، جان ماري.2009.سيمون فايل رغبة اللاعنف. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.
- ....2009. تولستوي وعدم مقاومة الشر بالعنف. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.
- ....2009. الانتقام ليس حقاً من حقوق الانسان. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.
- ....2009. ملكوت الله فيكم. ترجمة ديمتري افييرينوس. وثيقة غير منشورة.